١٩٩٨

مكتبة نوبل

@ketab_n
Follow Me
17.2.2016

جوزيه ساراماغو

كل الأسماء

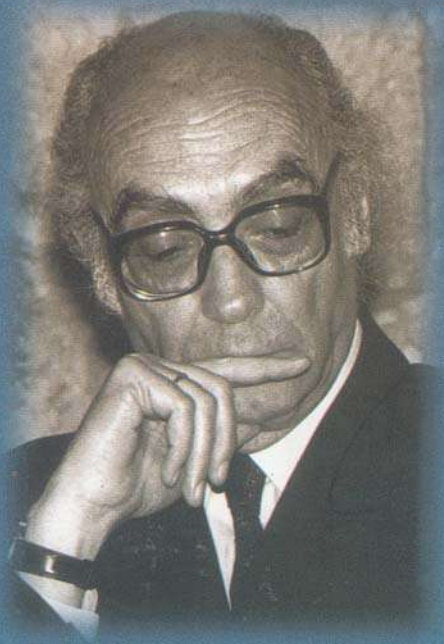

ترجمة : صالح علماني

١٩٩٧
مكتبة نوبل

جوزيه ساراماغو

كل الأسماء

ترجمة

صالح علماني

Twitter: @ketab_n

كل الأسماء

Twitter: @ketab_n

مكتبة نوبل

اسم المؤلف : جوزيه ساراماغو
عنوان الكتاب : كل الأسماء
المترجم : صالح علماني
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى : ٢٠٠٢
الطبعة الثانية : ٢٠١٠
الطبعة الثالثة : ٢٠١٢
الحقوق محفوظة
Author:José Saramago
Title:TODOS OS NOMAS
Translator:Saleh Almani
Al- Mada P.C.
First Edition: 2002
Second Edition: 2010
Third Edition: 2012
Copyright © Jose Saramago &
Editorial caminho,SA Lisboa,1997.
By arrangment with Dr.Ray-Gude Mertin,Literarische Agenture, Bad Homburg, Germany
The Portuguese Institute for Book and Libraries supported this book.

دار المدى للثقافة والنشر

سورية- دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email:info@daralmada.com

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

Twitter: @ketab_n

إلى بيلار

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أنت تعرفُ الاسم الذي أطلقوه عليك،
ولكنك لا تعرف الاسم الذي هو لك.
كتاب التجليات

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هناك فوق إطار الباب لوحة معدنية طويلة وضيقة، مطلية بالمينا. وعلى الخلفية البيضاء، توجد حروف سوداء تقول المحفوظات العامة للسجل المدني. طبقة المينا مجرحة ومشققة في بعض الأماكن. الباب قديم، آخر طبقة من الطلاء البني مقشرة، وعروق الخشب، المكشوفة، تُذكّر بجلد مخطط. هناك خمس نوافذ في الواجهة. وما إن يجتاز المرء العتبة حتى يشم رائحة الورق القديم. صحيح أنه لا يمر يوم إلا وتدخل إلى المحفوظات أوراق جديدة، لأشخاص من جنس الذكور أو جنس الإناث ممن يولدون هناك خارجاً، ولكن الرائحة لا تتبدل أبداً، وذلك في المقام الأول، لأن قدر كل ورق جديد، منذ خروجه من المصنع، هو البدء بالتحول إلى ورق عتيق، وفي المقام الثاني، لأنه لا يمر يوم على الورق القديم في العادة، وعلى الورق الجديد في أحيان كثيرة أيضاً، إلا وتكتب عليه أسباب وفيات ومكانها وتاريخها، ويسهم كل ورق بروائحه الخاصة، وهي ليست روائح مؤذية على الدوام للأغشية المخاطية، مثلما تثبت بعض التضوعات العطرة التي تنفذ بخفة أحياناً إلى جو المحفوظات العامة ويمكن للأنوف مرهفة الحساسية أن تتعرف عليها كعطور ممزوجة مناصفة من الورد والأقحوان.

بعد اجتياز الباب، يظهر حاجز عالٍ مزجج ذو مصراعين يؤدي إلى القاعة المستطيلة الفسيحة حيث يعمل الموظفون، منفصلين عن الجمهور بحاجز كونتوار طويل يمتد ما بين الجدارين الجانبيين،

Twitter: @ketab_n

باستثناء جزء منه يشكله ذلك الباب المتحرك في الاتجاهين والذي يسمح بالمرور إلى الداخل. ويراعي توزيع الأماكن في القاعة أقدمية التراتبية الوظيفية بالطبع، وكونه متناسقاً، كما هو متوقع، من هذه الناحية، فإنه متناسق كذلك من الناحية الهندسية، وهو ما يشكّل دليلاً على عدم وجود أي تعارض عضال ما بين الجمالية والسلطة. فصف الطاولات الأول الموازي للكونتوار يشغله ثمانية كتبة يتولون التعامل مع جمهور المراجعين. وراءهم، هناك صف من أربع طاولات، مركزية بالنسبة إلى محور التناظر الذي يبدأ من الباب ويضيع أثره هناك في العمق، عند تخوم المبنى المظلمة. ويشغل هذه الطاولات المأمورون. ويليهم نائبا المدير، وأخيراً، هناك المدير معزولاً ووحيداً، مثلما يجب أن يكون، وهم يسمونه الرئيس في التعامل اليومي.

توزيع المهمات بين طاقم الموظفين يتم وفق قاعدة بسيطة، تتلخص في أنه على عناصر كل مرتبة واجب تنفيذ كل ما يمكنهم تنفيذه من العمل، بحيث لا ينتقل إلا جزء يسير منه إلى المرتبة التالية. هذا يعني أنه لا مناص للكتبة من أن يعملوا دون راحة منذ الصباح حتى الليل، بينما يعمل المأمورون بين حين وآخر، ونائبا المدير في أوقات متباعدة جداً، أما المدير فلا يكاد يعمل على الإطلاق. الحركة الدؤوبة المتواصلة للثمانية الذين في المقدمة، الذين ما إن يجلسوا حتى ينهضوا، ويبقوا دائمي الركض من الطاولة إلى منضدة الكونتوار، ومن منضدة الكونتوار إلى خزائن البطاقات، ومن خزائن البطاقات إلى الأرشيف، مكررين دون راحة هذه المشاهد والتوليفات وغيرها أمام لامبالاة رؤسائهم، سواء الرؤساء المباشرون أو البعيدون، هي عامل لا بد منه لفهم كيف كان ممكناً وسهلاً بصورة مؤسفة اقتراف التجاوزات، والمخالفات، وممارسات التزوير التي تشكل المادة المركزية لهذه القصة.

Twitter: @ketab_n

ولكي لا نفقد طرف الخيط في قضية بهذه الأهمية، فإنه من المناسب أن نبدأ ونحن نعرف أين توجد وكيف تعمل ملفات الأرشيف وخزائن البطاقات. إنها مقسمة، بصورة بنيوية وقاعدية، أو وفقاً لقانون الطبيعة، إذا أردنا استخدام كلمات بسيطة، في منطقتين كبيرتين هما، منطقة ملفات وبطاقات الأموات، ومنطقة ملفات وبطاقات الأحياء. فأوراق أولئك الذين لم يعودوا أحياء توجد مرتبة إلى حد ما في القسم الخلفي من المبنى، والذي يتوجب بين فترة وأخرى هدم جداره وإعادة بنائه من جديد على بُعد بضعة أمتار إلى الوراء، بسبب التزايد المستمر في أعداد الموتى. وسيكون من السهل الاستنتاج، بأن مصاعب ترتيب أمر الأحياء، وإن كانت مقلقة، آخذين في الاعتبار أن هناك أناساً يولدون على الدوام، هي أقل إلحاحاً بكثير، وقد جرى حلّها حتى الآن، بطريقة مرضية عقلانياً، سواء بأسلوب الضغط الآلي الأفقي للملفات الفردية المنضدة على رفوف الخزائن، هذا بالنسبة للملفات، أو باستخدام بطاقات رقيقة أو رقيقة جداً، بالنسبة لأرشيف البطاقات. وعلى الرغم من مشكلة الجدار الخلفي غير المريحة، والتي أُشير إليها سابقاً، فإن روح الارتجال لدى أولئك المهندسين المعماريين الذين صمموا بناء **المحفوظات العامة للسجل المدني** تستحق كل الإطراء والمديح، لأنهم طرحوا، في مواجهة الآراء المحافظة لبعض العقليات الحريصة المتمسكة بالماضي، ودافعوا عن إقامة هياكل الخزائن الخمس العملاقة ذات الرفوف التي ترتفع حتى السقف وراء ظهور الموظفين، وإرجاع حافة الخزانة المركزية إلى الوراء، حيث تكاد أن تلامس مقعد المدير، وتقريب حافة الخزانتين الجانبيتين من منضدة الكونتوار، لتبقى الاثنتان، وهذا مجرد قول، في وسط الطريق. هذه الهياكل المبنية، التي يعتبرها جميع المراقبين هائلة وخارقة، تمتد داخل المبنى إلى ما وراء

Twitter: @ketab_n

ما يمكن للعين بلوغه، لأن الظلمة أيضاً، بدءاً من ارتفاع معين، تأخذ بالانتشار، ذلك أن المصابيح تكاد لا تُضاء إلا عندما تكون هناك حاجة إلى تفحص ملف ما. هياكل الخزائن ذات الرفوف تلك هي التي تتحمل ثقل الأحياء. أما الأموات، فأوراقهم محشورة هناك عميقاً، في ظروف أسوأ مما يسمح به الاحترام، ولهذا لا بد من بذل جهد للعثور عليها عندما يأتي قريب أو كاتب بالعدل أو وكيل قضائي إلى المحفوظات العامة طالباً شهادات أو نُسخاً من وثائق أزمنة أخرى. وسبب فوضى هذا القسم من الأرشيف واستفحالها يكمن في واقع أن المتوفين القدماء هم الأقرب إلى المنطقة المدعوة فعالة، والتي تأتي مباشرة بعد منطقة الأحياء، مشكّلة، حسب التعريف الذكي لرئيس المحفوظات العامة، ثِقلاً ميتاً مرتين، ذلك أنه نادراً ما يهتم أحد بهم، ويقتصر الأمر في أوقات متباعدة على مجيء أحد غريبي الأطوار للبحث عن شذرات تاريخية تافهة لا تكشف شيئاً. وقد تبين أنه لا حلّ لهذا الوضع إلا بحسم أمر الفصل يوماً بين الموتى والأحياء، ببناء إدارة محفوظات جديدة في مكان آخر تخصص للموتى وحدهم، واتضح ذلك عندما خطر لأحد نائبي المدير، في ساعة نحس، أن يقترح تنظيم أرشيف الموتى على عكس ما هو عليه، وذلك بوضع الموتى القدماء في العمق، وقبلهم من ماتوا في تاريخ أقرب، في ترتيب يُسهّل، حسب كلماته البيروقراطية، الوصول إلى الموتى المعاصرين الذين هم، كما هو معروف، أصحاب الوصايا، ومانحو التركات، وهم بالتالي موضع منازعات وردود طالما أجسادهم ما تزال دافئة. وافق المدير على الفكرة ساخراً، شريطة أن يكون صاحب الاقتراح نفسه هو من يدفع إلى العمق، يوماً بعد يوم، الكتلة الهائلة من ملفات الموتى المنسيين الفردية، بهدف أن يحل الموتى المحدثون في الفراغ المستعاد. ولرغبته في تجاهل

Twitter: @ketab_n

هذا الخاطرَ الكارثي وغير القابل للتحقيق، ولكي يلهي نفسه كذلك عن الإهانة المُذلة، لم يجد نائب المدير وسيلة أفضل من الطلب إلى الكتبة بأن يحولوا إليه عملاً ما، خادشاً بذلك السلام التاريخي للتسلسل الوظيفي، بالاتجاه العلوي والسفلي على السواء. أدت هذه الحادثة إلى تنامي التقصير، وازدهار الإهمال، وتفاقم التردد، إلى حد اختفى معه يوماً في متاهات سراديب أرشيف الموتى أحد الباحثين ، جاء بعد شهور من ذلك الاقتراح السخيف إلى المحفوظات العامة ليقوم بتحريات ميراثية كُلِّف بها. وقد عُثر عليه بما يشبه المعجزة بعد أسبوع، جائعاً، عطشاً، مستنفداً، هاذياً، وباقياً على قيد الحياة بفضل الوسيلة اليائسة في ابتلاع كميات كبيرة من الورق القديم لم يكن بحاجة إلى مضغها لأنها كانت تتحلل من تلقاء نفسها في فمه، دون أن تبقى طويلاً في معدته ودون أن تغذيه. ولأن رئيس المحفوظات العامة كان قد طلب أن يُحضروا إلى مكتبه ملف ذلك المؤرخ المتهور لنقله إلى خانة الموتى، فقد أضطر إلى غض النظر عن الأضرار التي أحدثها، ونُسبت رسمياً إلى الفئران، ثم وقّع بعد ذلك أمراً داخلياً يقضي، تحت طائلة الغرامة وتعليق الراتب، بوجوب استخدام خيط آريان[1] لكل من يدخل أرشيف الموتى.

ليس من العدل على أي حال تناسي مصاعب الأحياء. فما هو أكثر من صحيح ومعروف أن الموت، سواء لعدم كفاءة أصيلة فيه، أو لسوء نية مبيتة عبر التجربة، لا يختار ضحاياه بما يتفق مع مدة حياتهم التي عاشوها، وهو سلوك، نقول ذلك بين قوسين، انتهى به المطاف، إذا

---

[1] آريان Ariane أو Ariadna: هي في الأساطير الإغريقية ابنة مينوس ملك جزيرة كريت. قدمت إلى ثيسيوس الخيط الذي مكنه من معرفة طريق الخروج من المتاهة بعد أن قتل المينوتور.

Twitter: @ketab_n

ما صدقنا كلام المراجع الفلسفية والدينية المتعددة التي تعرضت للموضوع، إلى أن يبعث في الكائن البشري، بصورة انعكاسية، وعبر سبل مختلفة ومتناقضة أحياناً، تأثيراً غريباً من التصعيد الذهني للخوف الطبيعي من الموت. ولكن، بالرجوع إلى ما يهمنا، فإنه لا يمكن اتهام الموت أبداً بأنه ترك عجوزاً منسياً بصورة غير محدودة في الدنيا، لمجرد أن يصير في كل يوم أكثر شيخوخة، دون أي استحقاق معروف أو سبب ظاهر للعيان. فمهما طال عمر المسنين، فإن ساعتهم ستأتي دون ريب. ولا يمر يوم إلا ويكون على الكتبة أن يُخرجوا ملفات من رفوف الأحياء لينقلوها إلى المستودع الذي في العمق، ولا يمر يوم إلا ويدفعون نحو أقصى الخزائن أولئك المتبقين على قيد الحياة، وإن يكن ذلك أحياناً، بسبب نزوة تهكمية من نزوات القدر الغامض، حتى اليوم التالي فقط. ووفقاً لما يسمى النظام الطبيعي للأشياء، فإن الوصول إلى أقصى الخزانة يعني أن الحظ قد تعب، وأنه لم يعد هناك أمام المرء مزيد من الطريق ليذرعه. فالوصول إلى نهاية الخزانة ذات الرفوف هو، بكل المعاني، بداية السقوط. ومع ذلك، قد يحدث أحياناً، دون أن يدري أحد السبب، أن تبقى ملفات في الحافة القصوى للفراغ، غير متأثرة بهذا الدوار الأخير، لسنوات وسنوات أطول مما يقره العرف على أنه الأمد الطبيعي لحياة بشرية. في أول الأمر تثير تلك الملفات، في الموظفين، الفضول المهني، ولكنها سرعان ما تبدأ بإيقاظ ضيقهم ونفاد صبرهم، كما لو أن العناد الوقح لمديدي العمر أولئك يختزل فرص الحياة لديهم، يأكلها، يلتهمها. ولا يكون هؤلاء المؤمنون بالخرافات مخطئين تماماً، إذا ما أخذنا في الاعتبار حالات الموظفين من كل الفئات العديدة الذين توجب سحب ملفاتهم من أرشيف الأحياء بصورة مبكرة، بينما الأوراق الخارجية للمكابرين في البقاء على قيد

Twitter: @ketab_n

الحياة آخذة بالاصفرار أكثر فأكثر، إلى أن تتحول إلى لطخات قاتمة وغير جمالية في أقصى طرف الرفوف، مسيئة إلى نظرات الجمهور. وعندئذ يقول رئيس المحفوظات العامة لأحد الكتبة، استبدل أغلفة تلك الملفات يا دون جوزيه.

Twitter: @ketab_n

إضافة إلى اسمه الأول «جوزيه»، لدى السيد جوزيه كنيتان اثنتان أيضاً، وهما من أكثر الكنى شيوعاً، وتخلوان من تلك الشذوذات الاسمية، إحداهما كنية أبيه، والأخرى كنية أمه، وفقاً للعرف السائد، وقد انتقلت إليه الكنيتان بصورة شرعية، مثلما يمكننا أن نتأكد في سجل الولادات الموجود في المحفوظات العامة إذا ما كان جوهر الحالة يبرر الاهتمام بذلك، وإذا ما كانت حصيلة التقصي تعوض الجهد المبذول لتأكيد ما هو معروف. ومع ذلك، ولسبب غير معروف، ما لم يكن مبعث ذلك ببساطة هو تهاون شخصي، عندما يُسأل دون جوزيه عن اسمه، أو عندما تتطلب الظروف أن يقدم نفسه، أنا فلان الفلاني، فلن يفيده في شيء النطق بالاسم كاملاً، لأن محادثيه لن يحتفظوا في ذاكرتهم إلا بالكلمة الأولى، جوزيه، والتي يضيفون إليها أو لا يضيفون بعد ذلك كلمة «دون»، حسب درجة علاقة الثقة أو الرسمية، المجاملة أو الألفة في المعاملة. وهكذا فإن كلمة «دون»، ولنقل ذلك بصراحة، ليست لها كل القيمة التي تبدو أنها توحي بها في البداية، على الأقل هنا في المحفوظات العامة، حيث واقع أن الجميع يتعاملون بهذه الطريقة، ابتداء من المدير وحتى أحدث الكتبة عهداً في الوظيفة، لا يكون لها المدلول نفسه في ممارسة العلاقات المرتبية الوظيفية، بل ويمكن أن تُلاحَظ، في طريقة النطق بالكلمة المقتضبة، وحسب مختلف درجات السلطة أو مزاج اللحظة، نغمات شديدة التنوع مثلما هي نغمات

Twitter: @ketab_n

التفضل، النزق، التهكم، الازدراء، التذلل، التملق، وهو ما يُبين إلى أي حد يمكن أن تصل الإمكانيات التعبيرية للفظة مقتضبة جداً تبدو، للوهلة الأولى، وكأنها تعني شيئاً واحداً فقط. بهذين المقطعين الصوتيين في «جوزيه» والمقطع الوحيد لكلمة «دون»، عندما تسبق الاسم، يحدث الشيء نفسه تقريباً. ففي هذه المقاطع الصوتية يمكن أن نميز، عندما يتوجه أحدهم إلى المُسمى، في المحفوظات أو خارجها، نبرة الازدراء، أو التهكم، أو النزق، أو التفضل. أما النغمات الأخرى، نبرات التذلل والتملق، النبرات المداهنة أو المرخمة، فإنها لا ترن مطلقاً في مسمعي الموظف الكاتب دون جوزيه، إذ ليس لهذه النغمات مدخل في التدرجات اللونية للمشاعر التي يبدونها تجاهه عادة. ولا بد من التوضيح مع ذلك، بأن بعض هذه المشاعر هي أكثر تعقيداً من تلك التي عُدِّدت سابقاً، وهي أولية وجلية بطريقة ما، مكوّنة من قطعة واحدة. فعندما أصدر المدير، مثلاً، الأمر: استبدل أغلفة تلك الملفات يا دون جوزيه، كان يمكن لأذن متيقظة ومرهفة أن تتعرف في صوته على شيء يمكن تصنيفه، مع تجاوز التناقض الواضح في المصطلحات، باللامبالاة السلطوية، أجل، سلطة واثقة من نفسها تماماً إلى حد لا تبدي معه تجاهلها للشخص الذي تتوجه إليه وحسب، حتى بعدم النظر إليه، وإنما تترك انطباعاً واضحاً، منذ تلك اللحظة، بأنها لن تتنازل بعد ذلك للتأكد من تنفيذ الأمر. من أجل الوصول إلى الرفوف العليا، هناك في الأعلى، عند مستوى السقف تقريباً، يتوجب على دون جوزيه أن يستخدم سُلَّماً يدوياً طويلاً جداً، ولأنه يعاني، لسوء الحظ، من ذلك الاختلال العصبي المزعج الذي ندعوه بالعامية جاذبية الهوة، فإنه لا يجد بداً، إذا كان لا يريد تهشيم عظامه على الأرض، من ربط نفسه إلى درجات السلّم بحزام متين. وفي الأسفل، لا يخطر لأي من زملائه

Twitter: @ketab_n

في المرتبة الوظيفية، ناهيك عن الحديث عن الرؤساء، رفع عينيه ليرى إذا ما كان العمل يجري على ما يرام. ويُفهم من هذا أنها طريقة أخرى لتبرير عدم المبالاة.

في البدء، وهو بدء يرجع إلى عدة قرون خلت، كان الموظفون يقيمون في إدارة المحفوظات العامة. ليس في داخلها بالضبط، وليس في اختلاط كامل، وإنما في مساكن بسيطة وبدائية مشيدة في الخارج، على امتداد الجدران الجانبية، لها شكل صوامع صغيرة مهملة راحت تتشبث بجسد المحفوظات الراسخ. وكان لكل واحد من تلك البيوت بابان، الباب العادي، المطل على الشارع، وباب إضافي، خفي، غير مرئي تقريباً، يتصل بقاعة الأرشيف الكبرى، وهو أمر كان يعتبر في تلك الأزمنة، وعلى امتداد سنوات طويلة، مفيداً تماماً من أجل سير الخدمات على أحسن وجه، إذ لا يضطر الموظفون إلى إضاعة الوقت في التنقل عبر المدينة ولا يمكن لهم التعلل بمشاكل حركة المرور حين يأتون متأخرين. إضافة إلى هذه المزايا اللوجستية، كان من السهل إرسال التفتيش للتأكد إذا ما كان تغيبهم صحيحاً عندما يخطر لهم تقديم إجازة مرضية. وقد طرأ لسوء الحظ تغيير على وجهات النظر البلدية حول التنظيم العمراني للحي الذي تقوم فيه المحفوظات العامة، أدى إلى هدم تلك البيوت الفريدة، باستثناء واحد منها، قررت السلطات المختصة الحفاظ عليه كوثيقة معمارية لمرحلة تاريخية وذكرى من نظام علاقات عمل، على الرغم من انتقادات الحداثة الخفيفة، كانت له حسناته أيضاً. وفي هذا البيت كان يسكن دون جوزيه. لم يكن ذلك مقصوداً، ولم يختاروه ليكون المؤتمن المتبقي من زمن غابر، وإذا كان ذلك قد حصل على هذا النحو فيجب عزوه فقط إلى موقع المسكن، القائم عند زاوية لا تضر بالتراصف المنتظم، ولم يكن الأمر ينطوي

Twitter: @ketab_n

بالتالي على عقاب أو ثواب، وهما أمران لا يستحقهما دون جوزيه، لم يكن هذا أو ذاك، فقد سُمح له بمواصلة العيش في المسكن وحسب. على كل حال، وكإشارة إلى أن الأزمنة قد تبدّلت ولتجنب وضعٍ يمكن أن يُفسر بسهولة على أنه امتياز، فقد حُكم على باب الاتصال بالمحفوظات بأن يبقى مغلقاً، أي أنهم أمروا دون جوزيه بأن يوصده بالمفتاح وتنبهوه إلى أنه لم يعد بإمكانه الدخول من هناك. وهذا هو السبب الذي يفرض على دون جوزيه أن يدخل ويخرج كل يوم من البوابة الكبيرة للمحفوظات العامة، مثلما يفعل أي شخص آخر، حتى ولو هبت على المدينة أشد العواصف عنفاً. ولكن لا بد من القول مع ذلك، إن روحه المنهجية تشعر بالحرية وهي تنصاع لمبدأ المساواة، حتى ولو كان، مثلما هي الحال الآن، ضده، مع أنه، وهذا صحيح أيضاً، كان يُفضل ألا يكون هو نفسه الشخص الوحيد الذي عليه صعود السلّم اليدوي دوماً لاستبدال مغلفات الملفات القديمة، خصوصاً وأنه يعاني من خوف المرتفعات، مثلما قيل من قبل. ولكن دون جوزيه يتمتع بالحياء الممتدح لأولئك الذين لا يمضون وقتهم في الشكوى من اختلالات عصبية ونفسية، حقيقية أو مُتخيلة، والاحتمال الأكبر هو أنه لم يُحدِّث زملاءه قط عن معاناته، ولو أن الأمر غير ذلك، لفعل هؤلاء ما هو اكثر من النظر إليه بريبة بينما هو في أعلى السلّم، خائفاً من فقدان توازنه، والوقوع فوق رؤوسهم، على الرغم من حزام الأمان المضمون. وعندما يرجع دون جوزيه إلى الأرض، وهو ما يزال نصف دائخ ومدارياً بأفضل ما يمكن آخر إمارات الدوار، لا يدور في خلد الموظفين الآخرين، سواء أمثاله الكتبة أو الرؤساء، الخطر الذي جازف بالتعرض له.

والآن حان الوقت للتوضيح بأن إيصاد الباب لم يحمل إلى دون جوزيه سوى الراحة والرضى، بالرغم من اضطراره إلى القيام بذلك

Twitter: @ketab_n

الالتفاف حول البناء للدخول إلى المحفوظات العامة والعودة إلى بيته. لم يكن بالشخص الذي يتلقى زيارات زملائه في استراحة الغداء، وإذا ما سقط يوماً طريح الفراش، فإنه يذهب بنفسه إلى قاعة المحفوظات، ليقدم نفسه إلى نائب المدير المسؤول لكي لا تبقى هناك أية شبهات حول نزاهته كموظف، وكي لا يضطروا إلى أن يرسلوا إليه الرقابة الصحية للكشف عليه في سريره. وقد تقلصت أكثر فأكثر، مع منع استخدام الباب، احتمالات أي تدخل مفاجئ إلى تحفظه البيتي، إذا ما ترك مكشوفاً فوق الطاولة، على سبيل المثال، وبالمصادفة، ذاك الشيء الذي يكلفه جهداً كبيراً منذ سنوات طويلة، وهو، للعلم، مجموعته من الأخبار الصحفية عن شخصيات من البلاد صارت مشهورة، سواء لأسباب طيبة أو خبيثة. أما الأجانب، ومهما تكن أبعاد شهرتهم، فلا يهمونه في شيء، لأن أوراقهم تؤرشف في محفوظات أخرى مختلفة، إذا كانوا يطلقون هذا الاسم أيضاً هناك، وهي مكتوبة بلغات لا يستطيع فك رموزها، وتحكمهم قوانين لا يعرفها، ولا يمكنه بلوغها حتى لو استخدم أكثر السلالم طولاً. وهؤلاء الأشخاص، من أمثال دون جوزيه، موجودون في كل مكان، يشغلون الوقت الذي يعتقدون أنه فائض عن حياتهم في جمع الطوابع، العملات، الميداليات، الفازات، البطاقات البريدية، علب الثقاب، الكتب، الساعات، القمصان الرياضية، التواقيع، الأحجار، الدمى الصلصالية، علب المرطبات الفارغة، تماثيل الملائكة المصغرة، الصباريات، برامج حفلات الأوبرا، الولاعات، رياش الكتابة، رسوم البوم، علب الموسيقى، القوارير، القسائم، لوحات الرسم، الجرار، الغلايين، المسلات الزجاجية، بطات الخزف، الدمى القديمة، أقنعة الكرنفال، ومن المحتمل أنهم يفعلون ذلك لسبب يمكن أن نطلق عليه اسم الفم الميتافيزيقي، ربما لأنهم لا يطيقون تقبل فكرة أن الفوضى

Twitter: @ketab_n

هي المتحكم الوحيد بالكون، ولهذا يعمدون، بقواهم الضعيفة، ودون عون إلهي، إلى محاولة وضع نظام ما في العالم، ويتوصلون إلى ذلك خلال بعض الوقت، طالما هم قادرون على حماية مقتنياتهم، لأنه عندما يأتي اليوم الذي تتبعثر فيه تلك المقتنيات، وهو يوم لا بد أن يأتي على الدوام، سواء بالموت أو باستنفاد جهود الجامع، يعود كل شيء إلى البداية، ويعود كل شيء إلى الفوضى.

حسن، مع اتضاح أن نزوة دون جوزيه هذه هي من أكثر النزوات براءة، فليس مفهوماً سبب حرصه الشديد على ألا يرتاب أحد في انه يجمع قصاصات صحف ومجلات تتضمن أخبار وصور أناس مشهورين، دون أي سبب آخر سوى هذه الشهرة نفسها، ذلك أنه لا فرق لديه إذا ما كانوا سياسيين أو جنرالات، ممثلين أو معماريين، موسيقيين أو لاعبي كرة قدم، دراجين أو كتّاباً، مضاربين أو راقصات، قتلة أو مصرفيين، محتالين أو ملكات جمال. ولم يكن يسلك هذا المسلك السري على الدوام. صحيح أنه لم يرغب قط في التحدث عن تسليته تلك إلى الزملاء القلائل الذين يثق بهم إلى حد ما، ولكن هذا عائد إلى تحفظه الطبيعي، وليس لاحتراس واعٍ من أن يضع نفسه في موضع سخرية. لقد ظهر اهتمامه في الدفاع بحرص شديد عن خصوصيته بعد وقت قصير من هدم البيوت التي كان يسكنها موظفو المحفوظات العامة، أو بدقة أكبر، بعد أن جرى تنبيهه إلى أنه لم يعد بإمكانه استخدام باب الاتصال المباشر. يمكن أن يكون الأمر مجرد توافق عارض، مثلما هناك الكثير من المصادفات، لأنه لا يبدو أن ثمة أي علاقة مباشرة أو قريبة بين تلك الواقعة وحاجته المفاجئة جداً إلى التكتم، ولكن النفس البشرية تتخذ في أحيان كثيرة، كما هو معروف، قرارات تقول إنها لا تعرف أسبابها، ويُفترض أنها تفعل ذلك بعد أن

Twitter: @ketab_n

تكون قد جابت دروب الدماغ بسرعة لا تجد القدرة بعد ذلك على التعرف عليها ناهيك عن العثور عليها. وسواء أكان الأمر هكذا أم لم يكن، أو كان هذا هو التفسير أو أي شيء آخر، فقد أحس دون جوزيه في ساعة متقدمة من إحدى الليالي، وبينما هو يعمل باطمئنان في تحديث أوراق مطران في مجموعته، بأن ذلك المطران سيبدّل له حياته. من المحتمل أن وعياً مفاجئاً أشد قلقاً من حضور المحفوظات العامة في الجانب الآخر من الجدار السميك، وتلك الرفوف الضخمة المترعة بالأحياء والأموات، والمصباح الصغير الشاحب المتدلي من السقف فوق طاولة المدير، المضاء طوال النهار وطوال الليل، والظلمات الكثيفة التي تكتنف الممرات بين الخزائن، والظلمة السحيقة التي تخيم في أقصى القاعة، والوحشة، والصمت، من المحتمل أن هذا كله، في إحدى اللحظات، عبر دروب الذهن المبهمة التي سبق ذكرها، جعله يدرك أن ثمة شيئاً أساسياً ناقصاً في مجموعاته، أجل، إنه الأصل، الجذر، المنشأ، أو بكلمات أخرى، إنه ببساطة شهادة ميلاد الشخصيات المشهورة التي ينهمك في جمع وتوثيق أخبار حياتها العامة. فهو لا يعرف مثلاً، ما هو اسم أبوي المطران، ولا من هما عراباه اللذان رافقاه عند تعميده، ولا مكان ولادته الدقيق، في أي شارع، في أي مبنى، في أي طابق، وأما بالنسبة إلى تاريخ الميلاد، إذا كان وارداً بالمصادفة في إحدى هذه القصاصات، فإن السجل الرسمي للمحفوظات وحده هو الذي يقدم، بكل جلاء، المعلومة الموثوقة، وليس معلومة مفلتة تلتقطها الصحافة، ولا يدري أحد مدى دقتها، إذ يمكن أن يكون الصحفي قد أساء السماع أو النقل، ويمكن أن يكون المصحح قد أخطأ، ولن تكون المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك في تاريخ الأخطاء المطبعية. والحل متوفر في متناول يده. كانت قناعة رئيس المحفوظات العامة المستندة

Twitter: @ketab_n

إلى ثقل سلطته المطلقة، تغذي يقينه بأن أي أمر يخرج من فمه يُنفذ بأقصى صرامة وبأقصى دقة، دون المجازفة بوقوع عواقب نزوية أو مضاعفات اعتباطية من جانب المرؤوس الذي يتلقى الأمر، هي السبب في إبقاء مفتاح باب الاتصال مع دون جوزيه. ما كان ليخطر له مطلقاً أن يستخدمه، وما كان ليُخرجه مطلقاً من الدرج الذي أودعه فيه، لو لم يصل إلى النتيجة بأن جهوده ككاتب سير متطوع لن تكون ذات فائدة تذكر، موضوعياً، دون تضمينها دليلاً موثقاً، أو نسخة مطابقة، لوجود من يتابع سيرتهم في الحياة، ليس واقعياً فقط، وإنما رسمياً كذلك.

وليتصور الآن كل من هو قادر على التصوُّر حالة التوتر العصبي، والاستثارة التي فتح بها دون جوزيه لأول مرة الباب المحظور، والقشعريرة التي جعلته يتوقف عند المدخل، كما لو أنه وضع قدمه على عتبة حجرة يُدفن فيها إله لا تأتيه مهابته، على عكس ما هو شائع، من الانبعاث، وإنما من رفضه له. فالآلهة الموتى وحدهم هم الآلهة دوماً. كانت الكتل الشبحية للخزائن المترعة بالأوراق تبدو وكأنها تشق السقف غير المرئي وتعلو في السماء السوداء، وكان الضوء الشاحب فوق طاولة المدير أشبه بنجمة نائية وخامدة. ومع أنه يعرف جيداً الأرض التي يتحرك فوقها، فقد أدرك دون جوزيه، عندما استعاد ما يكفي من هدوئه، أنه بحاجة إلى مساعدة ضوء كي لا يصطدم بالأثاث، ولكن قبل ذلك، لكي يصل دون إضاعة وقت كثير، إلى الوثائق الخاصة بالمطران، البطاقة أولاً، وبعد ذلك الملف الشخصي. كان لديه مصباح يدوي في الدُرج الذي يحتفظ فيه بالمفتاح. ذهب لإحضاره، وعندئذ، كما لو أن حمله الضوء قد ولّد شجاعة جديدة في روحه، تقدم مصمماً تقريباً بين الطاولات، حتى بلغ الكونتوار، الذي كان يقبع تحته أرشيف بطاقات الأحياء الواسع. وعثر بسرعة على بطاقة المطران وحالفه الحظ بأن

Twitter: @ketab_n

الخزانة التي يُحفظ فيها الملف المطابق للبطاقة لم يكن أعلى من مدى ارتفاع الذراع. لم يحتج للسلّم، ولكنه فكر بتوجس كيف ستكون حياته عندما سيضطر إلى الصعود إلى المناطق العليا من الخزائن، هناك حيث تبدأ السماء السوداء. فتح خزانة المطبوعات، وأخرج نموذجاً من كل نوع من الاستمارات ورجع إلى البيت، تاركاً باب الاتصال مفتوحاً. جلس بعد ذلك، وبيده التي مازالت ترتعش، بدأ باستنساخ المعلومات الشخصية للمطران على نسخة من الاستمارات البيضاء، الاسم الكامل، دون أن يُغفل أي كنية أو أي تفصيل، تاريخ ومكان الولادة، اسما الأبوين، اسما العرابين، واسم الكاهن الذي عمّده، واسم موظف المحفوظات العامة الذي قام بتسجيله، كل الأسماء. وعندما وصل إلى نهاية العمل الوجيز كان مستنفداً، يداه تنضحان عرقاً، وهو يشعر بقشعريرة في ظهره، كان يدرك جيداً أنه اقترف خطيئة روح الفريق الوظيفي، فليس هناك عملياً ما يرهق الإنسان أكثر من اضطراره إلى النضال، ليس ضد روحه بالذات، وإنما ضد تجريد ما. فبتفحصه تلك الأوراق ارتكب مخالفة ضد الانضباط الوظيفي وأخلاقه، وربما ضد الشرعية. ليس لأن المعلومات التي تتضمنها محظورة أو سرية، فهي ليست كذلك، إذ يمكن لأي شخص أن يحضر إلى المحفوظات ليطلب نسخاً أو شهادات عن وثائق المطران دون حاجة إلى توضيح أسباب طلبه أو الأهداف التي يتوخاها، وإنما لأنه كسر سلسلة المراتبية الوظيفية وتصرف دون الأمر أو التفويض اللازم من رؤسائه. وقد خطر له في تلك اللحظة أن يتراجع، أن يُصلح فعلته غير النظامية بتمزيق النسخ الوقحة التي استنسخها وإزالتها من الوجود، وتسليم المفاتيح للمدير، لا أريد تحمل المسؤولية يا سيدي إذا ما حدث وفُقد شيء من المحفوظات، وبعد ذلك، نسيان هذه الدقائق السامية التي عاشها للتو. ومع ذلك، فقد تغلب

Twitter: @ketab_n

عليه الرضا والفخر بأنه عرف كل شيء، وكانت هذه هي الكلمة التي قالها، كل شيء، عن حياة المطران. نظر إلى الخزانة حيث يخبئ علب مجموعات القصاصات وابتسم بتلذذ حميم، مفكراً بالعمل الذي ينتظره الآن، بالتنويعات الليلية، بالجمع المنظم للبطاقات والملفات، وبالنسخ التي سيستنسخها بأفضل خط لديه، وأحس بسعادة غامرة لم يعكر حماسه معها معرفته بأنه سيستخدم السلّم اليدوي. رجع إلى المحفوظات وأعاد وثائق المطران إلى أماكنها. بعد ذلك، وبإحساس بالثقة بنفسه لم يعرف مثله طوال حياته، مرّ بضوء المصباح على ما حوله، كما لو أنه يستحوذ أخيراً على شيء كان له منذ الأزل، ولكنه لم يستطع الاعتراف بملكيته له إلا الآن. توقف لحظة لينظر إلى منضدة الرئيس، المحاطة بهالة الضوء الشاحب الذي يسقط من أعلى، أجل، هذا ما يتوجب عليه عمله، الجلوس على ذلك المقعد، فمنذ اليوم سيكون السيد الحقيقي لأرشيف المحفوظات، فهو وحده القادر، إذا ما أراد، باضطراره إلى قضاء النهار هناك مجبراً، أن يعيش هناك الليل أيضاً بإرادته، الشمس والقمر يدوران دون توقف حول المحفوظات العامة للسجل المدني، العالم ومركز العالم. من أجل إعلان بداية شيء ما، يجري الحديث دوماً عن النهار الأول، بينما الليلة الأولى هي التي يجب أخذها بالحسبان، فهي شرط النهار، فالليل سيكون أبدياً لو لم يكن هناك ليل. كان دون جوزيه جالساً على مقعد المدير، وسيبقى هناك حتى الفجر، منصتاً إلى الهمس الأصم لأوراق الأحياء فوق الصمت الكثيف لأوراق الأموات. عندما انطفأت أنوار المدينة وبدت النوافذ الخمس التي فوق الباب الكبير بلون الرماد القاتم، نهض عن المقعد ودخل إلى البيت موصداً باب الاتصال وراءه. اغتسل، حلق ذقنه، تناول فطوره، خبأ جانباً أوراق المطران، ارتدى أفضل بدلة لديه، وعندما

Twitter: @ketab_n

أزفت الساعة، خرج من الباب الآخر، الباب المؤدي إلى الشارع، وقام بالالتفاف حول المبنى ودخل إلى المحفوظات. لم يلحظ أي من زملائه من هو القادم، وردوا على التحية كعادتهم قائلين، صباح الخير يا دون جوزيه، دون أن يدروا مع من كانوا يتكلمون.

Twitter: @ketab_n

لحسن الحظ أن الناس المشهورين ليسوا كثيرين. وحتى باستخدام المعايير الانتقائية والتمثيلية بالغة التساهل والأريحية مثلما هي معايير دون جوزيه التي رأيناها، لن يكون من السهل، خصوصاً حين يتعلق الأمر ببلد صغير، الوصول إلى مئة كاملة من الشخصيات المشهورة حقاً دون السقوط في التساهل والتراخي المعروف في أنطولوجيات «أفضل مئة سوناتا حب» أو «أقوى مئة مرثية»، التي نجد أنفسنا محقين تماماً في الارتياب بأن القصائد الأخيرة المختارة فيها لم تُورد إلا لاستكمال العدد. ولو نظرنا إلى مجموعة دون جوزيه بمجملها، فإنها تتجاوز المئة بكثير، ولكن العدد مئة، سواء بالنسبة إليه أو إلى مُصنِّف مختارات المراثي أو السوناتات، يشكل حداً، نهاية، *nec plus ultra*،[1] أو أنه يشبه قارورة، إذا تحدثنا بالمصطلحات العامية، سعتها لتر واحد ولا يمكن لها، مهما حاولنا، أن تتسع لأكثر من لتر سوائل واحد. وبمثل هذا الفهم لطبيعة الشهرة النسبية، لن يسيء لها، في اعتقادنا، وصفها بالديناميكية، خصوصاً وأن مجموعة شخصيات دون جوزيه التي تنقسم إلى قسمين، المئة الأوسع شهرة من جهة، ومن جهة أخرى أولئك الذين

---

[1] عبارة لاتينية تشير إلى حدود لم يجر تجاوزها، وهي تُنسب إلى هرقل الذي قالها، كما تقول الأسطورة، عند بلوغه جبلي آبيلا (سبتة) وكالبيه (جبل طارق)، أي أعمدة هرقل، وظن أنهما حد العالم ونهايته، ففصل بينهما لتتحد مياه الأطلسي بمياة البحر المتوسط.

Twitter: @ketab_n

لم يتوصلوا إلى ذلك القدر من الشهرة، نقول إن تلك المجموعة تبقى في حركة دائمة في تلك المنطقة التي أطلقنا عليها اصطلاحياً تسمية الحدود. فالشهرة، آه لحالنا، هي نعمة يمكن لها أن تأتي أو تذهب، لأنها مثل راية يمكن لها أن تدور نحو الشمال مثلما نحو الجنوب، وبالطريقة نفسها التي يمكن بها لشخص أن ينتقل من الإهمال والنسيان إلى الشهرة دون أن يدرك السبب، فإنه ليس من النادر بعد أن يكون قد اختال متبختراً أمام الحظوة الشعبية المتحمسة، أن ينتهي به الأمر إلى طمس اسمه في عالم النسيان. وبتطبيق هذه الحقائق المحزنة على مجموعة دون جوزيه، يُفهم أيضاً أن هناك حالات صعود مجيدة وحالات سقوط دراماتيكية، فقد يخرج أحدهم من جماعة الاحتياطيين ويدخل في جماعة الفاعلين، وقد لا يعود في القارورة متسع لأحدهم ويتوجب الإلقاء به خارجاً. إن مجموعة دون جوزيه تشبه الحياة كثيراً.

وفي عمله الدؤوب، حتى ساعة متأخرة من الفجر أحياناً، مع ما رافق ذلك من نتائج سلبية واضحة على مؤشرات الإنتاج التي عليه إنجازها في وقت الخدمة الطبيعية، أنهى دون جوزيه خلال أسبوعين جمع ونقل المعلومات الأصلية من الملفات الشخصية للمئة شخص الأوسع شهرة في مجموعته. لقد مرّ في لحظات رعب لا توصف في كل مرة كان عليه فيها أن يتسلق السلّم حتى الدرجة الأخيرة لكي يصل إلى الرفوف العليا، حيث، كما لو أن معاناة الدوار ليست كافية، يبدو أن كل عناكب المحفوظات العامة للسجل المدني قد قررت نسج أكثر الشباك، التي يمكن يوماً لوجه بشري أن يلمسها، كثافة وتعفراً واتساعاً. كان القرف، أو الخوف بكلمة أكثر فظاظة، يضطره إلى هز ذراعيه بجنون لكي يُزيح تلك الملامسة المقززة، ولحسن الحظ أنه كان

Twitter: @ketab_n

يربط الحزام بمتانة إلى درجات السلّم، ولكن كانت هناك مناسبات لم يفصله فيها إلا القليل عن السقوط، هو والسلّم معاً، والارتطام بالأرض؛ مثيراً سحابة من الغبار التاريخي وتحت وابل مطر انتصاري من الأوراق. وفي واحدة من لحظات الغم تلك، وصل إلى حد التفكير بفك نفسه وتقبل المجازفة بسقوط دون حماية، حدث ذلك عندما تصور المار الذي سيلطخ اسمه وذكراه إلى الأبد إذا ما دخل الرئيس في الصباح ووجده، هو دون جوزيه، ميتاً بين خزانتين، رأسه مشجوج ودماغه ظاهر، وهو مقيد بصورة مضحكة إلى السلّم بالحزام. وتوصل بعد ذلك إلى أن فك نفسه سينقذه من السخرية فقط، ولكن ليس من الموت، وهو أمر لا يستحق العناء. وفي نضاله ضد الطبيعة الرهابية التي أتى بها إلى الدنيا، وعند نهاية المهمة تقريباً، بالرغم من أنه كان قد عمل في الظلام تقريباً، تمكن من إبداع وإتقان طريقة لتحديد موقع الملفات والتعامل معها أتاحت له أن يُخرج في ثوان قليلة الوثائق التي يحتاج إليها. المرة الأولى التي واتته فيها الشجاعة على عدم استخدام الحزام، كان كما لو أن انتصاراً خالداً قد سُجل في سيرته الذاتيه المتواضعة ككاتب. لقد شعر بالإنهاك، بالشحوب، مع تشنجات في بواب معدته، ولكنه كان سعيداً سعادة لا يذكر أنه أحس بها في حياته، عندما احتل المشهور المصنف في الموقع المئة مكانه في العلبة المخصصة له، بعد تحديده وفق كل أنظمة المحفوظات العامة. عندئذ فكر دون جوزيه بأنه سيكون من المستحسن، بعد هذا الجهد العظيم، نيل قسط من الراحة، وحيث أن نهاية الأسبوع توشك أن تبدأ، فقد قرر أن يرجئ المرحلة التالية من العمل إلى يوم الاثنين، هذا يعني إعطاء وضع مدني نظامي للبضعة وأربعين مشهوراً احتياطياً الذين ما زالوا في الانتظار. لم يكن يحلم بأنه يمكن حدوث شيء أكثر خطورة من

Twitter: @ketab_n

مجرد وقوعه عن السلم. ويمكن لعاقبة السقوط أن تضع حداً لحياته، وهو ما ستكون له دون ريب أهمية من الوجهة الإحصائية والشخصية، ولكننا نتساءل، ما الذي يعنيه هذا، إذا كانت الحياة بيولوجياً هي نفسها، أي أن الكائن نفسه، الخلايا نفسها، الملامح نفسها، القامة نفسها، الطريقة الظاهرية نفسها في النظر والرؤية والتجدد، فهذه الحياة تحولت، دون أن يهتم الإحصاء بالتبدل، لتكون حياة أخرى، وتحوّل هذا الشخص ليكون شخصاً آخر.

لقد تكلف مشقة كبيرة في تحمل البطء غير الطبيعي الذي تجرجر به يوما العطلة، وبدا له ذلك السبت وذلك الأحد أبديين. شغل الوقت في اقتطاع قصاصات من الصحف والمجلات، وفتح في بعض الأحيان باب الاتصال ليتأمل قاعة المحفوظات العامة بكل صمتها المهيب. كان يشعر بأنه يحب عمله أكثر من أي وقت مضى، فبفضله يمكنه التوغل في حميمية الكثير من الشخصيات المشهورة، وأن يعرف على سبيل المثال، أشياء يبذل بعضهم كل ما هو ممكن لإخفائها، مثل كونهم أبناء مجهولي الآباء أو الأمهات، أو مجهولي كليهما، مثلما هو حال أحدهم، أو قولهم إنهم ينحدرون من حاضرة إحدى المقاطعات أو النواحي في حين أنهم ولدوا في قرية منسية، أو في مفترق طرق لاسمه وقع رهيب، إذا لم يكن في مكان يعبق ببساطة برائحة روث وزريبة أو ربما في مكان بلا اسم. بهذه الأفكار، وأفكار أخرى ذات نبرة ارتيابية مشابهة، وصل دون جوزيه إلى يوم الاثنين وقد استعاد قواه جيداً بعد الجهود المضنية التي أقدم عليها، بالرغم من التوتر العصبي المتراكم من الصراع المتواصل بين الرغبة والخوف، مستعداً للتصدي لمغامرات ليلية أخرى، وعمليات تسلق جريئة أخرى.

ولكن النهار انقلب مع ذلك رأساً على عقب منذ الصباح. فنائب

Twitter: @ketab_n

المدير المسؤول عن الشؤون الإدارية أبلغ المدير بأنه بدأ يلاحظ، في الأسبوعين الأخيرين، استهلاكاً في استمارات البطاقات ومغلفات الملفات لا يتناسب مع عدد المواليد المسجلين في المحفوظات، بالرغم من الأخذ بعين الاعتبار متوسط الأخطاء المسموح به إدارياً في عملية التسجيل. أراد المدير أن يعرف ما هي الإجراءات التي اتخذها نائب المدير لتقصي أسباب الخلل في الاستهلاك، وما هي الإجراءات الأخرى التي يفكر في اتخاذها كي لا يتكرر حدوث ذلك. فأوضح نائب المدير، برصانة، أنه لم يتخذ أي إجراء بعد، وأنه لا يسمح لنفسه بالتفكير في أي فكرة، ناهيك عن القيام بأي مبادرة، قبل أن يطرح القضية على المراجع العليا، وهو ما كان يفعله في تلك اللحظة. فرد المدير بجفاء، كعادته، ها قد طرحتَ الأمر، فتصرف الآن، ولا أريد سماع المزيد حول هذه القضية. ذهب نائب المدير إلى طاولته ليفكر، وبعد ساعة من ذلك حمل إلى المدير مسودة تعميم داخلي، يتم بمقتضاه إقفال خزانة المطبوعات والاستمارات بالمفتاح، ويبقى ذلك المفتاح بحوزته، باعتباره الإداري المسؤول. كتب المدير: للتنفيذ، مع الموافقة، وأوصد نائب المدير الخزانة، وفعل ذلك بمبالغة ظاهرة لكي ينتبه الجميع إلى هذا التحوّل، فتنهد دون جوزيه الصعداء، بعد ذعر الوهلة الأولى، لأنه كان قد وجد الوقت الكافي لإنجاز الجزء الأكثر أهمية من مجموعته. وحاول أن يتذكر كم بطاقة تسجيل احتياطية ما زالت لديه في البيت، ربما حوالي اثنتي عشرة، وربما حوالي خمس عشرة. وهذا ليس بالأمر الخطير أيضاً. فعندما تنتهي، سينسخ على أوراق عادية الثلاثين بطاقة التي ما زالت تنقصه، والاختلاف لن يسيء إلا إلى الناحية الجمالية. وفكر مواسياً نفسه: ليس بالإمكان نيل كل شيء على الدوام.

Twitter: @ketab_n

لم يكن هناك أسباب للاشتباه به بأنه المتسبب المفترض في اختفاء المطبوعات أكثر من الاشتباه بأي واحد آخر من زملائه في المرتبة، ذلك أنهم وحدهم، الكتبة، من يملؤون البطاقات ومغلفات الملفات، ولكن أعصاب دون جوزيه الواهنة جعلته يخشى طوال اليوم من أن تُلاحظ الاختلاجات الخارجية لضميره المذنب وتُضبط. وبالرغم من ذلك، خرج على ما يرام من الاستجواب الذي أُخضع له. فبتعابير وجهه ونبرة صوته التي حاول تطويعها مع الوضع، أعلن أنه يتوخى أشد أشكال الحرص صرامة في استخدام المطبوعات، أولاً لأن هذه الطريقة في السلوك هي جزء من طبيعته، ولأنه يعي قبل ذلك، وفي كل الظروف، أن الورق المستهلك في المحفوظات العامة يأتي من الضرائب العامة، وكم من المرات والمرات يتحمل دافعو الضرائب التضحيات لدفعها، وأنه هو، باعتباره موظفاً مسؤولاً، يتوجب عليه أن يحترم الممتلكات العامة بصرامة ويستفيد منها إلى أقصى الحدود. وقد لقيت أقواله، سواء من حيث الشكل أو المضمون، ارتياحاً من الرؤساء، إلى حد أن زملاءه الآخرين الذين تم استدعاؤهم تباعاً للاستجواب، كرروها مع بعض التعديلات الطفيفة في الأسلوب، ولكن القناعة الضمنية والمعممة، مع مرور الزمن، والتي ترسخت في ذهن العاملين من خلال شخصية الرئيس المتميزة، بأنه لا يمكن لشيء في المحفوظات، مهما حدث، أن يسير ضد مصالح الخدمة، هذه القناعة هي التي حالت دون أن يتوقف أحد عند مسألة أن دون جوزيه، منذ يومه الأول في العمل، قبل سنوات طويلة خلت، لم يتلفظ قط بمثل هذا القدر من الكلمات المتتالية. لو كان نائب المدير متدرباً على مناهج علم النفس التطبيقي في الاستجواب، لقوض في أقل من زفرة خطاب دون جوزيه المخادع، مثلما تُقوَّض قلعة من ورق اللعب زلت قدم ملك

Twitter: @ketab_n

الديناري فيها، أو مثل شخص يعاني الدوار ويهزون به السلّم. ولارتيابه بأن نائب المدير المكلف بالاستجواب قد يعيد التفكير في الأمر فيما بعد، ويساوره الشك بأن ثمة قطاً مخبأ في القضية، قرر دون جوزيه، تجنباً لما هو أسوأ، أن يبقى في بيته تلك الليلة. لن يتحرك من ركنه، لن يدخل قاعة المخطوطات حتى ولو وعدوه بالثروة التي لم يصل إليها أحد من قبل، اكتشاف الوثيقة التي طالما جرى البحث عنها منذ أن صارت الدنيا دنيا، أي شهادة الميلاد الرسمية للرب دون زيادة ولا نقصان. يقال إن الحكيم هو حكيم بقدر ما يتحلى به من حذر، ولا بد من الاعتراف، على الرغم من المخالفات التي راح يرتكبها مؤخراً، أن لدى دون جوزيه ضرباً من الحكمة، وإن تكن مبهمة وغير محددة بصورة محزنة، إنه نوع من الحكمة غير الإرادية، من تلك التي يبدو أنها تدخل الجسد من المجاري التنفسية، أو لأن الشمس تضرب على الرأس، ولهذا لا تعتبر هذه الحكمة جديرة بتصفيق خاص. فإذا كان الحذر ينصحه الآن بالانسحاب، فإنه سيمتثل، بحكمة، إلى صوت الحذر. فتعليق تقصياته لأسبوع أو أسبوعين سيساعد في محو أي ملمح خوف أو جزع قد يكون متبقياً في وجهه.

بعد تناول عشائه البسيط، مثلما تفرض عليه عادته والضرورة، وجد دون جوزيه نفسه أمام ليلة سهر طويلة دون أن يكون لديه ما يفعله. تمكن من إلهاء نفسه خلال نصف ساعة في تصفح بعض أكثر الحيوات شهرة في مجموعته، أضاف إليها بعض القصاصات الحديثة، ولكن تفكيره لم يكن هناك، بل كان يشرد هائماً في عتمة قاعة المحفوظات، مثل كلب أسود عثر على طرف أثر السرّ الأخير. بدأ يفكر في أنه ليس هناك من خطر في مجرد استخدام البطاقات الاحتياطية لديه، وإن لم تكن أكثر من ثلاث أو أربع بطاقات، لكي يشغل شطراً

Twitter: @ketab_n

يسيرا من الليل وينام بعد ذلك مطمئناً. كان الحذر يحاول كبحه، بشده من كميه، ولكن الحذر، مثلما يعرف الجميع، أو يجب عليهم أن يعرفوا، يكون جيداً عندما يتعلق بالحفاظ على ما لم يعد يثير الاهتمام، فأي ضرر يمكن أن يلحقه به فتح الباب، والبحث بسرعة عن ثلاث أو أربع بطاقات، حسن، ولتكن خمساً، فهو عدد معقود، وسيترك مغلفات الملفات إلى فرصة أخرى، وهكذا سيتجنب استخدام السلم. وأدت هذه الفكرة إلى حسمه الأمر. توغل في كهف المحفوظات الرحيب وهو يضيء الطريق بالمصباح اليدوي في يده المرتعشة، واقترب من خزانة البطاقات. كان أكثر عصبية مما اعتقده قبلاً بينما هو يدير رأسه إلى هذه الجهة وتلك بارتياب، كما لو انه مُراقَب من مليارات العيون المختبئة في ظلمة الممرات ما بين الخزائن. لم يكن قد استعاد تماسكه من صدمة الصباح. فتح وأغلق أدراجاً بالسرعة التي أتاحتها له أصابعه المتوترة، باحثاً في مختلف فهارس الحروف الأبجدية عن البطاقات التي يحتاج إليها، مخطئاً مرة بعد أخرى، إلى أن تمكن أخيراً من جمع بطاقات الخمسة مشهورين الأوائل من الفئة الثانية. رجع إلى البيت راكضاً وقد انتابه الفزع حقاً، وقلبه يطفر بقوة، مثل طفل يذهب إلى خزانة الأطعمة ليسرق قطعة حلوى ويرجع من هناك تطارده كل مسوخ الظلمات. صفق الباب في وجههم وأدار المفتاح دورتين في القفل، ولم يكن يريد التفكير بأنه عليه العودة هذه الليلة مرة أخرى إلى المحفوظات لكي يعيد البطاقات اللعينة إلى أماكنها. ولكي يهدئ من روعه، شرب جرعة من زجاجة الخمر التي يحتفظ بها للمناسبات، السعيدة منها والتعيسة. وبسبب التسرع والافتقار إلى العادة، ذلك أن المناسبات السعيدة والتعيسة نفسها كانت نادرة في حياته، غص بالشراب، فسعل، ثم سعل من جديد، وهو موشك على الاختناق، إنه

Twitter: @ketab_n

كاتب بائس يحمل في يده خمس بطاقات، هو كان يعتقد أنها خمس، ولشدة السعال أفلتها من يده، ولم تكن خمساً، بل ست بطاقات، مبعثرة على الأرض، مثلما يمكن لأي شخص أن يراها ويعدها، واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، ست، لم يحدث من قبل أن كان لمفعول جرعة واحدة من الخمر مثل هذا التأثير.

عندما تمكن أخيراً من استعادة أنفاسه، انحنى ليلتقط البطاقات، واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، لا شك في ذلك، ست، وبينما هو يلتقطها على التوالي كان يقرأ الأسماء المدونة عليها، الجميع مشهورون، باستثناء واحد منها. مع التسرع واضطراب الأعصاب، كانت البطاقة الدخيلة قد التصقت بالتي تسبقها، وكان الفرق في السماكة ضئيلاً إلى حد تكاد معه أن تكون ملاحظة ذلك غير ممكنة. من الواضح أنه مهما كانت المبالغة في العناية بالخط وتنميقه، فإن استنساخ خمس سجلات ميلاد وحياة موجزة هو عمل يمكن إنجازه في وقت قصير. بعد نصف ساعة كان بإمكان دون جوزيه إنهاء السهرة وفتح الباب مرة أخرى. جمع البطاقات الست بفتور ونهض عن الكرسي. لم يكن يشعر بأي رغبة في الدخول إلى المحفوظات، ولكن ليس هناك من مهرب آخر، يجب أن تكون خزانة البطاقات كاملة وبالترتيب المعهود في الصباح التالي. لأنهم إذا ما اضطروا إلى مراجعة إحدى هذه البطاقات ولم تكن في مكانها، فإن الوضع سيتفاقم. ومن ارتياب إلى ارتياب، ومن تحقيق إلى تحقيق، سينتهي الأمر بأحدهم إلى أن يلاحظ أن دون جوزيه يعيش ملاصقاً لجدار المحفوظات العامة، التي كما نعرف جيداً، لا تتمتع بأدنى قدر من الحراسة الليلية، وسيخطر لأحدهم أن يسأل أين صار ذلك المفتاح الذي يتيح الدخول، ولم يُسترد. ما يجب أن يكون، يجب أن يكون، وبقوة كبيرة، فكر في ذلك دون جوزيه دون أصالة،

Twitter: @ketab_n

وتوجه نحو الباب. ولكنه توقف فجأة في منتصف الطريق، إنه لأمر مثير للفضول، فأنا لم أدقق إذا ما كانت البطاقة التي جاءت ملتصقة هي لرجل أم لامرأة. رجع إلى الوراء، جلس مجدداً، سيتأخر قليلاً على هذا النحو منصاعاً لقوة ما يجب أن يكون. كانت البطاقة لامرأة في السادسة والثلاثين، مولودة في تلك المدينة نفسها، وفي الوقوعات هناك تثبيت لواقعتين، واحدة للزواج، والأخرى للطلاق. من المؤكد أن هناك في صندوق البطاقات مئات، إن لم يكن آلاف، مثل هذه البطاقة، ولهذا لا يُفهم لماذا راح دون جوزيه ينظر إليها بملامح شديدة الغرابة، ملامح بدت للوهلة الأولى متيقظة، ولكنها شاردة وقلقة، ربما هذه هي الطريقة التي ينظر بها من هو آخذ، دون رغبة أو تنازل، بالإفلات شيئاً فشيئاً من شيء، ولا يدري بعد أين سيضع يده ليثبت نفسه من جديد. هناك دوماً من يشير إلى تعارضات مزعومة وغير مقبولة بين القلق والشرود والتيقظ، وهؤلاء هم أشخاص يقتصرون على العيش كيفما اتفق، أشخاص لم يواجهوا القدر قط وجهاً لوجه. دون جوزيه ينظر ويعيد النظر إلى ما هو مكتوب في البطاقة، لا حاجة إلى القول إن الخط ليس خطه، فهو ذو جرة انقضت «موضتها»، فقبل ست وثلاثين سنة دوّن كاتب آخر الكلمات التي يمكن قراءتها هنا، اسم الطفلة، اسم الأبوين، اسم العرابين، تاريخ وساعة الميلاد، الشارع، رقم البناء، الطابق الذي رأت فيه أول نور وأحست فيه بأول ألم، بداية مثل بدايات جميع الناس، لأن الفروقات الكبيرة والصغيرة تأتي فيما بعد، بعض من يولدون يدخلون الموسوعات، والتاريخ، وسير التراجم، والكتالوجات، والمراجع، ومجموعات القصاصات، والآخرون، وبمقارنة غير موفقة، هم مثل سحابة مرت دون أن تُخلف أثراً لمرورها، وإذا ما أمطرت، فإنها لم تتوصل إلى بلّ الأرض. وفكر دون جوزيه، مثلي أنا. كانت خزانته مملوءة

Twitter: @ketab_n

برجال ونساء ممن يجري الحديث عنهم كل يوم تقريباً في الصحف، وعلى الطاولة شهادة ميلاد لشخصية مجهولة، وكان ذلك كما لو أنه قد وضع في كفتي ميزان، مئة شخصية في هذا الجانب، وشخصية واحدة في الجانب الآخر، ثم اكتشف بعد ذلك، متفاجئاً، أن أولئك جميعهم معاً لا يزنون أكثر من هذه، وأن المئة مساوون للواحد، وأن واحداً يساوي ما يساويه مئة. لو أن أحداً دخل إلى البيت في تلك اللحظة وسأله فجأة، اتظن[1] فعلاً أن الواحد الذي هو أنت أيضاً، يساوي ما يساويه مئة، أي أن قيمة المئة الذين في خزانتك، كي لا نذهب بعيداً، هي مثل قيمتك أنت، فسوف يرد دون شك، سيدي العزيز، أنا مجرد كاتب بسيط، لستُ أكثر من كاتب بسيط في الخمسين لم يُرفّع إلى مرتبة مأمور، ولو كنت أظن أني أساوي ما يساويه واحد فقط من أولئك الذين أحتفظ بهم، أو أي واحد من هؤلاء الخمسة الأقل شهرة، لما بدأتُ بجمع هذه المجموعة. لماذا لا تتوقف إذن عن النظر إلى هذه المرأة المجهولة، كما لو أنها تكتسب فجأة أهمية أكبر من كل الآخرين، لهذا السبب تحديداً يا سيدي العزيز، لأنها مجهولة، دعك من هذا، فخزانة البطاقات في المحفوظات مملوءة بالمجهولين، ولكنهم في خزانة البطاقات، وليسوا هنا، ما الذي تعنيه، لا أعرف بالضبط، في هذه الحالة دعك من الأفكار الميتافيزيقية التي لم يولد دماغك من أجلها على ما أعتقد، وأعد البطاقة إلى مكانها ونم بسلام، هذا ما أسعى إلى فعله، مثلما أفعل كل ليلة، وكانت نبرة الجواب تميل إلى المصالحة، ولكن

---

[1] يعمد المؤلف هنا، وعلى امتداد الرواية، مثلما هو واضح، إلى إيراد الحوار متصلاً، لا تفصل بينه إلا فواصل، ولكنه يبدأ كلام كل شخصية بحرف كبير، ولأن ذلك غير ممكن بالعربية، فقد لجأنا إلى إبراز الكلمة الأولى في المقاطع الحوارية ليتسنى للقارئ التمييز بين شخصيات المتكلمين.

Twitter: @ketab_n

كان ما يزال لدى دون جوزيه شيء يضيفه: أما بالنسبة للأفكار الميتافيزيقية يا سيدي العزيز، فاسمح لي أن أقول لك إنه يمكن لأي رأس أن يُنتجها، حتى وإن لم يجد الكلمات المناسبة في أحيان كثيرة.

وعلى عكس ما كان يتمناه، لم يستطع دون جوزيه النوم بالطمأنينة النسبية المعهودة. كان يقتفي في المتاهة المضطربة لدماغه الذي بلا ميتافيزيقيا أثر الأسباب التي دفعته إلى استنساخ بطاقة المرأة المجهولة، ولم يستطع العثور على سبب واحد يمكن له أن يحدد، بصورة واعية، ذلك العمل غير المتوقَّع. فهو يكاد يكون عاجزاً عن أن يتذكر حركة يده اليسرى وهي تتناول البطاقة البيضاء، ثم بعد ذلك يده اليمنى وهي تكتب، وعينيه وهما تتنقلان من بطاقة كرتونية إلى أخرى، كما لو أنهما في الواقع هما اللتان تنقلان الكلمات من هناك إلى هنا. كما أنه يتذكر كيف دخل، متفاجئاً بنفسه من نفسه، إلى المحفوظات العامة حاملاً المصباح اليدوي بقوة، دون عصبية، دون جزع، وكيف أعاد وضع البطاقات الست في أماكنها، وكيف كانت البطاقة الأخيرة هي بطاقة المرأة المجهولة، وكيف بقيت مضاءة حتى اللحظة الأخيرة بضوء المصباح، ثم انزلقت بعد ذلك إلى أسفل، غارقة، ومختفية بين كرتون حرف سابق وكرتون حرف لاحق، اسماً على بطاقة، ولا شيء أكثر. في منتصف الليل، أشعل الضوء وقد استنفده عدم النوم. ثم نهض بعد ذلك، وارتدى المعطف فوق ملابسه الداخلية وجلس إلى المنضدة. نام بعد وقت طويل جداً، ورأسه مستند إلى ساعده الأيمن وكفه اليسرى مستقرة فوق نسخة من بطاقة.

Twitter: @ketab_n

ظهر قرار دون جوزيه بعد يومين من ذلك. وعموماً لا يقال إن قراراً قد ظهر لنا، فالأشخاص شديدو الغيرة على هويتهم، مهما كانت غامضة، وعلى سلطتهم، مهما كانت ضئيلة، يفضلون الإيحاء بأنهم يفكرون مسبقاً قبل أن يُقدموا على الخطوة الأخيرة، وأنهم أمعنوا النظر في المنافع والمضار، وفكروا ملياً في الاحتمالات والخيارات، وأنهم، بعد بذل جهد ذهني مكثف، اتخذوا أخيراً القرار. لا بد من القول إن الأمور لا تحدث على هذا النحو. فليس هناك من تخطر لذهنه فكرة الأكل ما لم يشعر بشهية كافية، والشهية لا ترتبط بإرادة كل شخص، وإنما هي تتشكل من تلقاء ذاتها، تنتج عن احتياجات موضوعية للجسد، إنها مسألة فيزيو-كيميائية يكمن حلها، بصورة مرضية، بهذا القدر أو ذاك، في محتويات الطبق. بل إن عملاً شديد البساطة مثل النزول إلى الشارع من أجل شراء الصحيفة لا يفترض فقط وجود رغبة كافية لتلقي معلومات، ونوضح هنا، أن كون هذا العمل رغبة، فهو بالضرورة شهية، ونتيجة فعاليات فيزيو-كيميائية خاصة بالجسد، وإن تكن من طبيعة مختلفة، كما يفترض هذا العمل الروتيني كذلك، على سبيل المثال، اليقين، أو القناعة، أو الأمل، غير الواعي، بألا تتأخر سيارة التوزيع أو ألا يكون كشك بيع الصحف مغلقاً بسبب مرض مالكه أو تغيبه الإرادي. أضف إلى ذلك، إذا ما ألححنا في التأكيد على أننا نحن من نتخذ قراراتنا، علينا أن نبدأ بتوضيح، وتبصر، وتمييز من

Twitter: @ketab_n

هو، في ذواتنا، ذاك الذي اتخذ القرار ومن هو الذي سوف يُنفذه بعد ذلك، وهما عمليتان مستحيلتان حيثما توجدان. فنحن في الواقع لا نتخذ قرارات، وإنما القرارات هي التي تتخذنا. والدليل نجده في أننا نمضي حياتنا في التنفيذ المتوالي لأكثر الأفعال تنوعاً، دون أن يسبق كل واحد منها فترة تفكير، تقويم، حساب، نعلن في نهايتها، وفي نهايتها فقط، أننا في شروط نستطع معها أن نقرر إذا ما كنا سنذهب للغداء، أو لشراء الصحيفة، أو للبحث عن المرأة المجهولة.

لهذه الأسباب، لن يعرف دون جوزيه، حتى لو كان خاضعاً لأكثر الاستجوابات تركيزاً، أن يقول كيف ولماذا اتخذ القرار، ولنستمع إلى التفسير الذي سيقدمه، ما أعرفه فقط هو أنها كانت ليلة الأربعاء، وكنتُ في البيت، ولم أشأ تناول العشاء لشدة التعب الذي كنت أشعر به، فقد كنت أحس بأن رأسي ما زال يدور لأنني أمضيت النهار كله فوق ذلك السلّم، يتوجب على الرئيس أن يفهم أني لم أعد في سن تتيح لي القيام بتلك البهلوانيات، وأنني لست فتياً بأي حال، فضلاً عن المعاناة. اي معاناة. اعاني من الدوخة، الدوار، جاذبية الهاوية، أو أي شيء يسمونه، لم تشكُ من ذلك قط، لا أحب الشكوى، هذا جميل منك، تابع، كنتُ أفكر في أن آوي إلى الفراش، إنني أكذب، فقد كنتُ قد خلعت حذائي، عندما اتخذت القرار فجأة، إذا كنتَ قد اتخذت القرار، فأنت تعرفُ لماذا اتخذته، أظن لأنني لم أتخذه أنا، وإنما كان هو الذي اتخذني، الأشخاص الطبيعيون يتخذون القرارات، ولا يُتَخَذون هم من قِبَل القرارات، هكذا كنتُ أفكر أنا أيضاً حتى ليلة الأربعاء، وما الذي حدث في ليلة الأربعاء. حدث هذا الذي أرويه لك، كانت بطاقة المرأة المجهولة على الكوميدينو، ورحت أنظر إليها كما لو أنني أراها للمرة الأولى، ولكنك كنتَ قد رأيتها من قبل، منذ يوم الاثنين لم أكن

Twitter: @ketab_n

أفعل في البيت شيئاً آخر غير ذلك، كنتَ تبيت القرار، أو أنه كان يبيتني، هيا، دعنا من هذا الكلام، ولا تعد إليه مرة أخرى، انتعلتُ الحذاء من جديد، ارتديت السترة والمعطف وخرجت، حتى أنني لم أتذكر ربطة العنق، وكم كانت الساعة، حوالي العاشرة والنصف، وأين ذهبت بعد ذلك، إلى الشارع الذي ولدت فيه المرأة المجهولة، وبأي نية ذهبت، أردتُ رؤية المكان، المبنى، البيت، أنت تعترف أخيراً بأنه كان هناك قرار، وأنكَ أنت، مثلما يجب أن يكون الأمر، من اتخذ ذلك القرار، لا يا سيدي، كل ما هنالك أنني وعيته، لا شك في أنك تتقن المحاججة، مع أنك لست سوى كاتب، ليس هناك من يهتم بالكتبة عموماً، ولا من ينصفهم، تابع أقوالك، كان البناء هناك، وكان هناك ضوء في النوافذ، أنت تعني بيت المرأة، أجل، وماذا فعلتَ بعد ذلك، مكثتُ هناك بضع دقائق، وأنتَ تنظر، أجل يا سيدي، وأنا أنظر، تنظر فقط، أجل يا سيدي، أنظر فقط، وبعد ذلك، بعد ذلك، لا شيء، ألم تطرق الباب، ألم تصعد، ألم توجه أسئلة، يا لهذه الفكرة، لم يخطر مثل هذا الخاطر في ذهني بأي حال، في مثل تلك الساعة من الليل، وكم كانت الساعة، لا بد أنها كانت عندئذ قد قاربت الحادية عشرة والنصف، أذهبتَ مشياً على قدميك، أجل يا سيدي، وكيف رجعت، مشياً على الأقدام أيضاً، أي أنه لا شهود لديك، أي شهود، الشخص الذي التقاك عند الباب، إذا كنتَ قد صعدت، أو سائق ترام أو حافلة، على سبيل المثال، وعلى أي شيء سيكونون شهوداً، على أنك كنت فعلاً في شارع المرأة المجهولة، وما الفائدة من هؤلاء الشهود، لكي يثبتوا أن كل هذا لم يكن حلماً، لقد قلتُ الحقيقة، الحقيقة وحدها، ولا شيء سوى الحقيقة، إنني تحت القسم، وكلمتي يجب أن تكون كافية، يمكن لها أن تكفي، ربما، لو لم يكن في قصتك تفصيل مريب جداً، أو لنقل

Twitter: @ketab_n

غير لائق. أي تفصيل تعني، ربطة العنق، وما علاقة ربطة العنق بهذه القضية، الموظف في المحفوظات العامة للسجل المدني لا يذهب إلى أي مكان دون أن يضع ربطة العنق، هذا مستحيل، لأن ذلك سيكون خطأً ضد الطبيعة نفسها، لقد قلتُ لك إنني لم أكن في وعيي، وإنني كنتُ مُتَخَذاً من قِبَل القرار، وهذا دليل آخر على أنك كنت تحلم، لا أرى سبباً لذلك، امامك أحد أمرين، إما أن تعترف بأنك قد اتخذت القرار مثلما يفعل الجميع، وسأكون عندئذ مستعداً لأن أصدق بأنك ذهبت دون ربطة عنق إلى شارع المرأة المجهولة، وهو انحراف معيب في السلوك المهني لا أريد التدقيق فيه حالياً، وإما أن تصر على القول بأن القرار اتخذك، وهذا أمر، إضافة إلى مسألة ربطة العنق غير القابلة للتأويل، لا يمكن القبول به إلا في حالة الحلم، اكرر أنني لم أتخذ القرار، نظرتُ إلى البطاقة، انتعلتُ الحذاء وخرجت، كنتَ تحلم إذن، لم أحلم، استلقيتَ، غلبكَ النعاس، حلمتَ بأنك ذاهب إلى شارع المرأة المجهولة، يمكنني أن أصف الشارع، عليك أن تُثبت لي أنك لم تمر من هناك قط من قبل، يمكنني أن أقول لك كيف هي البناية، هيا، دعك من هذا، فجميع البنايات تبدو رمادية في الليل، الرمادية في الليل هي القطط، والبنايات أيضاً، انت لا تصدقني إذن، لا، لماذا، إذا تكرمت وسمحت لي بالسؤال، لأن ما تؤكد أنك فعلته لا يدخل في واقعي، وما لا يدخل في واقعي لا وجود له، الجسم الذي يحلم هو واقع، ولا بد بالتالي، إلا إذا كان هناك رأي أكثر دقة، من أن يكون الحلم الذي يحلم به الجسم واقعا أيضاً، الحلم له واقعيته كحلم وحسب، اتعني بأن واقعيتي الوحيدة هي هذه، اجل، هذه هي واقعيتك المعاشة الوحيدة، هل أستطيع العودة إلى العمل، يمكنك ذلك، ولكن عليك أن تستعد لأنه ما زال علينا أن نناقش مسألة ربطة العنق.

Twitter: @ketab_n

بعد أن تخلص دون جوزيه بنجاح من التحقيق الإداري حول الاستمارات المفقودة، ولكي لا يفقد المكاسب الديالكتيكية المتحققة، ابتدع في ذهنه توهم هذا الحوار الجديد، الذي خرج منه منتصراً بسهولة، على الرغم من النبرة الساخرة والمتوعدة للمجادل، في قراءة جديدة، أكثر تيقظاً، يمكنه إثباتها. وقد حاجج بقناعة كبيرة إلى حد كان قادراً على أن يكذب حتى على نفسه ثم تأكيد الكذبة بعد ذلك دون أي تأنيب ضمير، كما لو أنه لم يكن هو أول من يعرف أنه دخل فعلاً إلى المبنى وصعد الدرج، وأنه ألصق أذنه على باب الشقة التي، حسب البطاقة، ولدت فيها المرأة المجهولة. صحيح أنه لم يجرؤ على قرع الجرس، وقد قال الحقيقة في هذه النقطة، ولكنه بقي بضع دقائق على بسطة الدرج المعتمة، ثابتاً، متوتراً، محاولاً تمييز الأصوات التي تأتي من الداخل، بفضول شديد كاد أن ينسى معه الخوف من أن يُفَاجَأ ويُحسب لصاً من لصوص البيوت. سمع البكاء الغاضب لطفل ذي أقمطة، لا بد أنه الابن، ثم سمع همساً عذباً لتهديلة مهد أنثوية، إنها هي، وفجأة صوت رجل قال من الجانب الآخر، هذا الطفل لن يسكت أبداً، طفر قلب دون جوزيه من الخوف، إذا ما انفتح الباب، وهو أمر يمكن أن يحدث، وربما خرج الرجل، سيسأله، من أنت، ما الذي تبحث عنه هنا، ماذا سأفعل الآن، تساءل دون جوزيه، يا لبؤسه، لم يفعل شيئاً، بقي مشلولاً هناك، أعزل، وحالفه الحظ بأن أبا الطفل لا يمارس العادة القديمة بالذهاب إلى المقهى بعد العشاء لتبادل الأحاديث مع أصدقائه. حينئذ، وعندما لم يعد يُسمع سوى بكاء الطفل، بدأ دون جوزيه بنزول الدرج ببطء، دون أن يشعل الضوء، ملامساً الجدار بيده اليسرى كيلا يفقد توازنه، كانت انحناءات درابزين الدرج شديدة البروز، وفي مستوى معين غمرته موجة رعب حين فكر بما سيحدث إذا ما جاء شخص

Twitter: @ketab_n

آخر، صامتاً، وغير مرئي لعينيه، صاعداً في تلك اللحظة الدرج وهو يتلمس الجدار بيده اليمنى، لن يمضي وقت طويل قبل أن يصطدما، رأس الآخر سيصطدم بصدره، صحيح أن الحال سيكون أسوأ بكثير مما لو كان في أعلى السلّم اليدوي وجاءت عنكبوت لتلعق وجهه، ويمكن أن يكون قد لحق به كذلك إلى هنا أحدٌ من المحفوظات العامة بنية مفاجأته متلبساً بالجرم ويمكنه بذلك عقد المحكمة الانضباطية، وربما تكون هذه المحكمة قد بدأت مسارها، وأن ما ينقصها هو الدليل الملموس. عندما وصل دون جوزيه أخيراً إلى الشارع كانت ساقاه ترتعدان، والعرق يسيل على جبهته. لقد تحوّلتُ إلى لفافة من الأعصاب، قال مؤنباً نفسه. بعد ذلك، وبصورة هذيانية، كما لو أن دماغه قد اختل فجأة وتحرك في كل الاتجاهات، وكما لو أن الزمن قد انكمش، من الوراء إلى الأمام ومن الأمام إلى الوراء، لينحصر في لحظة مكثفة، فكّر في أن الطفل الذي سمعه يبكي خلف الباب هو المرأة المجهولة نفسها، قبل ست وثلاثين سنة، وأنه هو نفسه صبي في الرابعة عشرة من عمره، ليس لديه أي سبب للبحث عن أحد، وخصوصاً في مثل هذه الساعة من الليل. وبينما هو واقف على الرصيف، نظر إلى الشارع وكأنه لم يره بعد، فمنذ ست وثلاثين سنة كانت مصابيح الإنارة العامة تقدم ضوءاً أشد شحوباً، ولم تكن حجارة الشارع قد عُبدت بالإسفلت بعد، كانت حجارة مرصوفة في خطوط متناسقة، وكانت لوحة المتجر الذي على الناصية تعلن عن أحذية وليس عن وجبات سريعة. تحرك الزمن، وبدأ يتمدد شيئاً فشيئاً، ثم بسرعة أكبر، بدا وكأنه يهتز في ارتجاجات عنيفة، كما لو أنه في داخل بيضة يجاهد للخروج منها، الشوارع تتوالى ليحل بعضها محل بعض، البنايات تظهر وتختفي، يتبدل لونها، وشكلها، وكل الأشياء تبحث بجزع عن

Twitter: @ketab_n

أماكنها قبل أن يأتي ضوء الفجر لينقل الأماكن مجدداً. وراح الزمن يعدّ الأيام منذ البداية، مستخدماً الآن جدول الضرب لكي يستعيد التأخير، وقد فعل ذلك بصورة صائبة تماماً بحيث أن دون جوزيه عاد مرة أخرى إلى الخمسين من عمره فور وصوله إلى البيت. أما الطفل الباكي، فكان هو وحده من كَبُرَ ساعة، مما يُثبت أن الزمن ليس متماثلاً لدى الجميع، بالرغم من أن الساعات الآلية تريد أن تقنعنا بعكس ذلك.

أمضى دون جوزيه ليلة عسيرة، ليضيفها إلى سابقاتها التي لم تكن أفضل منها. ومع ذلك، على الرغم من الانفعالات الجياشة التي عاشها خلال رحلته الليلية القصيرة، فإنه لم يكد يغطي أذنه بطيَّة الملاءة، كعادته، حتى غرق في نوم يمكن لأي شخص أن يسميه، للوهلة الأولى، عميقاً ومرمماً للقوى، ولكنه ما لبث أن خرج منه فوراً، بصورة مفاجئة، كما لو أن أحداً قد هزه من كتفه، دون احترام أو تروٍ. لقد أيقظته فكرة مباغتة برزت في منتصف حلمه، بصورة صاعقة جداً لم تُتح الوقت لأن يختلط نسيج حلم بها، فكرة أن تكون المرأة المجهولة، صاحبة البطاقة، هي في نهاية المطاف تلك التي سمعها تهدهد للطفل، امرأة الزوج نافد الصبر، وفي هذه الحالة يكون بحثه قد انتهى، انتهى بسخف، في اللحظة التي يجب أن يبدأ فيها تحديداً. ضغط غم مفاجئ على حنجرته، بينما العقل المحزون يحاول المقاومة، يريد منه أن يبدي عدم مبالاته، أن يقول لنفسه، هذا أفضل، فهكذا سيكون لدي عمل أقل، ولكن الغم لم يزايله، واصل الضغط، وكان هو [الغم] من سأل العقل، وما الذي سيفعله هو، إذا لم يستطع تحقيق ما يفكر فيه، سيفعل ما دأب على فعله دوماً، سيجمع قصاصات صحف، صوراً، أخباراً، مقابلات، وكأن شيئاً لم يحدث، يا للمسكين، لا أظنه سيتوصل إلى ذلك، لماذا، عندما يأتي الغم، فإنه لا يغادر بهذه السهولة، يمكنه أن

Twitter: @ketab_n

يختار بطاقة أخرى ثم يبدأ بعد ذلك البحث عن هذا الشخص الجديد، المصادفة لا تختار، وإنما تعرض، والمصادفة هي التي جاءته بالمرأة المجهولة، والمصادفة وحدها هي التي تملك صلاحية الاختيار في هذا الشأن، لن يعدم وجود مجهولين في خزانة البطاقات، ولكنه سيعدم المبررات لاختيار واحد منهم وليس آخر، واحد منهم بالتحديد وليس واحداً عشوائياً من بين كل الآخرين، لا أظن أن تسليم قيادنا للمصادفة سيكون قاعدة جيدة للحياة، سواء أكانت قاعدة جيدة أم لم تكن، وسواء أكانت مناسبة أم لا، فإن المصادفة هي التي وضعت بين يديه تلك البطاقة، وماذا لو كانت المرأة هي نفسها، لو كانت المرأة نفسها، فإن المصادفة هي التي شاءت ذلك، دون أية عواقب أخرى، ومن نكون نحن حتى نتكلم عن العواقب، إذا كنا لا نكاد نرى من الرتل غير المتناهي الذي يسير باتجاهنا دون توقف إلا أوله، هذا يعني أنه ما زال بالإمكان حدوث شيء، شيء، لا، بل كل شيء، لستُ أفهم، إننا نعيش منذهلين إلى حد لا نلاحظ معه بأن ما يحدث لنا، في كل لحظة، لا يمس ما يمكن أن يحدث لنا، هل يعني هذا أن ما يمكن أن يحدث يأخذ بالتوالد بصورة دائمة، إنه لا يتوالد فقط بقدر ما يتكاثر، ويكفي أن نقارن بين يومين متتاليين، لم أفكر قط بأن الأمر على هذا النحو، إنها أمور لا يعرفها جيداً إلا المغمومون.

وكما لو أن المحادثة لم تكن معه، كان دون جوزيه يتقلب في السرير دون أن يجد إلى النوم سبيلاً. إذا ما كانت المرأة هي نفسها، كان يكرر، إذا ما كانت المرأة بعد كل شيء هي نفسها، فسأمزق البطاقة اللعينة ولن أفكر في الموضوع أكثر. كان يعرف أنه إنما يحاول التستر على الإحباط، يعرف أنه لن يتحمل العودة إلى الأفكار المعهودة، كان يبدو وكأنه كان على وشك الإبحار لاكتشاف الجزيرة السرية الغامضة

Twitter: @ketab_n

في اللحظة الأخيرة، بينما هو يضع قدمه على معبر الصعود إلى السفينة، يظهر أحدهم وهو يحمل خريطة مبسوطة، ليس هناك ما يستحق عناء انطلاقك في هذه الرحلة، فالجزيرة المجهولة التي تريد العثور عليها موجودة هنا، انظر، على خط العرض كذا، وعلى خط الطول كذا، فيها موانئ ومدن، جبال وأنهار، وكلها لها أسماؤها وتواريخها، من الأفضل أن تقنع بتقبل كونك ما أنت عليه. ولكن دون جوزيه لا يريد الاستسلام، ويواصل النظر نحو الأفق الذي يبدو ضائعاً، وفجأة، كما لو أن سحابة سوداء قد انقشعت لتسمح بظهور الشمس، انتبه إلى أن الفكرة التي أيقظته كانت خادعة، وتذكر أن البطاقة تتضمن واقعتين، إحداهما واقعة الزواج، والأخرى هي الطلاق، وتلك المرأة التي في البناء متزوجة بالتأكيد، ولو أنها المرأة نفسها فلا بد للبطاقة من أن تتضمن واقعة الزواج الجديد، صحيح أن المحفوظات قد تخطئ أحياناً، ولكن دون جوزيه لم يشأ التفكير في ذلك.

Twitter: @ketab_n

متعللاً بأسباب خاصة ذات قوة كبرى لا تقاوم، اعتذر بأنه لا يستطيع الإفصاح عنها، ومُذكراً على كل حال بأنها المرة الأولى خلال خمس وعشرين سنة من الخدمة المخلصة والتقيد الدقيق بمواعيد العمل التي يفعل فيها ذلك، طلب دون جوزيه الإذن له بالخروج قبل ساعة من موعد انتهاء العمل. ومتبعاً التدابير التي تنظم علاقات التسلسل الوظيفي في المحفوظات العامة للسجل المدني، بدأ بعرض رغبته على مأمور قسمه، الذي تتوقف على طيب أو سوء استعداده الروحي الطريقة التي سيُنقل بها الطلب إلى نائب المدير المختص، والذي سيحذف بدوره أو سيضيف بعض الكلمات، وسيشدد على هذا المقطع الصوتي أو يحذف ذاك، بحيث يمكنه، إلى حد ما، أن يؤثر في القرار النهائي. ومع ذلك، كانت الشكوك حول هذه النقطة أكبر بكثير من اليقين، لأن الأسباب التي تدفع المدير إلى منح موافقته على الإذن أو ذاك، أو حجبها عنه، لا يعرفها أحد سواه، وليس هناك من مذكرة أو سجل، خلال سنوات طويلة من عمل المحفوظات، لبلاغ وحيد، خطي أو شفوي، يتضمن القواعد المناسبة. ولهذا ستبقى مجهولة إلى الأبد الأسباب التي مُنح بمقتضاها دون جوزيه الإذن بالخروج قبل نصف ساعة من انتهاء الدوام بدلاً من الساعة الكاملة التي طلبها. من المشروع أن نتصور، وإن لم يكن ذلك سوى تأمل مجاني، لا يمكن إثباته، بأن المأمور أولاً، أو نائب المدير بعد ذلك، أو كليهما معاً، قد أضافا بأن مثل

Twitter: @ketab_n

ذلك التغيب الطويل سيؤثر سلباً على سير العمل، ومن المحتمل جداً أن يكون المدير قد انتهز الفرصة لكي يُذِلَّ مجدداً مرؤوسيه باستعراض سلطاته المتميزة. وعندما أبلغه المأمور بالقرار الذي كان نائب المدير قد أبلغه به، أجرى دون جوزيه حساباً للوقت وتوصل إلى أنه سيضطر، إذا كان لا يريد مواجهة صاحب البيت عائداً من عمله، إلى أن يستقل سيارة أجرة، وهي ترف إذا ما وُجدت، نادر جداً في حياته. لن يكون بانتظاره هناك، وقد يحدث ألا يكون هناك أحد في البيت في تلك الساعة، ولكن ما يرغب فيه، قبل كل شيء، هو ألا يجد نفسه مضطراً إلى المواجهة مع رجل متبرم، لأن إرضاء ريبة شخص كهذا ستكون أصعب منالاً من الرد على أسئلة امرأة تحمل طفلاً بين ذراعيها.

لم يفتح الرجل الباب، كما أنه لم يسمع صوته بعد ذلك من داخل البيت، وهذا يعني أنه ما زال في العمل أو أنه قادم في الطريق، ولم تكن المرأة تحمل الطفل بين ذراعيها. أدرك دون جوزيه عَلى الفور أن المرأة المجهولة، سواء أكانت متزوجة أم مطلقة، لا يمكن لها أن تكون هي نفسها تلك التي أمامه. فمهما بلغ سعيها للحفاظ على شبابها، ومهما بلغ ترفق الزمن في معاملتها، فإنه من غير الطبيعي لشخص يحمل في جسده ستاً وثلاثين سنة أن يبدو دون الخامسة والعشرين في ملامح وجهه. وكان يمكن لدون جوزيه أن يدير لها ظهره وينصرف ببساطة، أو أن يتلعثم بأي تبرير سريع، كأن يقول، مثلاً، المعذرة، لقد أخطأت، إنني أبحث عن شخص آخر، ولكن طرف خيط آريان الخاص به، من أجل استخدام اللغة الميثولوجية على النسق البيروقراطي، كان هناك بطريقة أو بأخرى، وهذا دون إغفال الاحتمال العقلاني بوجود أشخاص آخرين يعيشون في البيت، ومن بينهم المرأة التي هي محط بحثه، مع أن روح دون جوزيه، مثلما نعرف، كانت ترفض هذا الاحتمال بحدة. أخرج

Twitter: @ketab_n

البطاقة من جيبه، بينما هو يقول، مساء الخير يا سيدتي، مساء الخير، ماذا تريد، سألته المرأة، انا موظف من المحفوظات العامة للسجل المدني ومكلف بالتحري حول بعض اللبس الذي نشأ في سجل شخص نعرف أنه ولد في هذا البيت، لم أولد أنا ولا زوجي هنا، وإنما ابنتنا فقط، وعمرها الآن ثلاثة شهور، ولا أظن أنها المعنية، يا لهذه الفكرة، الشخص الذي ابحث عنه امرأة في السادسة والثلاثين، أنا عمري سبع وعشرون، لا يمكن أن تكوني المرأة المقصودة بالطبع، قال دون جوزيه ذلك ثم أضاف، ما اسمك. أعطته المرأة الاسم، وتوقف هو برهة ليبتسم، ثم سألها بعد ذلك، هل تعيشين في هذا البيت منذ زمن طويل، منذ سنتين، وهل تعرفتِ على الأشخاص الذين كانوا يقيمون هنا من قبل، هؤلاء، وقرأ اسم المرأة المجهولة واسمي أبويها، لسنا نعرف أي شيء عن هؤلاء الناس، كان البيت شاغراً واتفق زوجي على استئجاره مع وكيل المالك، هل هناك في البناية مستأجر قديم، في الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي تعيش سيدة مسنة، وهي كما سمعتُ أقدم مستأجرة في البناء، ربما لم تكن تعيش هنا قبل ست وثلاثين سنة، فالناس ينتقلون كثيراً هذه الأيام، هذا ما لا يمكنني الحسم فيه، من الأفضل أن تتحدث معها، والآن عليّ أن أنصرف، فزوجي على وشك المجيء وهو لا يروقه أن يراني أتحدث مع الغرباء، كما أنني أقوم بإعداد العشاء، إنني موظف في المحفوظات العامة للسجل المدني، ولستُ غريباً، وقد جئت في مهمة، وإذا كنتُ قد أزعجتك فإنني أطلب المعذرة، لهجة دون جوزيه اللطيفة ليّنت المرأة، لا، أنت لم تزعجني في الحقيقة، وما أردتُ قوله فقط هو أنه لو كان زوجي هنا لطلب منك أولاً ثبوتياتك، سأريكِ بطاقتي كموظف، انظري، آه، حسن جداً، أنتَ تُدعى دون جوزيه، ولكنني عندما قلت ثبوتياتك كنتُ أعني الوثيقة الرسمية

Twitter: @ketab_n

التي تُذكر فيها القضية التي تحققُ فيها، المدير لم يفكر في أنني سأقابل بالريبة، لكل شخص طريقته في النظر إلى الأمور، والجارة التي تسكن في الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي هي.. إنها كارثة، لا تفتح بابها لأحد، أما أنا فمختلفة، فأنا أحب التحدث مع الناس، اشكرك على لطفك في التعامل معي، يؤسفني أنني لم أستطع أن أفيدك أكثر، بل على العكس، لقد ساعدتني كثيراً، فقد حدثتني عن السيدة التي في الطابق فوق الأرضي وعن مسألة الثبوتيات، لحسن الحظ أنك تفكر بهذه الطريقة. وكان يبدو أن المحادثة ستستمر لبضع دقائق أخرى، ولكن سكون البيت قُطع فجأة ببكاء الطفل الذي استيقظ، أهو طفل، قال دون جوزيه، لا، ليس طفلاً، بل طفلة، لقد قلت لك ذلك من قبل، وابتسمت المرأة فابتسم دون جوزيه أيضاً. وفي هذه اللحظة سُمع صوت الباب السفلي وأضيء نور الدرج. فهمست المرأة، إنه زوجي، فأنا أعرف طريقته في الدخول، انصرف متظاهراً بأنك لم تتحدث معي. لم ينزل دون جوزيه. وإنما صعد بسرعة، دون أن يُحدث ضجة، على رؤوس أصابعه، إلى بسطة الدرج العلوية وبقي هناك، مستنداً إلى الجدار، وقلبه يخفق كما لو أنه يعيش مغامرة خطرة، بينما خطى الرجل الشاب الواثقة تتعالى وتقترب. قُرع الجرس، وما بين فتح الباب وإغلاقه كان بكاء الطفلة ما يزال مسموعاً، ثم ملأ بعد ذلك صمت عظيم حلزون الدرج. وبعد دقيقة من ذلك انطفأ النور العام. وعندئذ انتبه دون جوزيه إلى أن كل الحوار مع المرأة قد دار في عتمة جوف البناء المتواطئة، كما لو أن أحدهما يريد إخفاء شيء، وكان التواطؤ هو الكلمة غير المتوقعة التي وردت إلى ذهنه، تواطؤ بأي شيء، تواطؤ لأي شيء، تساءل، والحقيقة أن المرأة لم تُعد إشعال الضوء حين انطفأ بعد تبادلهما الكلمات الأولى. بدأ أخيراً نزول الدرج، متوخياً كل

Twitter: @ketab_n

الحذر في أول الأمر، ثم متعجلاً بعد ذلك، ولم يتوقف إلا برهة ليسترق السمع أمام باب الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي، وكان يأتي صوت يجب أن يكون صادراً عن مذياع، لم يفكر في قرع الجرس، سيؤجل التحريات الجديدة إلى نهاية الأسبوع، حتى يوم السبت أو الأحد، وعندئذ لن يكون غافلاً، سيحضر ووثيقة التكليف في يده، سآتي مزوداً بصلاحية رسمية لا يتجرأ أحد على التشكيك فيها. ستكون وثيقة مزيفة، طبعاً، ولكنها ستجنبه، بقوة أنها ستكون مكتوبة على ورقة رسمية وممهورة بخاتم حقيقي، الجهد في محاولة إبعاد الشبهات قبل الدخول في لب القضية. أما بالنسبة إلى توقيع الرئيس، فإنه يشعر بالطمأنينة التامة، فمن غير المحتمل أن تكون السيدة مديدة العمر ساكنة الطابق فوق الأرضي قد رأت من قبل توقيع المدير، ولن يكون من الصعب عليه، إذا ما أمعن التفكير، أن يقلد التوقيع بفضل سعة مخيلته التنميقية. وإذا ما سار كل شيء على ما يرام هذه المرة، مثلما هو متأكد أنه سيحدث، فسوف يستخدم الوثيقة كلما واجهته مصاعب أو أحس أنها ستواجهه في تحرياته المستقبلية، لأنه كان مقتنعاً بأن تقصيه لن ينتهي في الطابق فوق الأرضي. فلو افترض أن المستأجرة موجودة منذ الزمن الذي كانت فيه أسرة المرأة المجهولة تعيش في البناء، فمن الممكن أن يتبين أنه لم يكن هناك وئام بينهم، وأن كل شيء يُختزل، في ذاكرة العجوز المتعبة، ببضع ذكريات غائمة، وهذا يعتمد على عدد السنوات التي انقضت منذ انتقال الأسرة من الطابق الثاني إلى مكان آخر في المدينة. أو إلى مكان آخر من البلاد، أو من العالم، فكر في ذلك قلقاً وقد صار في الشارع. الشخصيات المشهورة في مجموعته، أينما ذهبت، هنالك دائماً صحيفة أو مجلة تقتفي آثارهم وتتشمم رائحتهم لالتقاط صورة أخرى لهم، لتوجيه سؤال آخر

Twitter: @ketab_n

إليهم، أما الناس العاديون فلا أحد يتذكرهم، لا أحد يهتم فعلاً بهم، ولا أحد يحفل بمعرفة ما يفعلون، أو ما يفكرون، أو بما يشعرون، حتى عند محاولة جعلهم يعتقدون عكس ذلك، فإن التصنع يبدو واضحاً. إذا ما كانت المرأة المجهولة قد ذهبت لتعيش خارج البلاد، فإنها ستكون بعيدة عن متناول يده، وستكون كما لو أنها ميتة، نقطة وانتهى، هكذا ستنتهي القصة، غمغم دون جوزيه، ولكنه قدّر بعد ذلك أن الأمر لن يكون على هذا النحو، فلا بد أن تكون قد خلّفت وراءها حياة قبل رحيلها، ربما حياة قصيرة فقط، أربع سنوات، خمس سنوات، لا شيء يُذكر تقريباً، أو ربما خمس عشرة أو عشرين سنة، لقاء ما، تألق ما، خيبة ما، بضع ابتسامات، بضع دمعات، ما هو للوهلة الأولى متشابه لدى الجميع بينما هو في الواقع مختلف من واحد إلى آخر. ومختلف أيضاً في كل مرة. سأصل إلى حيث يمكن لي الوصول، قرر دون جوزيه بهدوء ليس من شيمه. وكما لو كانت تلك هي النتيجة المنطقية لما فكر فيه، دخل إلى مكتبة واشترى دفتراً سميكاً مُسطّر الأوراق، من تلك التي يستخدمها الطلاب لتدوين المواد المدرسية كلما ازداد ظنهم بأنهم آخذون في فهمها.

لم يأخذ منه تزييف وثيقة التوكيل وقتاً طويلاً. فخمس وعشرون سنة من الممارسة الكتابية اليومية تحت مراقبة مأمورين غيورين ونائبي مدير متشددين زودته بسيطرة كاملة على سلاميات أصابعه، وعلى معصميه، وعلى مفتاح اليد، وثبات مطلق سواء في الخطوط المائلة أو المستقيمة، وحس شبه غريزي لجرة القلم الغليظة والرفيعة، وحدس متقن لدرجة انسياب الأحبار أو لزوجتها، والتي أعطت محصلتها، حين وُضعت موضع الاختبار في هذه المناسبة، وثيقةً يمكن لها أن تصمد حيال تحريات أشد عدسات التكبير قوة. الأشياء الوحيدة التي قد تشي

Twitter: @ketab_n

بها هي آثار البصمات ورائحة العرق غير المرئية المتبقية في الورقة، ولكن احتمال إجراء أي نوع من هذه الاختبارات هو ضئيل إلى أدنى الحدود دون شك. ويمكن لأي خبير خطوط، إذا ما استدعي للإدلاء بشهادته، أن يقسم بأن الوثيقة موضع البحث مكتوبة بيد وبخط رئيس المحفوظات، وأنها أصلية كما لو أنها كُتبت في حضور شهود مؤهلين. كما أن الصياغة المتكلفة، وأسلوبها، والمفردات المستخدمة فيها يمكن لها أن تضيف بدورها عالم نفسٍ، يعزز تقرير الزميل العزيز، ويثبت إلى حد الإشباع بأن كاتبها هو شخص متسلط إلى أقصى الحدود، ذو طبع صارم، دون مرونة ولا شروخ، واثق من صواب رأيه، مزدرٍ للرأي الآخر، وهو ما يمكن لطفل أن يستخلصه بسهولة من قراءة النص الذي يقول ما يلي، باسم الصلاحيات الممنوحة لي والتي أقسمت على تحملها وتطبيقها والدفاع عنها، وبصفتي مدير هذه **المحفوظات العامة للسجل المدني**، أحيط الجميع علماً، عسكريين أو مدنيين، عامين أو خاصين، ممن يرون، ويقرؤون، ويراجعون هذا التكليف المكتوب والموقع بيدي وخطي، بأن فلان الفلاني، الذي يعمل كاتباً تحت أمرتي في **المحفوظات العامة** التي أترأسها، وأحكمها وأديرها، قد تلقى مني مباشرة الأمر والتكليف بتحري واستنفاد كل ما له علاقة بالحياة الماضية والحاضرة والمستقبلية لفلانة الفلانية، المولودة في هذه المدينة، في يوم كذا من شهر كذا، ابنة بيلترانو كذا وثوتانا كذا، ويتوجب بالتالي أن يُعترف له، دون إثباتات أخرى، وخلال الوقت الذي يستغرقه التحقيق، بالصلاحيات المطلقة التي أفوضها لشخصه، في هذا السبيل ومن أجل هذه القضية. للتنفيذ وفق ما تستدعيه مقتضيات الخدمة الوقائية وتقرره مشيئتي. سيرتجف من الخوف المخلوق الذي سيتمكن بمشقة من قراءة الورقة شديدة الوقع، وسيهرع للاحتماء في حضن

Twitter: @ketab_n

أمه، متسائلاً كيف أمكن لكاتب مثل دون جوزيه هذا، ذي الطبع المسالم، والعادات الرشيدة، أن يكون قادراً على أن يتصور، يتخيل، يختلق في رأسه التعبير عن السلطة المطلقة بمثل تلك الدقة، وهذا أقل ما يمكن أن يقال في الأمر، دون أن يكون لديه نموذج مسبق يسترشد به، ذلك أنه ليس من المعمول به ولم تكن ثمة ضرورات فنية لأن تقدم المحفوظات العامة يوماً وثيقة تكليف. وسيكون على ذلك المخلوق الخائف أن يأكل الكثير من الخبز والكثير من الملح قبل أن يبدأ بفهم الحياة، وعندئذ لن يفاجأ حين يكتشف، عندما تحين الفرصة، كيف يمكن حتى للطيبين أن يتحولوا إلى متصلبين ومتجبرين، وإن يكن ذلك بكتابة وثيقة تكليف، مزورة أو غير مزورة. سيقولون على سبيل الاعتذار، الواقع أنني لم أكن أنا نفسي، بل كنت أكتب، أو أتصرف باسم شخص آخر، ويكون ما يريدونه في أفضل الحالات هو خداع أنفسهم، لأن التصلب والتجبر، هذا إن لم نقل القسوة، كانت في الحقيقة تتبدى في داخلهم، وليس في شخص آخر، مرئية أو غير مرئية. ومع ذلك، وبتقدير ما جرى حتى الآن بآثاره، فإن الاحتمال ضئيل بأن تؤدي نوايا وأعمال دون جوزيه المستقبلية إلى إلحاق أضرار جدية بالعالم، ولهذا سنترك حكمنا معلقاً بصورة مؤقتة، طالما لم تتكفل أفعال أخرى أكثر كشفاً، سواء بالمعنى الطيب أو المعنى الخبيث، برسم صورته النهائية.

لبس يوم السبت أفضل بدلة لديه، وقميصاً نظيفاً ومكوياً، وربطة عنق مضبوطة إلى حد ما، تتناسب تقريباً مع لون البدلة، وخبأ في جيب الجاكيت الداخلي المغلف المدموغ وفيه كتاب التكليف، ركب دون جوزيه سيارة أجرة من باب بيته، ليس من أجل كسب الوقت، فاليوم عطلة وهو له بالكامل، وإنما لأن الغيوم كانت تنذر بهطول مطر، ولم يشأ الظهور أمام سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي وهو

Twitter: @ketab_n

يقطر من أذنيه، وثنيات بنطاله ملطخة بالوحل، مجازفاً بذلك بأن تصفق الباب في وجهه قبل أن يتمكن من عرض سبب مجيئه. كان يشعر بالاستثارة وهو يتصور كيف ستستقبله السيدة المسنة، والتأثير الذي ستُحدثه في العجوز، وردت لفظة «العجوز» التحقيرية إلى ذهنه دون أن يفكر فيها، قراءة ورقة مثل تلك، المُنذرة والمخيفة، هناك أشخاص يكون رد فعلهم عكس ما هو متوقع، فعسى أن تكون الحالة على هذا النحو. ربما استخدم في تحرير الوثيقة ألفاظاً مفرطة في الصلابة والتجبر، ولكن الرؤية الاحتمالية تفرض عليه مع ذلك أن يكون وفياً لطباع المدير كوفائه للخط، أضف إلى ذلك أن الجميع يعرفون بأنه من الصحيح تماماً أن اقتناص الذباب لا يتم بالخل، ولكن ما لا يقل صحة عن ذلك هو أن بعض الذباب لا يسمح باقتناصه حتى بالعسل. فتنهد، سنرى. كان أول ما تمكن من رؤيته، بعد أن أجاب على الأسئلة المُلّحة التي أتته من الداخل، من أنت، ماذا تريد، من أرسلك، ما علاقتي أنا بهذا، هو أن سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي ليست كبيرة السن مثلما كان قد تصورها، لم تكن تينك العينان عيني مسنة، ولا ذلك الأنف المستقيم، ولا ذلك الفم النحيل إنما الثابت، ودون تجعدات في جانبيه، المكان الذي يُلحظ فيه التقدم في السن هو ترهل جلد الرقبة، وربما دقق في هذا التفصيل بالذات لأنه كان قد بدأ يلاحظ في عنقه بالذات هذه العلامة المؤكدة للتردي الجسدي مع أنه لم يتجاوز الخمسين. لم تفتح السيدة الباب بالكامل، وكانت تقول وتعاود القول إنها لا تحفل بأمور الجيران، وهي من أكثر الإجابات تعقلاً، خصوصاً وأن دون جوزيه، متبعاً طريقاً خاطئاً، بدأ بالإعلان عن أنه يبحث عن شخص من الشقة اليسرى في الطابق الثاني. وبدا أن اللبس قد زال عندما ذكر أخيراً اسم المرأة المجهولة، فقد انفتح الباب

Twitter: @ketab_n

عندئذ أكثر قليلاً، لكي يعود بعد ذلك إلى وضعه السابق، هل تعرفين هذه السيدة، سألها دون جوزيه، فقالت المرأة، أجل، كنتُ أعرفها، أود أن أوجه إليك بعض الأسئلة عنها، ومن تكون حضرتك، إنني موظف مخول من المحفوظات العامة للسجل المدني، وقد قلتُ لك ذلك من قبل، وكيف يمكنني أن أعرف أن هذا صحيح، لدي تكليف موقع من مديري، إنني في بيتي، ولا أريد لأحد أن يزعجني، أنتِ مضطرة في مثل هذه الحالات إلى التعاون مع المحفوظات العامة، أية حالات، توضيح بعض الالتباسات الموجودة في السجل المدني، ولماذا لا تسألونها هي، لأننا لا نعرف عنوانها الحالي، فإذا كنتِ تعرفينه، أعطيني إياه ولن أزعجك أكثر، منذ ثلاثين سنة، إذا لم تخني الذاكرة، لم أتلق أي معلومات عن هذه المخلوقة، وكانت عندئذ طفلة، أجل. بهذه الكلمة الوحيدة أوحت المرأة بما يشير إلى أنها تعتبر المحادثة منتهية، ولكن دون جوزيه لم يستسلم، إذا كان عليه أن يخسر المئة، فماذا يهمه لو خسر الألف. أخرج المغلف من جيبه، فتحه وسحب منه التكليف، ببطء لا بد أنه بدا متوعداً، وأمرها، اقرئي. هزت المرأة رأسها، لن أقرأه، فالمسألة لا تعنيني، إذا أنتِ لم تقرئيه، فسوف أرجع برفقة الشرطة، وسيكون ذلك أسوأ لحضرتك. أذعنت المرأة لتسلم الورقة التي قدمها إليها، أضاءت نور الممر، ووضعت على عينيها نظارة كانت تعلقها في عنقها وقرأت. ثم أعادت الوثيقة بعد ذلك وفتحت له طريق الدخول، من الأفضل أن تتفضل بالدخول، فلا بد أن من يقطنون الشقة المقابلة يتصنتون علينا من وراء الباب. وحيال التحالف غير المعلن الذي بدا أن استخدام الضمير الشخصي يمثله، أدرك دون جوزيه أنه قد كسب المبارزة. وقد كان هذا الانتصار، بطريقة ما غير محددة، هو الانتصار الموضوعي الأول في حياته، صحيح أنه انتصار احتيالي، ولكن إذا كان هناك أناس

Twitter: @ketab_n

كثيرون يعلنون أن الغاية تبرر الوسيلة، فمن يكون هو حتى يفند ذلك ويكذبهم. دخل دون تفاخر، مثل منتصر تمنعه شهامته من التنازل للإغواء السهل بإذلال المهزوم، مع أنه كان يُقدِّر أن عظمته، على أي حال، كانت ملحوظة.

قادته المرأة إلى صالة صغيرة مرتبة بعناية ونظيفة، ذات ديكور من زمن آخر. قدمت له كنبة، وجلست هي أيضاً بدورها، وقالت دون أن تتيح للزائر الوقت لتوجيه أسئلة أخرى، إنني عرابتها. كان دون جوزيه يتوقع سماع كل شيء باستثناء هذا الكشف. كان هناك كموظف بسيط ينفذ أوامر رؤسائه، وبالتالي دون أي متطلبات ذات طبيعة شخصية، فهكذا يجب أن تراه المرأة الجالسة قبالته، ولكنه هو وحده كان يعرف مقدار الجهد الذي بذله لكي يمنع نفسه من الابتسام بلذة راضية. أخرج من جيبٍ آخر نسخة البطاقة، ونظر إليها ببطء، وكأنه سيحفظ في ذاكرته كل الأسماء التي تتضمنها، ثم قال بعد ذلك، وهل كان زوجك هو المراب، أجل، هل يمكنني التحدث إليه أيضاً، إنني أرملة، آه، وكان في هذا الهتاف الأصم من الراحة الحقيقية بقدر ما فيه من الحزن المتكلف، فها قد نقص شخص آخر ممن يتوجب عليه مقارعتهم. قالت المرأة، لقد كانت علاقتنا جيدة، أعني الأسرتين، أسرتنا وأسرتها، كنا أصدقاء حميمين، وعندما ولدت الطفلة طلبوا منا أن نكون عرابيها، وكم كان عمر الطفلة عندما انتقلوا من البيت، أظنها كانت تقترب من الثامنة، كنتِ قد قلتِ لي من قبل إنك لم تعرفي أخباراً عنها منذ ثلاثين سنة، وهو كذلك، أفصحي أكثر، لقد تلقيتُ رسالة بعد انتقالهم بوقت قصير، ممن تلقيتها، من الطفلة، وماذا تقول الرسالة، لا شيء خاصاً، فقد كانت رسالة من طفلة في الثامنة، بالكلمات القليلة التي تعرفها، والتي تستطيع كتابتها إلى عرابتها، أمازلتِ تحتفظين بالرسالة، لا،

Twitter: @ketab_n

وماذا عن الوالدين، ألم يكتبا إليك قط، لا، أليس ذلك غريباً، لا، لماذا، إنها شؤون خاصة، ليست لنشرها على الملأ، ليست هناك شؤون خاصة تخفى عن المحفوظات العامة للسجل المدني. نظرت إليه المرأة بتمعن، من أنتَ، لقد أطلعتُك على التكليف بالمهمة للتو، أطلعتني على اسمك فقط، أنت دون جوزيه، أجل، أنا دون جوزيه، إنكَ توجه إليّ ما تشاء من الأسئلة، بينما لا أستطيع أنا أن أوجه إليك أي سؤال، من أجل استجوابي أنا، لا يمكن أن يفعل ذلك إلا موظف أعلى مني مرتبة في المحفوظات العامة، أنتَ شخص سعيد، يمكنك الحفاظ على أسرارك، لا أعتقد بأنه يمكن لشخص أن يكون سعيداً لمجرد أنه يحتفظ بأسرار، أأنتَ سعيد، ليس مهماً ما أنا عليه، فقد أوضحتُ لكِ من قبل بأن المراتب الوظيفية الأعلى هي وحدها المخولة باستجوابي، هل لديكَ أسرار، لن أجيبُك، أما أنا فيتوجب عليّ أن أجيبكَ، من الأفضل لك أن تفعلي، ماذا تريدني أن أقول لك، ما هي تلك الشؤون الخاصة. مرّت المرأة بيدها على جبهتها، وتركت جفونها الذاوية تنسدل ببطء، ثم قالت بعد ذلك دون أن تفتح عينيها، كانت أمها تشك بأنني على علاقة حميمة مع زوجها، وهل كان ذلك صحيحاً، كان صحيحاً، ومنذ وقت طويل سابق، ألهذا السبب رحلوا، أجل. ثم فتحت المرأة عينيها وسألت، أتعجبك أسراري، لا يهمني منها إلا ما له علاقة بالشخص الذي أبحث عنه، كما أنني غير مخول بأية أشياء أخرى، أنتَ لا تريد أن تعرف إذن ما الذي حدث بعد ذلك، بصورة رسمية لا، ولكنك ربما أردت أن تعرف، بصورة خاصة، ليس من أساليبي التجسس على حياة الآخرين، قال دون جوزيه ذلك، متناسياً المئة وبضعاً وأربعين حياة التي يحتفظ بها في خزانته، ثم أضاف، ولكنني لا أظن بأن شيئاً استثنائياً جداً قد حدث لكِ، خصوصاً وأنك قلتِ لي إنك أرملة، لديكَ ذاكرة جيدة، إنه

Twitter: @ketab_n

شرط أساسي ليكون المرء موظفاً في المحفوظات العامة للسجل المدني، فرئيسي على سبيل المثال، وهذا لكي تتكوّن لديكِ فكرة فقط، يعرف عن ظهر قلب كل الأسماء الموجودة والتي ستوجد، كل الأسماء وكل الكنى، وبماذا يفيد ذلك، إن دماغ مدير المحفوظات هو مثل نسخة أخرى من المحفوظات، لست أفهمكَ، بما أن دماغ رئيسي قادر على تحقيق كل التوليفات المحتملة للأسماء والكنى، فإنه لا يعرف أسماء كل الأشخاص الأحياء وكل الموتى وحسب، وإنما يمكنه كذلك أن يخبرك كيف سيسمى كل الذين سيولدون منذ الآن وحتى نهاية الدنيا، انتَ تعرف أكثر من رئيسك، ولا بأي حال، فأنا لا أساوي شيئاً بالمقارنة معه، ولهذا هو مدير وأنا لستُ إلا مجرد كاتب عادي، كلاكما يعرف اسمي، هذا صحيح، ولكنه لا يعرف عني أكثر من اسمي، معكِ حق في هذا، والفرق يكمن في أنه كان يعرفه من قبل، أما أنا فعرفته عندما تلقيت التكليف بهذه المهمة، وبقفزة واحدة تقدمتَ عليه، فأنتَ هنا، في بيتي، يمكنكَ رؤية وجهي، وسماعي وأنا أقول إنني قد خنتُ زوجي، وأنتَ الشخص الوحيد الذي أخبره بذلك، خلال كل هذه السنوات، فما الذي تحتاجه أكثر من هذا لتقتنع بأن رئيسك ليس أكثر من جاهل بالمقارنة معكَ، لا تقولي هذا، فهو غير لائق، هل لديك أي سؤال آخر، أي سؤال تعنين، إذا ما كنتُ سعيدة مثلاً في زواجي بعد الذي حدث، هذا موضوع غير مرتبط بالملف، ليس هناك ما هو غير مرتبط، فمثلما توجد كل الأسماء في رأس رئيسك، فإن ملف أي شخص هو ملف الجميع، انتِ تعرفين الكثير، هذا طبيعي، فقد عشتُ كثيراً، أنا لي من العمر خمسون سنة، ولستُ أعرف شيئاً بالمقارنة معكِ، لا يمكنكَ أن تتصور ما الذي يمكن تعلمه بين سن الخمسين والسبعين، أهذا هو عمركِ، بل أكثر قليلاً، هل كنتِ سعيدةً بعد الذي حدث، هذا يعني أنكَ مهتم بذلك،

Twitter: @ketab_n

لأنني لا أعرف إلا القليل عن حياة الأشخاص، مثلما هو حال رئيسك، ومثلما هي محفوظاتك، افترضُ ذلك، لقد تلقيتُ الصفع، إذا كان هذا ما تود معرفته، تلقيتِ الصفع، أجل، وهو ما يحدث بكثرة، اصفحوا بعضكم عن بعض، مثلما يقال عادة، العبارة المشهورة ليست هكذا، بل أحبوا بعضكم بعضاً. الأمر سيان، فمن يصفح يحب، ومن يحب يصفح، أنتَ ما زلتَ صبياً، وما زال أمامك الكثير لتتعلمه، ارى أنك على حق، هل أنتَ متزوج، لا، ألم تعش مع امرأة قط، عيش، بما تعنيه كلمة عيش، لم أعش، أقمتَ علاقات عابرة، آنية فقط، ولا هذه، فأنا أعيش وحيداً، وعندما تضغطْ عليّ الحاجة، أفعل ما يفعله الجميع، أبحثُ وأدفع، هل لاحظتَ أنك تجيب على أسئلة، أجل، ولكن ذلك لم يعد يهمني الآن، ربما كانت هذه هي الطريقة للتعلم، بالإجابة، سأوضح لكَ أمراً، ما هو، سأبدأ بسؤالك إذا ما كنتَ تعرف كم شخصاً يشكّلون الزواج، اثنان، الرجل والمرأة، لا يا سيدي، هناك في الزواج ثلاثة أشخاص، هناك المرأة، وهناك الرجل، وهناك ما أدعوه الشخص الثالث، وهو الأهم، الشخص الذي يتشكل من الرجل والمرأة معاً، لم أفكر في ذلك قط، إذا ما ارتكب أحد الاثنين الزنا، مثلاً، فإن أشدهما استياء، من يتلقى أقسى ضربة، مهما بدا ذلك غير معقول، ليس الآخر، وإنما ذلك الآخر الذي هو الاثنان، إنه ليس واحداً، وإنما هو اتحاد الاثنين، وهل يمكن العيش حقاً مع هذا الواحد المكون من اثنين، فأنا أجد مشقة في العيش حتى مع نفسي بالذات، أكثر ما هو شائع في الزواج هو رؤية الرجل أو المرأة، أو كليهما، وكل واحد يريد من جانبه تحطيم هذا الثالث الذي هو هما، هذا الذي يصمد، هذا الذي يريد البقاء على قيد الحياة كيفما اتفق، هذه مسألة حسابية شديدة التعقيد بالنسبة لمداركي، تزوج، اعثر لك على امرأة وبعد ذلك أخبرني، لقد

Twitter: @ketab_n

انقضى الزمن بالنسبة لي، من الأفضل ألا تراهن على ذلك، فمن يدري ما الذي ستجده عندما تصل إلى نهاية مهمتك أو ما شئت أن تسميها، الشكوك التي أرسلوني للكشف عنها هي شكوك تخص المحفوظات العامة، وليست تهمني شخصياً، وما هي تلك الشكوك، إذا كنتُ لا أثقل عليكَ بأسئلتي، إنني ملتزم بالتكتم على السر الرسمي، لا يمكنني الإجابة، السر لا يفيدك إلا قليلاً يا دون جوزيه، فالآن سيكون عليكَ أن تغادر، وسوف تغادر وأنت لا تعرف إلا ما كنتَ تعرفه عند دخولك، لا شيء، هذا الذي تقولينه صحيح، وهز دون جوزيه رأسه محبطاً.

نظرت إليه المرأة كما لو أنها تدرسه، ثم سألته، منذ متى بدأتَ السير في هذا التحقيق، بالنسبة لي، بدأتُ اليوم، ولكن المدير سيغضب كثيراً عندما سأعود إليه صفر اليدين، أنه شخص شديد التململ، سيكون ظلماً فادحاً بحق موظف لا يتمتع، كما أرى، بالاستراحة من العمل أيام السبت، لم يكن لدي أي شيء خاص أفعله، وكانت هذه وسيلة للتقدم في المهمة، ولكنك لم تحقق تقدماً يذكر، أليس كذلك يا سيدي، يتوجب عليّ أن أفكر، اطلب النصيحة من رئيسك، فلهذا هو رئيس، أنتِ لا تعرفينه، فهو لا يتقبل توجيه الأسئلة إليه، إنه يُصدر الأوامر وكفى، وماذا ستفعل الآن، لقد قلت لكِ، يجب عليّ أن أفكر، فكر إذن، هل صحيح أنكِ لا تعرفين شيئاً، إلى أين ذهبوا عندما رحلوا من هنا، لا بد أن الرسالة التي تلقيتِها كانت تحمل عنوان من أرسلها، أجل، لا بد أنها تحمل العنوان، ولكن تلك الرسالة لم تعد موجودة، ألم تردي عليها، لا، لماذا، في الخيار بين القتل والاستسلام للموت، فضلتُ القتل، إنني أتكلم بالمعنى المجازي بالطبع، إنني في طريق مسدود، ربما لستَ كذلك، ماذا تعنين، أعطني ورقة وشيئاً يكتب. قدم لها دون جوزيه بيدين مرتعشتين قلم رصاص، يمكنك أن تكتبي

Twitter: @ketab_n

هنا بالذات، على قفا البطاقة، في نسخة مستنسخة. وضعت المرأة النظارة، وكتبت بعض الكلمات بسرعة، ها هو، ولكنه ليس عنوانها، إنه فقط اسم الشارع حيث كانت المدرسة التي ترتادها ابنتي في العماد بعد انتقالهم، ربما تتمكن من هناك الوصول إلى حيث تشاء، إذا كانت المدرسة ما تزال هناك. وجدت روح دون جوزيه نفسها منقسمة بين الامتنان الشخصي للجميل والضيق الرسمي لأنها ماطلت طويلاً. صرّف الامتنان قائلاً، شكراً، دون أي إضافة أخرى، ثم قال بنبرة معتدلة، ولكنه سمح لضيقه بأن يظهر فيها، لا يمكنني أن أفهم سبب تأخرك كل هذا الوقت في إعطائي عنوان المدرسة، مع أنك تعلمين بأنه يمكن لأي معلومة، مهما بدت تافهة، أن تكون ذات أهمية حيوية بالنسبة لي، لا تبالغ كثيراً، على الرغم من كل شيء، أنا ممتن لك كثيراً وأقول هذا باسمي وباسم المحفوظات العامة للسجل المدني التي أمثلها، ولكنني ألح على أن توضحي لي سبب تأخرك طويلاً في إعطائي العنوان، السبب بسيط جداً، لأنه ليس لدي من أتبادل الحديث معه. نظر دون جوزيه إلى المرأة، وكانت هي تنظر إليه، ليس ثمة مبرر لهذر الكلمات في تفسير التعبير الذي كان في عيني أحدهما وعيني الآخر، والمهم فقط هو ما استطاع أن يقوله بعد صمت طويل، وأنا أيضاً. عندئذ نهضت المرأة عن المقعد، وبحثت في أحد أدراج الصيوان الذي كان وراءها وأخرجت منه ما يشبه الألبوم، إنها صور، فكر في ذلك دون جوزيه مبتهجاً. فتحت المرأة الكتاب، تصفحته، وخلال ثوان قليلة وجدت ما تريده، لم تكن الصورة ملصقة، بل كانت مثبتة بأربع زوايا ورقية صغيرة ملصقة على الصفحة، قالت، ها هي، خذها، هذه هي الصورة الوحيدة لها التي أحتفظ بها، وآمل ألا تسألني الآن أيضاً عما إذا كانت لدي صور لأبويها. لن أسألك. مدّ دون جوزيه يده المترددة، تلقى صورة

Twitter: @ketab_n

بالأبيض والأسود لطفلة في الثامنة أو التاسعة من عمرها، لها وجه يجب أن يكون شاحباً، وعينان جديتان تحت خصلة شعر تلامس الحاجبين، وفم بقي هكذا لأنه كان يهمُّ بالابتسام ولم يستطع. قلب حساس، وأحس دون جوزيه بعينيه تفيضان بالدموع، لا يبدو عليك أنك موظف في المحفوظات، قالت المرأة، إنه الشيء الوحيد الذي أنا عليه، قال هو، اترغب في فنجان من القهوة، سيكون جيداً.

تحادثا قليلاً بينما هما يشربان القهوة ويقضمان قطعة البسكويت، بضع كلمات فقط تبادلاها حول السرعة التي ينقضي بها الزمن اللعين. يمضي، ولا نكاد ننتبه إليه، منذ قليل كان الصباح، وها هو ذا الليل يوشك أن يحلّ الآن، كان يُلاحَظ في الواقع أن المساء آخذ بالاقتراب أخيراً، ولكنهما ربما كانا يتحدثان عن الحياة، عن حياتيهما، أو عن الحياة عموماً، هذا ما يحدث عندما نحضر محادثة ولا نكون منتبهين، فيفلت منا على الدوام أهم ما يقال. انتهت القهوة، وكانت الكلمات قد انتهت، فنهض دون جوزيه وقال، يجب أن أنصرف، شكرها على الصورة، وعلى عنوان المدرسة، فقالت المرأة، إذا ما مررت يوماً بهذه المنطقة، ثم رافقته حتى الباب، مدّ يده، وعاد للقول، شكراً جزيلاً، ومثل فارس من عصر آخر قربها من شفتيه، عندئذ ابتسمت المرأة بخبث وقالت، ربما لا يكون البحث في دليل الهاتف بالفكرة السيئة.

Twitter: @ketab_n

كانت الصدمة قاسية جداً إلى حدّ أن دون جوزيه، بينما هو يطأ الشارع بقدميه المضطربتين، تأخر في الانتباه إلى أن مطراً خفيفاً، شبه شفاف، من تلك الأمطار التي تبلل في اتجاه عمودي وفي اتجاه أفقي، إضافة إلى جميع الميول الأخرى، يهطل عليه. ربما لا يكون النظر في دليل الهاتف بالفكرة السيئة، قالت العجوز بخبث لدى الوداع، وكل كلمة من هذه الكلمات، التي تبدو بريئة بذاتها، ولا يمكن لها أن تُغضب أشد المخلوقات حساسية، تحولت في لحظة واحدة إلى شتيمة عدوانية، إلى شهادة بلاهة لا تطاق، كما لو أنها خلال المحادثة، بالغة الفنى بالمشاعر منذ لحظة معينة، كانت تراقبه ببرود، لكي تنهي بأن الموظف الأخرق المرسل من المحفوظات العامة للسجل المدني للبحث عما هو بعيد وخفي، كان عاجزاً عن رؤية ما هو أمام عينيه وفي متناول يده. تلقى دون جوزيه، وهو بلا قبعة ولا مظلة، رذاذ المطر على وجهه مباشرة، كان الرذاذ دوارياً ومختلطاً مثل الأفكار المزعجة التي تروح وتجيء في رأسه، وكلها تدور، مثلما بدأ يلاحظ سريعاً، حول نقطة مركزية محددة، راحت تصبح شيئاً فشيئاً أكثر صفاء. صحيح أنه لم يخطر له أمر شديد البساطة واليومية مثل استشارة دليل الهاتف، وهو الشيء المعهود عندما يريد أحد معرفة رقم أو عنوان شخص يكون الهاتف مسجلاً باسمه. وكان لا بد أن يكون هذا هو أول عمل يقوم به، إذا أراد أن يتحرى مستقر المرأة المجهولة، وفي أقل من دقيقة سيعرف أين يجدها، وبعد ذلك، بحجة استيضاح شكوك التسجيل في السجل

Twitter: @ketab_n

المدني، يمكنه أن يرتب معها لقاء خارج المحفوظات، متذرعاً بأنه يريد أن يوفر عليها دفع رسوم مالية مثلاً، وبعد ذلك، سيجازف بكل شيء في إيماءة جريئة، في اليوم نفسه أو بعد عدة أيام، حين تتولد بينهما الثقة، ويطلب منها، قصي عليّ حياتك. لم يتصرف على هذا النحو، وقد بدأ الآن، بالرغم من جهله بفنون علم النفس وخفايا العقل الباطن، يدرك السبب بصورة تقريبية. فلنتصور صياداً، كان دون جوزيه يمضي وهو يقول ذلك لنفسه، فلنتصور صياداً أعدّ أدواته بكل عناية، البندقية، جعبة الطلقات، كيس الطعام، زمزمية الماء، الكيس الشبكي الذي سيجمع فيه صيده، حزمة البرية، ولنتصوره خارجاً مع كلابه، مصمماً، مفعماً بالحماس، متأهباً ليوم طويل مثلما هي الحال في مغامرات القنص، ولكنه ما إن ينعطف عند الناصية التالية، وهو ما يزال إلى جوار بيته، حتى يخرج له سرب من الحجل مستسلماً له ليقتله، يطير ولكنه لا يبتعد من هناك مهما جندل الرصاص منه، كهدية ومفاجأة للكلاب التي لم تر في حياتها قط سقوط المن من السماء بمثل تلك الكميات. ما الذي ستكونه، بالنسبة إلى الصياد، متعة صيد بهذه السهولة، تُقدم فيه طيور الحجل نفسها، بهذا المعنى تماماً، لفوهات البنادق، تساءل دون جوزيه، وقدم الجواب الذي يبدو جلياً لأي شخص، **لا توجد أي متعة**. وهو ما يحدث لي، أضاف، يجب أن يكون في رأسي، وبكل تأكيد في رؤوس الجميع، فكر حقيقي يفكر لحسابه الخاص، ويقرر دون مشاركة الفكر الآخر، ذاك الذي نعرفه منذ أن نعرف أنفسنا والذي نعامله دون تكليف، ذاك الذي يسلم قياده ليحملنا إلى حيث نعتقد ونحن واعون أننا نود الذهاب، مع أنه يمكن، في نهاية المطاف، أن يُقتاد هذا عبر طريق آخر، في اتجاه آخر، وليس إلى أقرب منعطف، حيث ينتظرنا سرب من الحجل دون أن يعلم، ولكننا نحن نعلم، في النهاية، بأن ما يعطي معنى حقيقياً للقاء هو البحث وأنه لا بد من

Twitter: @ketab_n

السير كثيراً من أجل بلوغ ما هو قريب. وضوح التفكير، سواء أكان هذا أم ذاك، الخاص أو المعهود، بعد الوصول لا يعود مهماً في الحقيقة مثل أهمية كيفية الوصول، كان ذلك مبهراً إلى حد أن دون جوزيه توقف مذهولاً في وسط الرصيف، يلفه الرذاذ الضبابي وضوء مصباح الأنوار العامة الذي أضيء مصادفة في تلك اللحظة بالذات. عندئذ، ومن أعماق روحه الحزينة والممتنة، ندم على الأفكار الخبيثة وغير الجديرة، وكانت واعية جداً، التي أطلقها على السيدة مديدة العمر والعطوفة ساكنة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، بينما هو مدين لها في الواقع، ليس فقط بعنوان المدرسة وبالصورة، وإنما كذلك بأكمل تفسير وأكثره وضوحاً لتصرف لم يكن يملكه ظاهرياً. وبما أنها تركت تلك الدعوة لزيارتها معلقة في الهواء، إذا ما مررت يوماً من هذه المنطقة، هكذا كانت كلماتها، واضحة بما يكفي للتخلي عن بقية الجملة، وعاهد نفسه أن يعود يوماً ويطرق بابها، سواء لإطلاعها على ما حققه من تقدم في تحرياته أو ليفاجئها بالكشف عن السبب الحقيقي لرفضه الاستعانة بدليل الهاتف. وهذا يعني بالطبع أنه سيعترف لها بأن وثيقة التكليف كانت زائفة، وأن تحرياته لم تكن بناء على أوامر من المحفوظات العامة، وإنما هي من بنات أفكاره، ولن يجد مفراً من إخبارها بكل ما تبقى. وما تبقى هو مجموعته من الشخصيات المشهورة، وخوفه من المرتفعات، والأوراق المسودة، وشباك العنكبوت، وخزائن ملفات الأحياء الرتيبة، وفوضى خزائن الأموات، والعفونة، والغبار، واليأس، وأخيراً البطاقة التي خرجت لسبب ما ملتصقة بالبطاقات الأخرى، حتى لا ينسوها، والاسم، اسم الطفلة التي أحملها هنا، وتذكر الصورة، ولم يمنعه من إخراجها من جيبه لينظر إليها سوى دوامات المطر التي كانت تواصل الهطول من السماء. إذا ما قرر يوماً أن يخبر شخصاً كيف هي المحفوظات العامة من الداخل، فإن ذلك

Twitter: @ketab_n

الشخص سيكون سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي. هذه مسألة سيتكفل الزمن بحلها، هكذا قرر دون جوزيه. في هذه اللحظة بالذات أسعفه الزمن بمجيء الحافلة التي ستقله إلى مقربة من بيته، وفيها أناس كثيرون مبللون، رجال ونساء مختلفو الأعمار والهيئات، بعضهم شباب وبعضهم شيوخ، بعضهم قريب وبعضهم بعيد. المحفوظات العامة للسجل المدني تعرفهم جميعهم، تعرف أسماءهم، وأين ولدوا وممن، تحصيهم وتحسم أيامهم واحداً فواحداً، فتلك المرأة على سبيل المثال، ذات العينين المطبقتين، تلك التي تسند رأسها إلى زجاج النافذة، يجب أن يكون عمرها خمساً وثلاثين، ستاً وثلاثين سنة، وكان ذلك كافياً لكي يمنح دون جوزيه أجنحة لمخيلته، وماذا إذا كانت هي نفسها المرأة التي أبحث عنها، مستحيل، لا يمكن القول إنها هي، فالحياة ملأى بالأشخاص المجهولين، ولكن لا بد من الإذعان، لا يمكننا أن نمضي متجولين نسأل الناس جميعهم، ما اسمك، ثم نخرج البطاقة من الجيب لنرى إذا ما كان ذلك الشخص هو الذي نريده. بعد محطتين نزلت المرأة، وتوقفت بعد ذلك على الرصيف منتظرة أن تواصل الحافلة طريقها، لا بد أنها تريد قطع الشارع، ولأنها لم تكن تحمل مظلة، فقد تمكن دون جوزيه من رؤية وجهها مواجهة بالرغم من قطرات المطر المتشبثة بزجاج النوافذ، وكانت هناك لحظة، ربما لأن صبرها نفد من تأخر الحافلة في الانطلاق، رفعت فيها رأسها والتقت نظراتهما. وبقيا على تلك الحال إلى أن انطلقت الحافلة، وواصلا ذلك طوال الوقت الذي يستطيعان رؤية كل منهما الآخر، دون جوزيه يلتفت برقبته ويمطها، والمرأة تتابع من الشارع الحركة، وتساءلت هي صدفة، مَن تراه يكون، وأجاب هو بينه وبين نفسه، إنها هي.

لم تكن المسافة بين موقف الحافلة التي يتوجب على دون جوزيه النزول فيه والمحفوظات العامة كبيرة، وهي لفتة من خدمات النقل

Twitter: @ketab_n

جديرة بالثناء، من أجل التسهيل على الأشخاص الذين يحتاجون إلى تسوية معاملاتهم في المحفوظات العامة. ومع ذلك، فقد دخل دون جوزيه إلى بيته مبللاً من رأسه حتى قدميه. خلع سترته على عجل، ونزع بنطاله وجوربيه وحذاءه، وفرك شعره الذي يقطر ماء بمنشفة، وكان يواصل حواره الداخلي بينما هو يفعل كل ذلك. إنها هي، ليست هي، يمكن أن تكون هي، يمكن أن تكون، ولكنها ليست هي، وماذا لو كانت هي، ستعرف ذلك عندما تعثر على صاحبة البطاقة، وإذا كانت هي، سأقول لها بأننا سبق والتقينا، وبأننا رأينا بعضنا في حافلة، لن تتذكر، إذا لم أتأخر طويلاً في العثور عليها، فسوف تتذكر بالتأكيد، ولكنك لا تريد العثور عليها خلال وقت قصير، وربما لا تريد ذلك خلال وقت طويل أيضاً، لأنك لو كنت تريد العثور عليها لبحثت عن اسمها في دليل الهاتف، فمن هناك يتوجب عليك أن تبدأ، لم يخطر لي ذلك، دليل الهاتف موجود هناك في الداخل، ليست لدي رغبة الآن في الدخول إلى المحفوظات، إنك تخاف من الظلام، لستُ أشعر بأي خوف، فأنا أعرف ذلك الظلام مثل راحة يدي، خير لك أن تقول إنك لا تعرف حتى راحة يدك، إذا كان هذا هو رأيك، فدعني على جهلي، فالعصافير أيضاً تفرد ولا تعرف لماذا تفعل ذلك، إنك غنائي، إنني حزين، هذا طبيعي، بهذه الحياة التي تعيشها، تصور أن تكون امرأة الحافلة هي امرأة البطاقة الحقيقية، وتصور أنني لن أعود للقاء بها ثانية، وبأن تلك المرة هي الفرصة الوحيدة، وبأن القدر كان هناك وتركته يمضي، لديك طريقة واحدة فقط لإنقاذ الوضع، وما هي، أن تفعل ما قالته لك مستأجرة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، المرأة العجوز، مزيداً من اللباقة فيما يتلفظ به لسانك، أرجوك، ولكنها عجوز، إنها سيدة متقدمة في السن، دعك من النفاق، فجميعنا لدينا سننا، والمسألة هي فيْ معرفة كم من السن لنا، فإذا كانت قليلة، يكون

Twitter: @ketab_n

المرء شاباً، وإذا كانت كثيرة، يكون عجوزاً، وما سوى ذلك ليس إلا ثرثرة، فلننته من هذا، حسن، فلننته، سانظر في الدليل، هذا ما أقوله لك منذ نصف ساعة. دخل دون جوزيه إلى المحفوظات بالبيجامة والخف، متدثراً ببطانية. كانت تلك الملابس الغريبة تبعث فيه نوعاً من الاستياء، كما لو أن في ذلك إساءة احترام للملفات الموقرة، ذلك النور الأصفر السرمدي الذي يطفو، مثل شمس محتضرة، فوق منضدة المدير. كان دليل الهاتف هناك، على أحد أركان المنضدة، ولم يكن مسموحاً البحث فيه دون إذن، حتى ولو تعلق الأمر بمكالمة رسمية، وها هو ذا دون جوزيه يستطيع الآن، مثلما فعل في السابق، أن يجلس على المقعد، صحيح أنه فعل ذلك مرة واحدة من قبل، في لحظة فريدة بدت له لحظة انتصار ومجد، ولكنه لم يتجرأ على الجلوس الآن، ربما بسبب ملابسه غير اللائقة، وخوفاً من أن يفاجئه أحد وهو بذلك المظهر، ومن ذا الذي يمكنه أن يفاجئه، ما دام لا يمكن لكائن حي، باستثنائه هو، أن يتواجد هناك خارج ساعات الخدمة. فكر في أنه سيكون من الأنسب أن يأخذ الدليل معه، ففي البيت سيشعر بطمأنينة أكبر، دون الحضور المتوعد للخزائن الشاهقة التي تبدو وكأنها تريد أن تتهاوى من أعالي عتمة السقف، هناك حيث تنسج العناكب شباكها وتلتهم طرائدها. ارتعش كما لو أن الشُّباك المغبرة واللزجة تهوي عليه ولولا قليل لارتكب هفوة تناول الدليل دون أن يكون قد احتاط مسبقاً بتقدير دقيق للمسافة التي تفصله، من أعلى ومن الجانبين، عن حواف المنضدة، ومن يذكر الأبعاد سيذكر كذلك الزوايا، هذا إذا لم ينتبه إلى أن الوضع المفضل لانحناءات المدير الهندسية والطوبوغرافية يميل بوضوح إلى الزوايا المستقيمة والخطوط المتوازية. دخل إلى البيت واثقاً من أنه بعد قليل، عندما سيعيد دليل الهاتف إلى مكانه، فإنه سيضعه في موضعه الدقيق بالضبط، دون مليمتر واحد من الانحراف، ولن يكون على المدير أن

Twitter: @ketab_n

يأمر نائبي المدير بالتحقيق حول من الذي استخدم الدليل، وكيف، ومتى، ولماذا. لقد كان ينتظر حتى اللحظة الأخيرة أن يحدث شيء يمنعه من حمل الدليل، همسة، فرقعة مريبة، ضوء مفاجئ يأتي من الأعماق الجنائزية للمحفوظات العامة، ولكن السلام كان مطلقاً، ولم يكن يُسمع حتى صوت فكوك الحشرات الضئيل وهي تنخر الخشب.

الآن يجلس دون جوزيه، والبطانية فوق ظهره، إلى منضدته الخاصة، وأمامه دليل الهاتف، يفتحه من بدايته ويماطل في استعراض تعليمات الاستخدام، والرموز، وقوائم تعرفة المكالمات، كما لو أن هذا هو هدف بحثه. وبعد بضع دقائق، يضطره دافع مفاجئ، لم يفكر فيه، إلى تجاوز الصفحات بسرعة، نحو الأمام، نحو الوراء، إلى أن يتوقف في الصفحة التي يجب أن يكون فيها اسم المرأة المجهولة. إما أنها غير موجودة، وإما أن عينيه تأبيان أن تريا. لا، ليست موجودة. يجب أن تكون بعد هذا الاسم بالضبط وهي غير موجودة. يجب أن تكون قبل هذا الاسم وهي ليست كذلك. هذا ما كنتُ قد قلته، فكر دون جوزيه، ولم يكن صحيحاً أنه قال ذلك يوماً، وإنما هي أساليب لجعل المرء نفسه على حق في مواجهة العالم، للتفريج عن النفس، وفي مثل هذه الحالة، حالة النشوة، كان يمكن لأي محقق شرطة أن يعبر عن معارضته بتوجيه ضربة من قبضته إلى المنضدة، أما دون جوزيه فلم يفعل ذلك، فقد أشهر دون جوزيه ابتسامة التهكم التي يبديها من يرجع، بعد إيفاده للبحث عن شيء يعرف مسبقاً أنه غير موجود، وعلى شفتيه عبارة، لقد قلت لكم ذلك، فإما أنها لا تملك هاتفاً أو أنها لا تريد أن يرد اسمها في الدليل. وقد بلغت سعادته حداً دفعه على الفور، دون إضاعة الوقت في التفكير في الفوائد والمضار، إلى البحث عن اسم والد المرأة المجهولة، وكان هذا موجوداً. لم ترتعش شعرة واحدة في بدنه. بل على العكس، فقد فكر الآن في إحراق كل الجسور وراءه، يجرجره دافع لا

Twitter: @ketab_n

يمكن أن يشعر به إلا الباحثون الحقيقيون، بحث عن اسم الرجل الذي كانت المرأة المجهولة قد طُلقت منه ووجده أيضاً. لو كانت لديه هنا خريطة للمدينة، لاستطاع أن يضع علامات تشير إلى النقاط الخمس الأولى التي تقصاها، اثنتان في الشارع الذي ولدت فيه طفلة الصورة، وأخرى في المدرسة، وهاتان الاثنتان الآن، بداية تصميم مثلما هو تصميم كل الحيوات، مكوّن من خطوط منكسرة، وصلبان، وتقاطعات، ولكن ليس من تفرعات على الإطلاق، لأن الروح لا تذهب إلى أي اتجاه دون قدمي الجسد، والجسد لا يمكنه التحرك إذا ما كان يفتقر لأجنحة الروح. دوّن ملاحظة عن المساكن، ثم سجل ما يتوجب عليه أن يشتريه، خريطة كبيرة للمدينة، قطعة ورق مقوى سميكة بمثل حجم الخريطة لتثبيتها عليها، علبة دبابيس ذات رؤوس ملونة، حمراء لكي تظهر عن بُعد، فالحيوات مثل لوحات الرسم، ومن الأفضل النظر إليها دوماً عن بُعد أربع خطوات، حتى ولو توصلنا في أحد الأيام إلى لمس بشرتها، وشم رائحتها، وتذوق طعمها. كان دون جوزيه مطمئناً، لا يقلقه واقع أنه صار يعرف أين يقطن أبوا المرأة المجهولة وزوجها، وهذا الأخير، يا للفضول، يقطن قريباً من المحفوظات العامة، سيذهب بالطبع عاجلاً أو آجلاً ليطرق بابه، ولكنه لن يفعل ذلك إلا عندما يشعر بأن الوقت قد حان، عندما تتهيأ اللحظة المناسبة. أطبق دليل الهاتف، وأعاده إلى منضدة الرئيس، إلى المكان الدقيق الذي أخذه منه، ورجع إلى البيت. كانت عقارب الساعة تشير إلى موعد العشاء، ولكن لا بد أن انفعالات النهار قد ألهت معدته التي لم تعط ما يشير إلى نفاد صبرها. جلس مجدداً، دثر جسده بالبطانية، وشد أطرافها ليغطي ساقيه وتناول الدفتر الذي كان قد اشتراه من المكتبة. لقد حان الوقت للبدء بتدوين ملاحظات حول تقدم عملية البحث، واللقاءات، والمحادثات، والتأملات، وخطط وتكتيكات تحقيق يبدو أنه سيكون معقداً، وفكر، الخطوات التي

Twitter: @ketab_n

يتبعها أحدٌ في البحث عن أحد، ومع أن العملية كانت في بدايتها في الحقيقة، إلا أنه كان لديه الكثير ليرويه، لو أنها كانت رواية، تمتم بذلك وهو يفتح الدفتر، فإن المحادثة مع سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي وحدها ستكون فصلاً قائماً بذاته. تناول قلم الحبر ليبدأ، ولكن في منتصف الحركة، وجدت عيناه الورقة التي دون عليها العناوين، كان يجول في ذهنه خاطر لم يفكر فيه من قبل، فالاحتمال الأكبر هو أن تكون المرأة المجهولة قد ذهبت، بعد طلاقها، للعيش مع أبويها، والاحتمال الممكن الآخر أن يكون الزوج هو من ترك المنزل، مستبقياً الهاتف باسمه. فإذا كان هذا هو الحال، وباعتبار أن البيت المذكور على مقربة من المحفوظات العامة، فمن يدري إذا لم تكن امرأة الحافلة هي المرأة المجهولة نفسها. وظهرت دلائل على أن الحوار الداخلي سيتجدد، إنها هي، لم تكن هي، بل هي، ليست هي، ولكن دون جوزيه تجاهل ذلك الحوار هذه المرة، وانحنى على الورقة، وبدأ يكتب أول الكلمات، هكذا، دخلتُ المبنى، صعدتُ الدرج إلى الطابق الثاني وأصختُ السمع أمام باب البيت الذي ولدت فيه المرأة المجهولة، وعندئذ سمعتُ بكاء طفل رضيع، ففكرت في أنه قد يكون الابن، وسمعتُ في الوقت نفسه تهديل امرأة، أتكون هي، وعرفت بعد ذلك أنها ليست هي.

Twitter: @ketab_n

على عكس ما يعتقده الناس على الدوام تقريباً، عند النظر إلى الأمور من الخارج، فإن الحياة في المؤسسات الرسمية ليست سهلة في العادة، وخصوصاً في هذه المحفوظات العامة للسجل المدني، التي تركزت فيها إلى أقصى الحدود، منذ أزمنة لا يمكننا القول إن الذاكرة لا ترقى إليها، لأن فيها سجلاً لكل شيء وكل شخص، وبفضل الجهود الدؤوبة لسلسلة متواصلة من المديرين العظماء، كل عظائم وصغائر الوظيفة العامة، تلك التي تجعل من الموظف كائناً معزولاً، منتفعاً وفي الوقت نفسه تابعاً للحيز الجسدي والذهني المحدود بالمدى الذي تبلغه ريشته. وبعبارات بسيطة، وبالتطلع إلى تفهم أكثر دقة للوقائع العامة المقدرة بصورة مجردة في هذه الديباجة، فإن ما لدى دون جوزيه هو مشكلة يجب حلّها. ولمعرفتنا كم كان مُكلفاً له تجاوز الممانعات القانونية للمراتب الوظيفية العليا من أجل تغيب نصف الساعة تلك عن العمل، والتي بفضلها تجنب أن يفاجئه متلبساً بالجرم المشهود زوج السيدة الشابة ساكنة الشقة اليسرى من الطابق الثاني، يمكننا أن نتصور الكروب التي يعانيها الآن، ليلاً ونهاراً، وهو يحاول العثور على مبرر نافع يتيح له أن يطلب، ليس ساعة واحدة، وإنما ساعتين، وليس ساعتين، بل ثلاثاً، ربما ستكون ضرورية لكي ينجز، بالفائدة المرجوة، زيارته إلى المدرسة والتدقيق الذي لا مفر منه في أرشيفها. وسرعان ما تبدت آثار هذا القلق الثابت، المتسلط على عقله، في أخطاء في العمل، وفي عدم الانتباه، وفي إغفاءات نهارية مفاجئة سببها قلة النوم ليلاً، وباختصار،

Twitter: @ketab_n

فإن دون جوزيه الذي كان يحظى حتى الآن بتقدير رؤسائه العديدين باعتباره موظفاً كفؤاً، منهجياً ودؤوباً، بدأ يتحوّل إلى هدف للتنبيهات القاسية، والتحذيرات، ولفت النظر، التي لم تؤد إلا إلى زيادة اضطرابه أكثر فأكثر، دون ذكر أنه، في أثناء ذلك، كان موقناً من أنه سيتلقى الرد السلبي إذا ما وصل به الأمر إلى طلب الإذن المنشودة. وقد بلغ الوضع تلك الحدود التي لم يعد معها من مفر، بعد الدرس والمراجعة المتتالية التي قام بها المأمورون ونائبا المدير، دون التوصل إلى نتائج، سوى رفع الأمر إلى تقدير المدير نفسه الذي لم يتمكن، في اللحظات الأولى، أن يستوعب ما يحدث، لشدة عبثيته. فإهمال موظف لواجباته إلى هذا الحد هو أمر يجعل من المستحيل ظهور أي ميل إلى الرحمة يمكن له أن يبرر قراراً بالتبرئة، وهو أمر يسيء بصورة جدية لتقاليد عمل المحفوظات العامة، أمر لا يمكن أن يبرره إلا الإصابة بمرض خطير. وكان هذا هو السؤال الذي وجهه المدير إلى دون جوزيه عند اقتياد المذنب للمثول في حضرته، هل أنت مريض، لا أظن ذلك يا سيدي، إذا لم تكن مريضاً، فكيف تفسر إذن سوء أدائك للعمل خلال الأيام الأخيرة، لستُ أدري يا سيدي، ربما لأنني أنام بصورة سيئة، هذا يعني أنك مريض، كل ما هنالك إنني أنام بصورة سيئة، إذا كنتَ تنام بصورة سيئة، فهذا يعني أنك مريض، لأن الشخص السليم ينام دوماً بصورة جيدة، اللهم إلا إذا كان هناك ما يُثقل على ضميرك، خطيئة تستحق اللوم، من تلك التي لا يغفرها الضمير، فالضمير أمر مهم جداً، أجل يا سيدي، إذا ما كان قصورك في الخدمة ناجماً عن الأرق وكان الأرق ناجماً عن عذابات الضمير، فلا بد لك إذن من الكشف عن الخطأ الذي ارتكبته. لم أرتكب أي خطأ يا سيدي، مستحيل، فالشخص الوحيد الذي لا يرتكب أي خطأ هنا هو أنا، وما الذي يحدث الآن، لماذا تنظر إلى دليل الهاتف، لقد سهوتُ يا سيدي، هذا مؤشر سيئ، فأنت

Twitter: @ketab_n

تعلم أنه يتوجب عليك أن تنظر إليّ طوال الوقت وأنا أكلمك، وهذا وارد في القواعد الانضباطية، فأنا الوحيد الذي له الحق بأن يشرد بعينيه، أجل يا سيدي، ما هي خطيئتك، لا أعرف يا سيدي، الوضع أشد خطورة في هذه الحالة، فالأخطاء المنسية هي الأسوأ، لقد كنتُ أنجز واجباتي على أكمل وجه على الدوام، المعلومات المتوفرة لدي بشأنك كانت مرضية، ولكن هذا بالتحديد لا يفيد إلا في إثبات أن سوء سلوكك المهني في هذه الأيام ليس نتيجة خطيئة منسية، وإنما خطيئة حديثة العهد، خطيئة حالية، ضميري لا يؤنبني، الضمائر تصمت أكثر مما هو مطلوب منها، ولهذا ابتُدعت القوانين، أجل يا سيدي، يتوجب عليّ أن أتخذ قراراً، أجل يا سيدي، وها أنذا قد اتخذته، حاضر يا سيدي، إنني أعاقبك بحسم يوم، وهل الحسم يا سيدي هو من الراتب فقط أم من الخدمة أيضاً، سأله دون جوزيه وهو يلمح بارقة أمل تضيء. من الراتب، من الراتب، فلا يمكن الإضرار بالعمل أكثر مما فعلته، أضف إلى ذلك أنه لم يمض وقت طويل على منحي لك إذناً بالخروج لنصف ساعة، ولا تقل لي إنك تأمل في أن أكافئ سوء مسلكك بمنحك يوم إجازة كاملاً، لا يا سيدي، واتمنى، من أجل مصلحتك، أن تنفع العقوبة في تقويمك، وأن تعود سريعاً لتكون الموظف المستقيم الذي كنتَهُ من قبل، من أجل مصلحة هذه المحفوظات العامة، حاضر يا سيدي، ليس لدي ما أضيفه، ارجع إلى مكانك.

رجع دون جوزيه إلى حيث أُمر قانطاً، منهار الأعصاب، وموشكاً على البكاء. خلال الدقائق القليلة التي استغرقتها المحادثة الشاقة مع الرئيس، كان العمل قد تراكم على المنضدة، كما لو أن الكتبة الآخرين، زملاءه، قد انتهزوا فرصة الوضع الانضباطي المتدهور الذي وجدوه فيه، وأرادوا، من جانبهم، أن يعاقبوه أيضاً. كما أن عدة مراجعين كانوا ينتظرون دورهم لتلبية طلباتهم. جميعهم كانوا قبالته، ولم يكن ذلك

Twitter: @ketab_n

مصادفة، أو لأنهم فكروا، حين دخلوا إلى المحفوظات العامة، في أن الموظف الغائب هو أكثر لطفاً وترحاباً ممن هم أمام أنظارهم على امتداد منضدة الكونتوار، وإنما لأن أولئك الموظفين أنفسهم أشاروا إليهم بأنه عليهم التوجه إلى هناك. وبما أن الأنظمة الداخلية تشدد على أن خدمة المراجعين يجب أن تولى الأسبقية على العمل المكتبي، فقد توجه دون جوزيه إلى منضدة الكونتوار، وهو يعلم أن وابل الأوراق وراءه سيواصل الهطول على منضدته. كان ضائعاً. فالآن، بعد التحذير الغاضب من المدير وما تلاه من عقاب، لن يستطيع، ولو اختلق العذر بميلاد ابن مستحيل، أو بموت قريب مريب، أن يُخرج من رأسه أي أمل بأن يمنحوه في المدى المنظور إذناً بالخروج قبل انتهاء العمل أو بالمجيء بعد بدء العمل بساعة، أو نصف ساعة، أو حتى دقيقة واحدة. الذاكرة في دار الملفات هذه عنيدة، بطيئة النسيان، بطيئة إلى حد لا تصل معه إلى محو أي شيء بالكامل. فلتقع يا دون جوزيه، من الآن ولمدة عشر سنوات، في لحظة سهو، مهما كانت تافهة، وسترى كيف أن أحدهم سيُذكّرك في الحال بكل تفاصيل هذه الأيام المنحوسة. ربما كان هو ما يعنيه المدير عندما قال إن أسوأ الأخطاء هي تلك التي تبدو منسية ظاهرياً. لقد كانت بقية اليوم بالنسبة إلى دون جوزيه أشبه بتعذيب مؤلم، فهو مثقل بالعمل، ومكدر الفكر. فبينما كان جزء من وعيه يقدم التوضيحات الصائبة لجمهور المراجعين، وهو يملأ ويختم الوثائق، ويؤرشف البطاقات، كان الجزء الآخر، برتابة، يلعن الحظ والمصادفة اللذين حوّلا شيئاً لا يمكن له حتى أن يخطر لمخيلة شخص رصين، متزن الرأس، إلى فضول مرضي. وكان دون جوزيه يفكر، الرئيس على حق، فلا بد أن تكون مصالح المحفوظات فوق أي اعتبار، ولو أنني كنت عاقلاً، طبيعياً، لما كنتُ انهمكت، وأنا في هذه السن، في جمع ممثلين وراقصات ومطارنة ولاعبي كرة قدم، إنها بلاهة، عمل غير مجد، أمر

Twitter: @ketab_n

مضحك، فيا للميراث الجميل الذي سأُخلّفه عند موتي، لحسن الحظ أنه ليس لي ذرية، والسيئ هو أنه ربما كان كل هذا يحدث لي لأنني أعيش دون صحبة، فلو كانت لدي امرأة. وما إن وصل إلى هذه النقطة حتى انقطع تفكيره، ثم اتخذ بعد ذلك سبيلاً آخر، طريقاً ضيقاً، ملتبساً، يمكن رؤية صورة طفلة صغيرة عند مدخله، وفي نهايته، إذا ما كانت له نهاية، الشخصية الواقعية لامرأة سوية، ناضجة، لها من العمر الآن ست وثلاثون سنة، وهي مطلقة، ولماذا أريدها أنا، لماذا، ما الذي سأفعله بها بعد أن أتمكن من العثور عليها. وانقطع التفكير مرة أخرى، وعاد القهقرى بفظاظة فوق الخطوات التي قطعها، وكيف تتصور أنك ستجدها، إذا كانوا لا يسمحون لك بالذهاب للبحث عنها، سأله(تفكيره) ولم يرد هو عليه، فقد كان مشغولاً في هذه اللحظة في إخبار آخر شخص في صف المراجعين بأن وثيقة الوفاة التي طلبها ستكون جاهزة في اليوم التالي.

ومع ذلك، هناك أسئلة لجوجة لا تتراجع، وقد انقضّ عليه أحدها من جديد عندما دخل أخيراً إلى البيت، وهو منهوك الجسد ومستنفد الحماس. ألقى بنفسه على السرير مثل خرقة، يريد أن ينام، أن ينسى وجه الرئيس، العقاب الجائر، ولكن السؤال استلقى إلى جانبه، متسللاً بخفة، لا يمكنك البحث عنها، لن يسمحوا لك بذلك، وكان من المستحيل عليه هذه المرة أن يتظاهر بأنه مشغول بالتحدث إلى جمهرة المراجعين، وحاول مع ذلك إبداء عدم مبالاته، فقال إنه سيجد طريقة ما، وإذا لم يجدها، فسيتخلى عن كل شيء، إلا أن السؤال ألح عليه، إنك تستسلم بسهولة، ولهذا لم يكن هناك ما يستحق عناء أن تعمد إلى تزوير وثيقة التكليف وأن تجبر تلك السيدة البائسة واللطيفة ساكنة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، على أن تروي لك قصة ماضيها الخاطئ، فالدخول إلى البيوت بتلك الطريق، والتدخل في خصوصيات الناس

Twitter: @ketab_n

الحميمة هو تصرف ينم عن إساءة الاحترام. جعلته الإشارة إلى وثيقة التكليف يعتدل جالساً على السرير فجأة بذعر. إنها في جيب سترته، وقد لازمته طوال هذه الأيام الماضية، تصور لو أنها سقطت منه لسبب أو لآخر، أو أنه انهار، في اضطرابه العصبي، فاقداً الوعي، وبينما أحد زملائه يفك أزرار ملابسه لكي يتمكن من التنفس، رأى، دون سوء نية، المغلف الأبيض وعليه دمغة المحفوظات العامة وقال، ما هذا، وبعد ذلك أحد المأمورين، ثم نائب المدير، ثم الرئيس نفسه. ولم يشأ دون جوزيه أن يفكر في ما سيحل به على اثر ذلك، فنهض قافزاً، تناول السترة المعلقة على مسند أحد الكراسي، أخرج وثيقة التكليف، وبينما هو ينظر فيما حوله متلهفاً، تساءل في أية شياطين يمكنه أن يخبئها. لم تكن لديه أي قطعة أثاث مزودة بقفل، وكل ممتلكاته القليلة كانت في متناول يد أي روح فضولية تدخل البيت. عندئذ توقف عند المجموعات المرتبة في الخزانة، هناك يجب أن يكون المخرج من المأزق الصعب. اختار ملف المطران وأدخل فيه المغلف، فلا يمكن لمطران أن يستثير الفضول مهما بلغت سمعته في الورع والتقوى، فهو ليس دراجاً ولا متسابقاً من متسابقي الفورملا واحد (الفئة الأولى). رجع إلى السرير هادئ الروع، ولكن السؤال كان بانتظاره، لم تحقق أي تقدم، فالمشكلة ليست في وثيقة التكليف، ولا فرق في أن تخفيها أو تُظهرها، فليس هذا هو الذي سيوصلك إلى المرأة، لقد قلتُ لكَ إنني سأجد طريقة ما، أنا أشك في ذلك، فقد قيّدك المدير جيداً من قدميك ويديك، ولن يسمح لك بأن تخطو خطوة واحدة، سأنتظر إلى أن تهدأ الأمور، وماذا بعد ذلك، لستُ أدري، ولكن فكرة ما ستخطر لي، بإمكانك أن تحل المسألة الآن بالذات، وكيف ذلك، تتصل هاتفياً بأبويها، وتقول لهما إنك تتكلم باسم المحفوظات، وتطلب منهما أن يعطياك العنوان، هذا ما لا يمكنني أن أفعله، وغداً تذهب إلى بيت المرأة، ولا يمكنني تخيل الحديث الذي

Twitter: @ketab_n

سيدور بينكما، ولكنك ستطمئن على الأقل، ربما لن أكلمها عندما أجدها أمامي، إذا كانت هذه هي الحال، فلماذا تبحث عنها، لماذا تتحرى عن تفاصيل حياتها، إنني أجمع أوراقاً عن المطران أيضاً ولستُ مهتماً بالتحدث إليه يوماً، يبدو لي الأمر ضرباً من العبثية، إنها عبثية، ولكن الوقت قد حان لعمل شيء عبثي في هذه الحياة، أتريد أن تقول لي إنك إذا ما توصلتَ إلى لقاء المرأة، فإنها لن تعلم بأنك كنت تبحث عنها، هذا هو الاحتمال المؤكد، ولماذا، لا يمكنني تفسير ذلك، على كل حال، لن يكون بإمكانك الذهاب إلى مدرسة الطفلة، فالمدارس مثل المحفوظات العامة، تبقى مغلقة في عطلة نهاية الأسبوع، ولكنني أستطيع الدخول إلى المحفوظات في أي وقت أشاء، لا يمكن القول إنها مأثرة حقيقية خارقة، فباب بيتك يؤدي إليها، يبدو أنك لم تذهب هناك قط بنفسك، إنني أذهب حيثما تذهب أنت، وأشهد ما تفعله، يمكنك أن تواصل، سأواصل، ولكنك لن تستطيع دخول المدرسة، سنرى ذلك. نهض دون جوزيه، وكان قد حان موعد تناوله العشاء، إذا كانت تستحق هذه التسمية تلك التوليفات الخفيفة التي اعتاد على تناولها ليلاً. وبينما هو يأكل، كان يفكر، وبعد ذلك غسل الطبق والكأس وأدوات الطعام، والتقط الفتات الذي سقط على الشرشف، وكان يواصل التفكير، ثم فتح الباب المؤدي إلى الشارع، كما لو أن هذه الحركة هي النتيجة المؤكدة لما فكر فيه، قبالته، في الجهة الأخرى من الشارع، كانت هناك كابينة هاتف، على مرمى حجر كما يقال، فعشرون خطوة تمكنه من إمساك طرف الخيط الذي سينقل صوته، والخيط نفسه سيحمل له جواباً، وهناك، سواء من هذا الاتجاه، أو من الاتجاه الآخر، سينتهي البحث، ويمكنه العودة إلى بيته مطمئناً، ويستعيد ثقة رئيسه، وبعد ذلك، سيستعيد العالم مداره المعهود، ليدور على أثره الخاص وغير المرئي، ويستعيد السكينة العميقة لمن ينتظر ببساطة الساعة التي تكتمل

Twitter: @ketab_n

فيها كل الأشياء، إذا ما كان لهذه الكلمات، التي طالما قيلت وتكررت، أي معنى حقيقي. لم يجتز دون جوزيه الشارع، بل ارتدى السترة والمعطف، وخرج.

كان عليه أن يستبدل الحافلة مرتين قبل أن يصل إلى هدفه. كانت المدرسة بناء طويلاً، من طابقين وعُلّيّات ملحقة على السطح، يفصله عن الشارع سور مرتفع. ولا بد أن الحيز الوسيط، وهو عبارة عن شريط من الأرض تنمو فيه أشجار قصيرة متفرقة، كان يُستخدم كباحة لفسحة التلاميذ. لم يكن هناك أي ضوء. نظر دون جوزيه فيما حوله، كان الشارع مقفراً بالرغم من أن الوقت لم يكن متأخراً، وهذا هو الجيد في هذه الأحياء البعيدة عن المركز، وخصوصاً إذا كان الوقت لا يسمح بفتح النوافذ، والجيران ينزوون داخل بيوتهم، إضافة إلى أنه لا يوجد ما يستحق الرؤية في الخارج. مشى دون جوزيه حتى نهاية الشارع، ثم غيّر الرصيف، وهو يأتي الآن ماشياً باتجاه المدرسة، بتمهل، مثل من يروقه الخروج للتمتع بالبرودة الليلية وليس هناك من ينتظره. وعند البوابة، انحنى مثل من اكتشف لتوه أن رباط حذائه مفلت، إنها حيلة قديمة ومستهلكة، لا تنطلي على أحد، ولكنها تُستخدم لعدم وجود أفضل منها عندما لا تُسعف المخيلة بالمزيد. دفع البوابة بمرفقه، فتحركت قليلاً، لم تكن مقفلة بمفتاح. وبصورة منهجية عقد دون جوزيه عقدة أخرى فوق الأولى، ثم نهض واقفاً وضرب قدمه على الأرض ليتأكد من متانة عقدة الرباط، وواصل طريقه، بسرعة أكبر الآن، كما لو أنه تذكر فجأة أن هناك من ينتظره.

عاش دون جوزيه ما تبقى من أيام الأسبوع كما لو أنه يشهد أحلامه الخاصة. لم يلحظوا في المحفوظات اقترافه لأي خطأ، فهو لم يسهُ، ولم يخطئ ويستبدل ورقة بأخرى، وأنجز كميات ضخمة من العمل كانت تدفعه في أوقات أخرى إلى الاحتجاج، بالصمت طبعاً، ضد

Twitter: @ketab_n

المعاملة غير الإنسانية التي يقع الكتبة ضحية لها منذ الأزل، وقد أنجز كل ذلك وتحمله دون كلمة واحدة، ودون تمتمة واحدة. نظر إليه المدير مرتين من بعيد، ونحن نعرف أن ذلك ليس من عادته، فليس من عادته النظر إلى مرؤوسيه، وخصوصاً إذا كانوا من المرتبة الدنيا، ولكن التركيز الروحي لدون جوزيه بلغ حداً من الزخم يستحيل معه عدم الانتباه إليه في أجواء المحفوظات العامة الراكدة على الدوام. ويوم الجمعة، عند انتهاء العمل، ودون أن يستشعر أحد ذلك، خالف المدير كل الأنظمة، وازدرى كل التقاليد، وأذهل جميع الموظفين لدى خروجه، عندما سأل دون جوزيه وهو يمر بجانبه، هل أنت أحسن حالاً. فرد دون جوزيه بنعم، وبأنه أحسن حالاً بكثير، وأنه لم يعد يعرف الأرق، فقال المدير، لقد أثمرت المحادثة بيننا، وبدا عليه أنه سيضيف شيئاً آخر، فكرة ما خطرت له فجأة، ولكنه أطبق فمه وخرج، هذا ما كان ينقصه، فإلغاء عقوبة مفروضة سيكون خرقاً لأنظمة الانضباط. الكتبة الآخرون، والمأمورون وكذلك نائبا المدير نظروا إلى دون جوزيه وكأنهم يرونه لأول مرة، فقد حوّلته كلمات الرئيس القليلة إلى شخص مختلف، مثلما يحدث بهذا القدر أو ذاك، عند أخذ طفل وليد لتعميده، لأنه يكون شخصاً عندما يؤخذ ويصير شخصاً آخر عند إرجاعه. انتهى دون جوزيه من ترتيب المنضدة، ثم انتظر بعد ذلك دوره للخروج، فقد كان من المتوافق عليه أن من يخرج أولاً هو نائب المدير الأقدم، ويليه المأمورون، وبعد ذلك الكتبة، ودائماً حسب الأقدمية، أما نائب المدير الآخر فيتوجب عليه إقفال الباب. وعلى خلاف عادته، لم يقم دون جوزيه بالالتفاف حول المحفوظات العامة ليذهب إلى بيته، وإنما سار باتجاه الشوارع القريبة، ودخل ثلاثة متاجر مختلفة، واشترى حاجة من كل واحد منها، نصف كيلو غرام من شحم الخنزير من أحدها، ومنشفة خشنة من متجر آخر، واشترى شيئاً آخر كذلك، شيئاً ضئيلاً، تتسع له

Twitter: @ketab_n

راحة اليد، وقد خبأه في جيب سترته الخارجي، لأنه لا يحتاج إلى اللف. وبعد ذلك توجه إلى البيت. كان قد انقضى وقت طويل على منتصف الليل عندما خرج. في هذه الساعة كانت الحافلات التي تجوب الشوارع قليلة، ولا تظهر واحدة منها إلا في أوقات متباعدة، ولهذا قرر دون جوزيه، للمرة الثانية منذ أن ظهرت له بطاقة المرأة المجهولة، أن يستقل سيارة أجرة. كان يشعر بنوع من الارتجاج في بواب معدته، كأنه أزيز، كأنه هيجان، ولكن رأسه بقي ساكناً أو أنه، ببساطة، كان عاجزاً عن التفكير. في إحدى اللحظات انكمش دون جوزيه في مقعد سيارة الأجرة وكأنه يشعر بالخوف من أن يُرى، بل حاول أن يتخيل ما الذي يمكن أن يحدث له، والنتائج التي قد تلحق بحياته، إذا ما أخفق في مسعاه الذي يوشك أن يُقدم عليه، ولكن تفكيره اختبأ وراء أحد الجدران، وقال من موقعه ذاك، لن أخرج من هنا، وقد تفهم هو ذلك، لأنه يعرف جيداً أن تفكيره يريد أن يحميه، ليس من الخوف، وإنما من الجُبْن. عندما صار قريباً من هدفه، أمر سيارة الأجرة بالتوقف، سيجتاز المسافة القصيرة المتبقية مشياً على قدميه، كان يضع يديه في جيبيه، ممسكاً، تحت المعطف المزرر، اللفافتين اللتين تضمان الشحم والمنشفة. وفي اللحظة التي كان سينعطف فيها عند الناصية ليدخل إلى الشارع الذي فيه المدرسة، سقطت عليه قطرات مطر متفرقة، ما لبثت أن تحولت بعد ذلك، عندما اقترب من البوابة، إلى وابل كنسَ الشارع بصخب. لقد قيل منذ الأزمنة الكلاسيكية بأن القدر يحمي الجسورين، وقد كانت الوسيلة المكلفة بالحماية في هذه الحالة هي المطر، أو بكلمات أخرى، السماء مباشرة، لأنه إذا ما كان هناك أحد في تلك الأنحاء، في مثل هذه الساعة المتأخرة، فإنه سيكون مشغولاً دون شك بحماية نفسه من الوابل المفاجئ أكثر من اهتمامه بمراقبة الحركات المريبة لشخص يرتدي معطفاً، لا لقد هرب من وابل

Twitter: @ketab_n

المطر بسرعة غير متوقعة بالنسبة إلى عمره الظاهري، فقد كان الآن بالذات هنا وها هو لم يعد موجوداً. كان دون جوزيه محتمياً تحت إحدى أشجار الرصيف، قلبه يخفق بجنون، وهو يتنفس بجزع، مذهولاً من الرشاقة التي تحرك بها، وهو الذي لم يتعدَ، في مسألة التمارين البدنية، حدود تسلق سلم المحفوظات العامة، والله يعلم بأي إرادة يفعل ذلك. صار بمنجى من النظرات في الشارع، وكان يظن أنه بالتنقل الحذر من شجرة إلى شجرة، يمكنه الوصول إلى بوابة المدرسة دون أن ينتبه إليه أحد في الخارج. وكانت لديه قناعة بأنه لا وجود لحراسة في الداخل، أولاً بسبب عدم وجود نور مضاء، سواء في المرة السابقة أو اليوم، ثم لأن المدارس، اللهم إلا لأسباب خاصة واستثنائية، ليست بالأمكنة التي تغري بالسطو عليها. وقد كانت أسبابه خاصة واستثنائية، ولهذا ذهب إلى هناك، مسلحاً بنصف كيلو غرام من الشحم، ومنشفة ومقص زجاج، وهذا هو الشيء الذي لم يكن بحاجة إلى لفه. عليه أن يفكر الآن جيداً في ما سيفعله. الدخول من الجهة الأمامية سيكون تهوراً، إذ يمكن لجار يسكن في أحد الطوابق العليا من الجهة الأخرى للشارع أن يطل ليتأمل المطر الذي يواصل الهطول بغزارة ويرى رجلاً يكسر نافذة المدرسة. هناك أناس كثيرون لا يحركون إصبعاً ليحولوا دون وقوع عمل عنف، بل إنهم يسدلون الستارة ويعودون إلى الفراش قائلين، ما شأننا، ولكن هناك أشخاصاً آخرين إذا كانوا لم يُخَلِّصوا العالم، فإنما لأن العالم لا يريد الخلاص، وهؤلاء يستدعون الشرطة فوراً، ويطلون من الشرفة وهم يصرخون، حرامي، وهذه كلمة قاسية لا يستحقها دون جوزيه، الذي تبدو كلمة مُزَيِّف كثيرة عليه، ولكن هذا أمر نعرفه نحن فقط. التف إلى الجهة الخلفية، ربما كان الأمر أسهل من هناك، هكذا فكر دون جوزيه، وربما كان على حق، فكثيراً ما تكون الجهات الخلفية من المباني سيئة الحماية، وتكون فيها أمتعة قديمة

Twitter: @ketab_n

مكومة، ودلاء تنتظر استخدامها من جديد، وعلب طلاء قديمة، وبعض الطوب المفتت المتبقي من ورشة ترميم، وهذا أفضل ما يتمناه من يسعى إلى ارتجال درج يصعد عليه من أجل بلوغ نافذة، والدخول منها. والواقع أن دون جوزيه وجد بعض هذه الأشياء النافعة، ولكن كل شيء كان مرتباً تحت ظُلّة مائلة ملتصقة بالجدار، ولا بد كما يبدو من التلمس هنا وهناك بحذر، مما يستدعي الكثير من الجهد والوقت من أجل اختيار وإخراج، في الظلام، ما هو مناسب أكثر من سواه للحاجات البنائية للهرم الذي سيصعد عليه، لو أن بالإمكان الصعود إلى السطح، هكذا غمغم، وقد كانت الفكرة من حيث المبدأ رائعة، لأن هناك نافذة تعلو شبرين عن موقع التحام حافة الظُلّة العلوية بالجدار، ولكنه فكر، لن يكون الأمر سهلاً على هذا النحو مع ذلك، فالسقف شديد الميل، ولا بد أن يكون زلقاً جداً مع هذا المطر. أحس دون جوزيه بفقدان الحماس، وهذا ما يحدث لمن ليست لديه خبرة في السطو، من لم يستفد من دروس معلمي التسلق والتسلل، بل لم يخطر له أن يستطلع المكان مسبقاً، وكان بإمكانه أن يستغل ذلك اليوم الذي تأكد فيه من أن البوابة ليست مقفلة بمفتاح، ولكنه أحس في تلك المناسبة بأن الحظ قد حالفه كثيراً وفضل ألا يتمادى. كان يضع في جيبه المصباح اليدوي الصغير الذي يستخدمه في المحفوظات العامة ليضيء البطاقات، ولكنه لم يشأ أن يشعله هنا، فوجود كتلة في العتمة، تكاد لا تلفت الانتباه، هو شيء، وشيء آخر مختلف جداً، وأسوأ بكثير، هو حزمة ضوء تتحرك وتشي بنفسها، انظروا، إنني هنا. وبينما هو محتمٍ تحت الظُلّة، كان يسمع المطر يقرع صفيح السقف بلا كلل، دون أن يدري ماذا عليه أن يفعل. كانت هناك في هذا الجانب أيضاً أشجار أكثر طولاً وتشابكاً من أشجار الجهة الأمامية، ولو كان ثمة بنايات مخبأة وراءها فلن يكون بإمكانه رؤيتها من موقعه، وبالتالي، لا يمكن لهم هم أيضاً أن

Twitter: @ketab_n

يرونني، هكذا فكر دون جوزيه، وبعد أن تردد لحظة، أشعل المصباح وحركه من جانب إلى آخر، في حركة سريعة. لم يكن مخطئاً، فمستودع المدرسة المبني من حدائد قديمة كان مُعداً ومكيفاً ببعد نظر، وكأن أجزاءه قطعُ آليةٍ متداخلة. أعاد إشعال المصباح، ووجه بؤرة الضوء هذه المرة نحو الأعلى. كان هناك سلّم مطروح فوق الأمتعة، ومفلت عما سواه، كقطعة تُستخدم بين حين وآخر. وسواء بسبب هذا الاكتشاف غير المتوقع، أو بسبب ذكرى مفاجئة ولاإرادية لأعالي المحفوظات العامة، بدا في عيني دون جوزيه شيء، طريقة في التعبير معهودة تُغني عن استخدام كلمة دوار التي تتردد على أفواه العامة الذين لم يولدوا من أجل هذا. لم يكن السلّم طويلاً بحيث يصل إلى النافذة، ولكنه يكفي للصعود إلى سطح الظُلّة، ومن هناك، فليحدث ما يشاؤه الرب.

ولذكر اسمه، قرر الرب أن يساعد دون جوزيه في هذه اللحظة الحرجة، وهو ليس بالحدث الاستثنائي إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأعداد الهائلة من لصوص السطو على البيوت الذين حالفهم الحظ، مذ صارت الدنيا دنيا، في العودة من عمليات سطوهم، ليس محملين بالغنائم وحسب، وإنما سليمي الأجساد كذلك، أي بكلمة أخرى، دون تعرضهم لعقاب إلهي. وقد شاءت العناية الإلهية أن تكون الألواح الإسمنتية المجعدة التي تشكل سقف الظُلّة، فضلاً عن خشونتها عند تصنيعها، ذات حواف بارزة في نهايتها السفلية، ويبدو أن مصممها، غير المتيقظ، في المصنع، لم يستطع مقاومة جاذبيتها التزيينية. وبفضل تلك النتوءات، وعلى الرغم من شدة ميلان السطح، بوضع قدم هنا، ويد هناك، وبالتأوه، والتنهد، والكشط بأظفاره، وخدش مقدمة حذائه، تمكن دون جوزيه من الزحف إلى أعلى. لم يعد عليه الآن سوى الدخول. حسن، لقد حان الوقت لأن نقول إن دون جوزيه قد استخدم،

Twitter: @ketab_n

في شؤون التسلق والخلع، أساليب غير معاصرة على الإطلاق، حتى لا نقول إنها أساليب قديمة، بل ومغرقة في القِدم. فقد قرأ في وقت سابق، وهو لا يذكر متى ولا في أي كتاب أو ورقة، بأن شحم الخنزير ومنشفة خشنة هما من اللوازم الاضطرارية لمن يريد قص الزجاج، حين يكون ما يرمي إليه هو الدخول من نافذة بنوايا خبيثة، وقد تزود بهذه الوسائل غير المعهودة، فضلاً عن تسلحه بثقة عمياء. كان بإمكانه، دون ريب، لكي يختصر الوقت، أن يوجه لكمة بسيطة إلى الزجاج، ولكنه خشي، حين خطط للاقتحام، أن ينبه الدوي، الذي سيتلو الضربة حتماً، الجيران، ومع أن دوي الطبيعة العاصف سيخفف من المخاطرة، فقد فضل أن يتقيد بانضباطية المنهج بصرامة. وهكذا، بينما هو يسند قدميه إلى الحافة الناتئة التي وفرتها له العناية الإلهية، ويثبت ركبتيه على خشونة ألواح السقف، بدأ دون جوزيه بقص الزجاج بالماسة عند مستوى إطار النافذة. وبعد ذلك، وهو يلهث من الجهد والوضع غير المريح الذي هو فيه، مسح الزجاج بمنديله كيفما اتفق، كي لا يضر بقدرة الشحم المنشودة في الالتصاق، أو بما تبقى من الشحم، ذلك أن الجهود العنيفة التي أقدم عليها ليتسلق السطح المائل حوّلت لفافة الشحم إلى عجينة لزجة وعديمة الشكل، مع النتائج التي يمكن تصورها في ما يتعلق بهندام ملابسه الذي جاء به. ومع ذلك، فقد استطاع أن يوزع على الزجاج طبقة من الشحم لا بأس بسماكتها، ثم ألصق فوقها، بأقصى ما يمكن من عناية، المنشفة التي تمكن، بعد ألف حركة متلوية، من إخراجها من جيب معطفه. صار عليه الآن أن يحسب بدقة متناهية قوة الضربة، التي يجب ألا تكون ضعيفة جداً فيضطر إلى تكرارها، ولا قوية جداً بحيث تُفسد التصاق فتات الزجاج بالمنشفة. وبينما هو يضغط الجزء العلوي من المنشفة إلى إطار النافذة بيده اليسرى كي لا تنزلق، أطبق دون جوزيه قبضته اليمنى، ودفع ذراعه إلى الوراء ووجه

Twitter: @ketab_n

ضربة حاسمة جاءت لحسن الحظ صماء، ومخنوقة، مثل طلقة من سلاح مزود بكاتم للصوت. لقد أنجز ذلك من الضربة الأولى، وهذه مأثرة باهرة بالنسبة إلى متدرب. سقطت شظية أو اثنتان، فقط، من فتات الزجاج إلى الداخل، ولكن لا أهمية لذلك، فليس هناك أحد في الداخل. بقي دون جوزيه لعدة ثوانٍ، بالرغم من المطر، مستلقياً على السطح، كي يستعيد قواه ويتلذذ بالنصر. وبعد ذلك، استوى بجسده، وأدخل ذراعه من الفتحة، بحث عن مزلاج النافذة ووجده. رباه، كم هي قاسية حياة لصوص المنازل، فتح النافذة على مصراعيها، ثم تمسك بالحافة، وبمساعدة مغمومة من قدميه اللتين لم تعودا تجدان نقاط ارتكاز، تمكن من دفع جسده إلى أعلى، ومن رفع إحدى ساقيه، ثم الأخرى، لكي ينتهي إلى السقوط في الجانب الآخر، بخفة، مثل ورقة أفلتت من الشجرة.

Twitter: @ketab_n

احترام حقيقة الوقائع والواجب الأخلاقي البسيط في عدم المساس بمصداقية من استعد لتقبل مفاجآت ذلك البحث الفريد على أنها عقلانية ومترابطة، تستدعي التوضيح الفوري بأن دون جوزيه لم يسقط بنعومة من حافة النافذة، مثل ورقة أفلتت من غصن. بل على العكس، فما حدث هو أنه سقط بخذلان، مثلما تسقط الشجرة بأكملها، في الوقت الذي كان فيه من السهل عليه الانزلاق شيئاً فشيئاً من موقعه المؤقت إلى أن تلمس قدماه الأرض. لقد أثبتت له السقطة، بسبب قسوة الارتطام وبسبب تواصل الملامسة المؤلمة، وحتى قبل أن تتمكن عيناه من تأكيد ذلك، بأن المكان الذي هو فيه كان أشبه بامتداد للظُلّة الخارجية، أو أنه على الأرجح جانبها الداخلي، فالمكانان كلاهما مخصص للأمتعة المهملة، ولكن هذا المكان أولاً، وبعد أن لم يعد يتسع، شيدوا الآخر الخارجي. بقي دون جوزيه جالساً بضع دقائق ينتظر انتظام تنفسه وتوقف ارتعاش ذراعيه وساقيه. وبعد فترة الانتظار تلك، أشعل المصباح اليدوي، محاذراً ألا يضيء سوى الأرض التي أمامه، ورأى أن هناك، بين الأثاث المتراكم بين هذا الجانب وذاك، ممراً تُرك فارغاً يؤدي إلى الباب. راوده القلق حين فكر في أنه قد يكون مقفلاً بمفتاح، وسيكون عليه في هذه الحالة أن يخلعه دون امتلاك الأدوات المناسبة، مع ما سيتبع ذلك من ضجة لا مفر منها. كان المطر يواصل الهطول في الخارج، ولا بد أن الجيران قد ناموا، ولكن لا يمكننا الثقة كثيراً بذلك، فهناك أشخاص نومهم خفيف إلى حدٍّ يمكن معه لطنين

Twitter: @ketab_n

بعوضة أن يوقظهم، وهم ينهضون بعد ذلك، ويذهبون إلى المطبخ ليشربوا كأس ماء، وينظرون مصادفة إلى الخارج ويرون ثقباً أسود مستطيلاً في جدار المدرسة، وربما يعلقون، يا لقلة انتباه القائمين على المدرسة، فهم يتركون النافذة مفتوحة في مثل هذا الطقس، أو أنهم يفكرون، تلك النافذة، إذا لم تخني الذاكرة، كانت مغلقة، ولا بد أن قوة الريح هي التي فتحتها، ولن يفكر أحد في إمكانية أن يكون هناك لص في الداخل، أضف إلى ذلك أنهم سيكونون مخطئين تماماً، لأن دون جوزيه، وأُذكّر بذلك مرة أخرى، لم يأت إلى هنا ليسرق. لقد خطر له الآن بالذات أنه يتوجب عليه إغلاق النافذة لكي لا يسمعوا في الخارج صوت الخلع، ولكنه متشكك، وهو يتساءل عما إذا لم يكن من الأفضل تركها على حالها، سيظنون أن الريح هي السبب أو إهمال أحد المستخدمين، أما إذا أغلقها فسوف يُلاحظ فوراً كسر الزجاج، خصوصاً وأن زجاج النافذة غير شفاف، وأقرب إلى البياض. ولثقته بأن بقية العالم تستخدم ما لديها من الروح بطريقة استنتاجية كطريقته، قرر دون جوزيه أن يترك النافذة مفتوحة وراح يزحف بعد ذلك بين قطع الأثاث حتى بلغ الباب. لم يكن مقفلاً بالمفتاح. تنفس الصعداء، فلن تكون ثمة عقبات بعد الآن. إنه بحاجة لمقعد مريح، ومن الأفضل أن تكون أريكة، لكي يستريح خلال ما تبقى من الليل، بل يمكنه أن ينام أيضاً إذا ما أتاحت له أعصابه ذلك. وكان، مثل لاعب شطرنج مجرّب، قد حسب المشاكل ودرسها، والواقع أنه ليس من الصعب، حين يكون المرء متأكداً من الأسباب الموضوعية المباشرة، التقدم بصورة تنقيبية عبر مروحة المؤثرات المحتملة والممكنة وتحوّلها إلى أسباب، فكل شيء يتولد من توالي مؤثرات فأسباب فمؤثرات، وأسباب فمؤثرات فأسباب، إلى ما لا نهاية، ولكننا نعرف أن حالة دون جوزيه لن تصل بعيداً. وربما سيبدو للحذرين حماقة أن يحشر الكاتب

Twitter: @ketab_n

العمومي نفسه في فم الذئب، وهو الآن، كما لو أن الجسارة التي أقدم عليها صغيرة، يريد أن ينام باطمئنان خلال ما تبقى من الليل وكل نهار الغد، مع المجازفة بأن يفاجئه متلبساً في الجريمة شخص أكثر قدرة على الاستدلال منه في مسألة النوافذ المفتوحة. ولا بد من الاعتراف مع ذلك بأن ما هو أكثر حماقة من ذلك، التنقل من قاعة إلى أخرى وإشعال الأنوار فيها. فالجمع بين النافذة المفتوحة والنور المضاء، عندما يكون معروفاً أن مستخدمي البيت أو المدرسة الشرعيين غائبون، هي عملية ذهنية في متناول أي شخص مهما كان قليل التشكك، وهو سيلجأ عموماً إلى استدعاء الشرطة.

كان دون جوزيه يشعر بالآلام في كل أنحاء جسده، لا بد أن ركبتيه مجرحتان، وربما هما تنزفان، لأن الإزعاج الذي تسببه له ملامسة البنطال لا تعني شيئاً آخر، أضف إلى ذلك أنه كان مبللاً ومتسخاً من رأسه حتى قدميه. خلع المعطف الذي كان يقطر، وفكر، لو كان ثمة ركن داخلي معزول هنا، لاستطعت إشعال النور، ولوجدت غرفة حمام، غرفة حمام حيث يمكنني أن أغسل يدي على الأقل. وبينما هو يتلمس الطريق، يفتح الأبواب ويغلقها، وجد ما كان يبحث عنه، أولاً ركن صغير بلا نوافذ، فيه خزائن ذات رفوف تُحفظ فيها مواد مدرسية ومكتبية، أقلام رصاص، دفاتر، أوراق، أقلام حبر، ممحايات، زجاجات حبر، مساطر، مثلثات، زوايا قائمة، علب رسوم، أنابيب صمغ، علب مشابك، ولم يتمكن من رؤية أكثر من ذلك. وعلى النور المضاء، تمكن أخيراً من تفحص الأضرار التي أحدثتها المغامرة. لم تكن جراح ركبتيه بالسوء الذي توقعه، فالخدوش سطحية، وإن كانت مؤلمة. عندما يطلع ضوء النهار، ولا يكون مضطراً إلى إشعال الأنوار، سيبحث عما هو موجود في كل المدارس، خزانة الإسعافات الأولية البيضاء، المعقم، ماء الأكسجين، القطن، الضماد، نسيج الكمادات، لصاقات الجروح، مع أنه

Twitter: @ketab_n

لن يكون بحاجة إلى كل ذلك. ولكن هذه الوسائل الدوائية لن تساعده بشأن المعطف، فداؤه هو القذارة، إنه شحم الخنزير الذي تشرب في القماش، وفكر دون جوزيه، ربما سأتمكن من إزالة البقع الكبيرة بالكحول. ثم بحث بعد ذلك عن دورة مياه، وقد حالفه الحظ، لم يكن بحاجة إلى المشي كثيراً للعثور على واحدة منها، ولا بد أنها دورة المياه التي يستخدمها الأساتذة، نظراً إلى ترتيبها ونظافتها. وكان لنافذتها، التي تطل كذلك على الجهة الخلفية من المدرسة، إضافة إلى زجاجها غير الشفاف، وهو يحتاج إليه هنا أكثر مما في حجرة المهملات التي دخل منها، مصاريع إضافية من الخشب، مما أتاح لدون جوزيه أن يشعل النور أخيراً ويغتسل وهو يرى ما يفعله. وبعد ذلك، حين استعاد قواه وصار نظيفاً إلى حد ما، بحث عن مكان ينام فيه. ومع أنه في الأزمنة التي كان فيها طالباً لم يمر في مدرسة مثل هذه، بهذا الجهاز وهذه الأبعاد، فقد كان يعرف بأن لكل مدرسة مديراً، وأن لكل مدير مكتباً، وأن كل مكتب توجد فيه أريكة، وهذا هو بالضبط ما يطلبه جسده الآن. واصل فتح الأبواب وإغلاقها، نظر داخل القاعات التي يمنحها الضوء الخارجي الخافت مظهراً شبحياً، حيث تبدو مقاعد التلاميذ أشبه بجثوات ترابية متراصفة، وحيث منضدة المعلم أشبه بمذبح قرابين قاتم، والسبورة السوداء كأنها المكان الذي تدون عليه حسابات الجميع. وكانت تتدلى على الجدران، مثل البقع الغامضة التي يخلفها الزمن على بشرة المخلوقات والأشياء، خرائط للقبة السماوية، والعالم، والبلدان، ومخططات سوائل وتضاريس الجسد البشري، أقنية الدم، الانتقال الهضمي، تناسق العضلات، اتصال الأعصاب، هيكل العظام، كير الرئتين، متاهة الدماغ، بِلاط العين، اختلاط الأعضاء التناسلية. وكانت قاعات الدرس تتوالى على امتداد الممرات التي تدور مخترقة المدرسة، وتنتشر في كل مكان رائحة الطباشير، وهي رائحة

Twitter: @ketab_n

قديمة كرائحة الأجساد تقريباً، هناك من يقول إن الرب حين أراد أن يعجن الطين الذي قرر أن يصنع منه الرجل والمرأة، بدأ برسمهما بقطعة طباشير على سطح الليلة الأولى، ومن هنا جاءنا اليقين الوحيد المؤكد بأننا كنا وما زلنا وسنكون تراباً، وأننا في ليلة عميقة مثل تلك سوف نفقد أنفسنا. لقد كان الظلام كثيفاً، وتاماً، في بعض الأماكن، كما لو أنهم قد غطوها بأقمشة سوداء، بينما كانت تطفو في أماكن أخرى انعكاسات متذبذبة كما في بركة ماء، إضاءة فسفورية مائلة إلى الزرقة لا يمكن لها أن تكون آتية من مصابيح الشارع، أو أنها، إذا كانت آتية منها، تتحوّل لدى اختراقها الزجاج. فتذكر دون جوزيه الضوء الأبدي الشاحب المتدلي فوق منضدة المدير، والذي تحيط به الظلمة وتبدو أنها على وشك أن تفترسه، ففمفم: المحفوظات العامة مختلفة، ثم أضاف، وكأنه بحاجة إلى الرد على نفسه، ربما كلما تعاظم الاختلاف، تعاظم التماثل، وكلما تعاظم التماثل، تعاظم الاختلاف، ولم يكن قد توصل في تلك اللحظة بعد إلى معرفة إلى أي حد يمكن للعقل أن يسعفه.

لم يكن في هذا الطابق سوى قاعات، لا بد أن يكون مكتب المدير في الطابق العلوي، بعيداً عن الأصوات، عن الصخب المزعج، عن ازدحام الدخول إلى الدروس والخروج منها. كانت هناك كوة في أعلى درج الصعود إلى الطابق العلوي، ومع الارتقاء يتم الصعود تدريجياً من العتمة إلى النور، وهو ما لا يحتمل، في هذه الظروف، معنى آخر سوى التمكن من رؤية موطئ قدميه. وشاءت مصادفة البحث الجديد أن يدخل دون جوزيه، قبل أن يعثر على مكتب المدير، إلى سكرتارية المدرسة، وهي قاعة ذات ثلاث نوافذ تطل على الشارع. الأثاث فيها من النوع المألوف في مثل هذه الأماكن، فهناك بضع طاولات، وعدد مماثل من الكراسي، وخزائن، وملفات، وأدراج بطاقات، وقد طفر قلب دون

Twitter: @ketab_n

جوزيه حين رآها، فهذا هو ما يبحث عنه، بطاقات، ونشرات، وسجلات، ودرجات، وتاريخ المرأة المجهولة وأوضاعها التعليمية في مرحلة طفولتها ومراهقتها، على افتراض أنه لم تكن هناك مدارس أخرى في حياتها بعد هذه المدرسة. فتح دون جوزيه أحد أدراج خزانة البطاقات دون تعيين، ولكن الضوء الآتي من الشارع لم يكن كافياً لكي يدرك ما هو نوع المعلومات التي تتضمنها البطاقات. لدي متسع من الوقت، هكذا فكر دون جوزيه، وما أنا بحاجة إليه الآن هو النوم. خرج من السكرتارية وبعد بابين من ذلك وجد أخيراً مكتب المدير. إذا ما قورن المكتب بتقشف المحفوظات العامة، فلن تكون ثمة مبالغة في الحديث عن الرفاهية هنا. فالأرضية مغطاة بالموكيت، وتوجد على النافذة ستائر من قماش سميك، وهي مسدلة الآن، والمنضدة الفسيحة ذات طراز قديم، والمقعد من جلد أسود، وحديث، وكل هذا عرفه دون جوزيه لأنه عندما فتح الباب ووجد نفسه في ظلام دامس، لم يتردد في إشعال المصباح اليدوي أولاً، ثم مصباح السقف بعد ذلك مباشرة. فحين صار داخلاً، لم يرَ أي ضوء من الخارج، وبالتالي لا يمكن لأحد في الخارج أن يرى الضوء في الداخل أيضاً. كان مقعد المدير مريحاً، يمكنه أن ينام عليه، ولكن الأفضل منه بكثير هي الأريكة الطويلة والعريضة ذات الثلاثة مواضع التي بدت وكأنها تفتح له ذراعيها بحنان، لكي تحتضنه وتُريح جسده المنهوك. نظر دون جوزيه إلى الساعة، ما زالت هناك بضع دقائق لتبلغ الثالثة. وحين رأى أن الوقت قد تأخر، ولم يكن قد انتبه إلى مروره، أحس بغتة بالتعب الشديد، وفكر: لم أعد قادراً على تحمل المزيد، ودون أن يتمكن من كبح نفسه، وبفعل الإنهاك العصبي، بدأ بالنحيب، ثم صار بكاء منفلتاً، أشبه بالنشيج، فهو يقف هناك، كما لو أنه عاد ليكون مجدداً، في مدرسة أخرى، ذلك الصبي في أحد الصفوف الأولى الذي اقترف مشاغبة واستدعاه المدير ليتلقى

Twitter: @ketab_n

العقاب الذي يستحقه. ألقى بالمعطف المبلل على الأرض، أخرج المنديل من جيب بنطاله ورفعه إلى عينيه، ولكن المنديل كان مبتلاً مثل كل شيء، فكل شخصه، من رأسه إلى قدميه، وقد لاحظ ذلك الآن، كان كمن ينز ماء، كما لو أنه كله ليس سوى ممسحة مفتولة تُعصر، جسده متسخ، روحه موجوعة، وكلاهما تعس. ما الذي أفعله هنا، تساءل، ولكنه لم يشأ الرد، فقد خشي أن يبدو له السبب الذي قاده إلى هذا المكان، إذا كشف عنه بهذه الصورة المجردة، سخفاً، وتفاهة، وعملاً مجنوناً. هزته قشعريرة مفاجئة، لقد أُصبتُ بالزكام، قال ذلك بصوت عال، بعد أن عطس مرتين، وبعد ذلك، بينما هو ينف أنفه، وجد نفسه يتذكر، عبر درب نزوي لتفكير يمضي حيث يشاء دون تقديم أي تفسير، أولئك الممثلين السينمائيين الذين يسقطون في الماء دوماً وهم بملابسهم أو يظهرون وهم يقطرون تحت وابل من المطر، ولا يصابون قط بنزلة صدرية ولا حتى بمجرد الرشح، مثلما يحدث كل يوم في الحياة الواقعية، وما يفعلونه، في أقصى الحالات، هو التدثر ببطانية فوق ملابسهم المبتلة، وهي فكرة ستكون في منتهى الحماقة إذا نحن لم نعرف بأن التصوير يتوقف لكي يُؤخذ الممثل إلى قمرة، فيستحم في حمام دافئ ويرتدي البرنس الذي يحمل الحروف الأولى من اسمه. بدأ دون جوزيه بخلع حذائه، ثم خلع بعد ذلك السترة والقميص، وخلع بنطاله وعلقه على شماعة قائمة في أحد الأركان، ولم يعد ينقصه الآن إلا أن يتمكن من أن يتدثر ببطانية الفيلم، وهي إكسسوار يصعب العثور عليه في مكتب مدير المدرسة، اللهم إلا إذا كان المدير شخصاً متقدماً في السن، من أولئك الذين تبرد أقدامهم عندما يجلسون لوقت طويل. روح دون جوزيه الاستدلالية قادته، مرة أخرى، إلى النتيجة الصائبة، فقد كانت البطانية مطوية بعناية فوق مسند المقعد. لم تكن كبيرة، وهي لا تكفي لأن تدثره بالكامل، ولكنها أفضل من أن يمضي الليل بجسد

Twitter: @ketab_n

بجسد عارٍ. أطفأ دون جوزيه نور السقف، واسترشد بالمصباح اليدوي، وتمدد، وهو يتنهد، على الأريكة، ثم انكمش على نفسه بعد ذلك بحيث يلتحف بكامله تحت البطانية. كان ما يزال يرتعش، فالملابس الداخلية التي ما زالت على جسده رطبة، ربما كان التعرق هو السبب، الجهد المبذول، لأنه لا يمكن للمطر أن يكون قد تغلغل إلى ذلك الحد. جلس على الأريكة، تخلص من القميص والسروال الداخليين، خلع جوربيه، ثم التحف بالبطانية وكأنه يريد أن يجعل منها جلداً ثانياً له، وبينما هو ملتف على نفسه مثل دودة قز، غرق في ظلمة المكتب، آملاً أن يأتيه القليل من رحمة الدفء لتنقله إلى رحمة النوم. تأخر أولهما، وتأخر الآخر، يبعدهما خاطر لم يشأ مفارقة رأسه، وماذا إذا ما جاء أحدهم ووجدني في هذه الحال، وكان يقصد عارياً، سيستدعى له الشرطة، ويضعون القيد في معصميه، سيسألونه عن اسمه، عن سنه، عن مهنته، وسيأتي مدير المدرسة أولاً ثم يأتي رئيس المحفوظات العامة بعد ذلك، وسينظران إليه بإدانة قاسية، ما الذي تفعله هنا، سيسألانه، ولن يجد صوتاً للرد عليهما، لا يمكنه أن يوضح لهما بأنه يبحث عن امرأة مجهولة، فمن المؤكد أنهما سينفجران في الضحك، وسيعودان إلى سؤاله، ماذا تفعل هنا، ولن يتوقفوا عن السؤال إلى أن يعترف بكل شيء، والدليل على ذلك أنهما واصلا ترديد السؤال في أثناء الحلم عندما تمكن دون جوزيه، أخيراً، مع قدوم الصباح، من هجر الأرق المنهك، أو عندما هجره الأرق.

استيقظ متأخراً، وكان يحلم بأنه في مستودع المهملات مرة أخرى، وبأن المطر يهطل عليه بدوي شلال، وأن المرأة المجهولة، في وضعية ممثلة سينمائية من مجموعته، تجلس على حافة النافذة وبطانية المدير مطوية في حضنها، تنتظر أن ينتهي من الصعود وهي تقول له في الوقت نفسه، كان من الأفضل أن تطرق الباب الرئيسي،

Twitter: @ketab_n

وقد رد على ذلك وهو يلهث، لم أكن أعرف أنك هنا، فتقول هي، إنني موجودة دوماً، لا أخرج مطلقاً، وتبدو بعد ذلك كما لو أنها تنحني لتساعده على الصعود، ولكنها اختفت فجأة، واختفت معها الظُلّة كذلك، ولم يبق سوى المطر، يهطل، يهطل دون توقف على مقعد رئيس المحفوظات العامة، حيث رأى دون جوزيه نفسه جالساً. كان رأسه يؤلمه قليلاً ولكن الرشح لم يتفاقم كما يبدو. كانت تتسلل من خلال قماش الستائر صفيحة رقيقة جداً من ضوء ضارب إلى الرمادي، هذا يعني أن الستائر، على عكس ما اعتقده، لم تكن مسدلة بالكامل. وفكر، لا بد أن أحداً لم يتنبه إلى ذلك، وقد كان على حق، فضوء النجوم مبهر إلى أقصى الحدود، ولكن معظمه لا يضيع في الفضاء وحسب، وإنما يمكن كذلك لغمامة بسيطة أن تحجب عن عيوننا ما يتبقى من ذلك الضوء. ويمكن لجار في الجهة المقابلة، إذا ما نظر من النافذة ليرى حالة الجو، أن يفكر في أن ذلك الخيط المضيء الذي ينوس بين قطرات المطر المنزلقة على الزجاج، ليس إلا وميضاً من المطر نفسه. وبينما هو يتدثر بالبطانية، أزاح دون جوزيه الستارة قليلاً، فقد جاء دوره ليعرف كيف هي حالة الجو. لم يكن المطر يهطل في تلك اللحظة، ولكن السماء بدت مغطاة كلها بغيمة واحدة قاتمة، وشديدة الانخفاض إلى حد تبدو معه وكأنها تلامس الأسطح، مثل بلاطة هائلة. ففكر، هذا أفضل، فكلما قل تواجد الناس في الشارع، يكون أفضل. ذهب ليجس الثياب التي خلعها ويرى إذا ما كانت في حالة يمكن معها لبسها. كان القميص، والقميص والسروال الداخليان، والجوربان قد جفت إلى حد مقبول، والبنطال بدرجة أقل، أما السترة والمعطف، فيحتاجان لساعات طويلة ليجفا. ارتدى كل شيء باستثناء البنطال، ليتجنب احتكاك النسيج المتيبس من الرطوبة بركبتيه المخدشتين، ومضى بحثاً عن حجرة الإسعاف. لا بد لها، منطقياً، من أن تكون في الطابق السفلي،

Twitter: @ketab_n

على مقربة من قاعة الرياضة والحوادث تختص بها، بجوار الباحة، حيث يُخمد التلاميذ، في الفسحة بين الدروس، طاقتهم وضجرهم وجزعهم من الدراسة، في ألعاب على هذه الدرجة أو تلك من العنف. وقد أصاب في تقديره. بعد أن غسل جراحه بماء الأكسجين، وضع عليها معقماً له رائحة اليود وضمدها بعناية وبمبالغة كبيرة في استخدام الضمادات واللصاقات حتى بدا وكأنه يضع لركبتيه واقيتين من الصدمات. ولكنه كان قادراً مع ذلك على ثني مفصلي ركبتيه بما يكفي للمشي، ارتدى بنطاله وأحس أنه رجل آخر، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله ينسى التوعك الذي يعم جسده البائس. وفكر، لا بد أن يكون هنا شيء مضاد لهذا الرشح وألم الرأس، وبعد ذلك بقليل، وكان قد وجد ما يحتاج إليه، ابتلع قرصي دواء استقرا في معدته. لم يعد بحاجة إلى اتخاذ الاحتياطات كي لا يُرى من الخارج، لأن زجاج نافذة غرفة الإسعاف، مثلما هو متوقع، لم يكن شفافاً أيضاً، إنما عليه أن يتوخى الحذر منذ الآن في كل تحركاته، فلا شيء من السهو، تجنب الابتعاد عن وسط القاعات، والتنقل منحنياً عند اضطراره إلى الاقتراب من إحدى النوافذ، والتصرف، باختصار، كما لو أنه لم يمارس في حياته شيئاً آخر سوى عمليات السطو على البيوت. ذكَّرته حرقة مفاجئة في المعدة بالخطأ الذي ارتكبه حين ابتلع قرصي الدواء دون أن يرفقهما بقليل من الطعام، ولو مجرد قطعة صغيرة من البسكويت، حسن، وأين يوجد بسكويت هنا، تساءل وهو يدرك أن لديه الآن مشكلة جديدة عليه أن يجد حلاً لها، إنها مشكلة الطعام، خصوصاً وأنه لن يستطيع الخروج من المبنى قبل حلول الليل، وحدد، الليل المطبق. ومع أن المعني، مثلما نعرف، هو شخص قنوع في مسائل الغذاء، إلا أنه عليه أن يهدئ شهيته ريثما يعود إلى البيت، ومع ذلك فقد رد دون جوزيه على حاجته تلك بهذه الكلمات المتقشفة، يوم واحد لن يكون أياماً، ولا

Twitter: @ketab_n

أحد يموت من قضاء بضع ساعات دون طعام. خرج من غرفة الإسعاف، وبالرغم من أن مكتب السكرتارية، حيث عليه القيام ببحثه، كان في الطابق الثاني، إلا أنه قرر، لمحض الفضول، القيام بجولة في منشآت الطابق الأرضي. وجد على الفور قاعة التمارين الرياضية، وما فيها من خزائن الملابس، وأجهزة تمارين الظهر وغيرها، العارضة الثابتة، العقلة، حصان الوثب، لوح القفز، الحشايا، في مدارس أزمنته لم تكن تُشاهد مثل هذه الأدوات الرياضية المتقنة، وما كان ليرغب فيها لنفسه، على ما كان عليه آنذاك وما يزال عليه اليوم، وهو يطلقون عليه عموماً تسمية ضعف البنية. كانت حرقة معدته تزداد حدة، وراحت تصعد إلى فمه موجة حموضة لذعت حنجرته، ليت القرصين ينفعان على الأقل في التخفيف من ألم رأسه، ومن الرشح، من المحتمل أنني محموم، فكر في ذلك وهو يفتح باباً آخر. كانت تلك، ولتتبارك روح الفضول، قاعة الطعام. عندئذ نمت لأفكار دون جوزيه أجنحة، وسارعت متعجلة وراء الطعام، ما دامت هناك قاعة طعام، فلا بد من وجود مطبخ، وإذا كان ثمة مطبخ، ولم يحتج إلى متابعة التفكير، فها هو ذا المطبخ، بمواقده، وقدوره، وقلاياته، وبأطباقه وكؤوسه، بخزائنه وثلاجته الضخمة. وإليها توجه، فتحها على مصراعيها، وظهرت الأطعمة تتألق مشعة، فليتبارك مرة أخرى إله الفضوليين، وأيضاً إله لصوص السطو الذي لا يقل جدارة عن ذاك في بعض الأحيان. بعد ربع ساعة من ذلك، كان دون جوزيه قد تحول نهائياً إلى رجل آخر، متماسك الجسد والروح، ملابسه ناشفة تقريباً، ركبتاه متعافيتان، ومعدته تعمل مشغولة بشيء مغذٍ ومقيم للأود أكثر من قرصين مرّين مضادين للرشح. سيعود في موعد الغداء إلى هذا المطبخ، إلى هذه الثلاجة الإنسانية، أما الآن فعليه البحث في أدراج بطاقات السكرتارية، عليه أن يتقدم خطوة أخرى، وسيعرف إذا ما كانت خطوة

Twitter: @ketab_n

طويلة، أم قصيرة، من خلال التحري عن ظروف حياة المرأة المجهولة التي كانت تجلس، قبل ثلاثين سنة، وهي طفلة ذات عينين جديتين وناصية شعر تتهدل فوق حاجبيها، على ذلك المقعد لتأكل وجبتها من الخبز والسفرجل، ربما وهي حزينة، ربما لإحساسها بالذنب للطخة الحبر التي سقطت على الورقة، وربما سعيدة لأن عرابتها وعدتها بدمية.

كان العنوان المدون على الدُّرج واضحاً: **أسماء التلاميذ وفق الترتيب الأبجدي**، وكانت هناك أدراج أخرى عليها كتابات مختلفة: تلاميذ الصف الأول، تلاميذ الثاني، تلاميذ الثالث، وهكذا على التوالي حتى السنة المدرسية الأخيرة. قدرت روح دون جوزيه المهنية عالياً ذلك النظام في التصنيف، المنظم بطريقة تُسهل الوصول إلى بطاقات التلاميذ عبر سبيلين يلتقيان ويتكاملان، أحدهما عام، والآخر خاص. وكان هناك درج منفصل يتضمن بطاقات الأساتذة، وفق ما يمكن قراءته في الكتابة التي تدل على محتواه: الأساتذة. وما إن رآه حتى تحركت، على الفور، في روح دون جوزيه، مسننات آليته الاستنتاجية الفعالة، وفكر، أجل، من المنطقي توقع أن يكون الأساتذة الذين في الدرج هم من يمارسون عملهم حالياً، وبالتالي فإن بطاقات التلاميذ، بمقتضى تناسق توثيقي محض، تعني برواد المدرسة الحاليين، فضلاً عن أنه يمكن لأي شخص أن يرى أن بطاقات التلاميذ خلال ثلاثين سنة دراسية، حتى في أدنى التقديرات، لا يمكن مطلقاً أن تستوعبها نصف دزينة الأدراج هذه، مهما كان كرتون البطاقات المستخدمة رقيقاً. ودون التعلق بأية آمال، وإنما لمجرد تهدئة ضميره، فتح دون جوزيه الدرج الذي يجب، وفق الترتيب الأبجدي، أن تتواجد فيه بطاقة المرأة المجهولة. فلم تكن موجودة. أغلق الدرج، نظر في ما حوله، وفكر، لا بد أن يكون هناك أرشيف بطاقات آخر للتلاميذ القدماء، من المستحيل أن

Twitter: @ketab_n

يتلفوها بعد أن ينهي التلاميذ سنواتهم المدرسية، لأن ذلك سيكون انتهاكاً لأدنى قواعد التوثيق. إذا ما كان مثل هذا الأرشيف موجوداً، فلن يكون مكانه هنا، وبعصبية، وبالرغم من إدراكه عدم جدوى البحث، فتح الخزائن وأدراج الطاولات. لا شيء. بدأ رأسه، وكأنه لم يستطع تحمل الإحباط، يؤلمه أكثر فأكثر. تساءل، وماذا الآن يا جوزيه، وردَّ، الآن إلى البحث. خرج من السكرتارية، نظر إلى أحد جانبي الممر الطويل ثم إلى الجانب الآخر. لا وجود هنا لقاعات دروس، وبالتالي فإن تقسيمات هذا الطابق يجب أن تضم، إضافة إلى مكتب المدير، استخدامات أخرى، واحدة منها، مثلما تبين له على الفور، هي قاعة الأساتذة، وحجرة أخرى تستخدم كمخزن لما يبدو أنه مواد مدرسية خارج الاستخدام، بينما تضم الحجرتان الأخريان شيئاً، مرتباً في صناديق على رفوف الخزائن الكبيرة، وله كل المظهر الذي يوحي بأنه الأرشيف التاريخي للمدرسة. تهللت أسارير دون جوزيه، ولكن، وهذه هي ميزة، أو نكبة، من يملك تجربة في مهنته، من وجهة نظر الأمل الذي ضاع للتو، إذ أن بضع دقائق كانت كافية ليتأكد من أنه لن يجد ضالته هناك أيضاً، فقد كان الأرشيف من النوع البيروقراطي المحض، فهناك الرسائل الواردة، ونسخ عن الرسائل الصادرة، وهناك إحصاءات، وجداول الدوام، ورسوم بيانية للقدرات الاستيعابية التعليمية، ومجلدات تشريعات. أعاد البحث مرة، مرتين، دون جدوى. خرج يائساً إلى الممر، كل هذا الجهد الكبير مقابل لا شيء، قال ذلك، ثم أجبر نفسه، مرة أخرى، على الانصياع للمنطق، مستحيل، لا بد لتلك البطاقات اللعينة من أن تكون في مكان ما، فما دام هؤلاء الناس لم يتلفوا مراسلات مضت عليها كل هذه السنوات، وهي مراسلات لم تعد تنفع في شيء، فلا يمكن لهم أن يكونوا قد أتلفوا بطاقات التلاميذ، وهي وثائق في غاية الأهمية للسير الحياتية، ولست أستغرب

Twitter: @ketab_n

أن يكون بعض من تشملهم مجموعتي قد مروا في هذه المدرسة. ولو كان دون جوزيه في ظروف أخرى، فربما فكر في أنه سيكون من المشوق، مثلما خطرت له فكرة إغناء قصاصاته بنسخ من شهادات الميلاد، أن يضيف الوثائق المتعلقة بدرجة ومستوى قدرات مشهوريه المدرسية. وهذا على أي حال لن يكون أكثر من حلم يستحيل تحقيقه. فالحصول على وثائق الميلاد المتوفرة على بُعد شبر منه، في المحفوظات العامة، هو شيء، وشيء آخر مختلف تماماً المضي في جنبات المدينة للسطو على المدارس لمجرد معرفة إذا ما كان فلان قد حصل على خمس درجات أم ثمان في رياضيات السنة الرابعة، وإذا كان فلان عديم الانضباط حقاً مثلما التباهي في مقابلاته الصحفية. وإذا كان سيعاني في الدخول إلى كل مدرسة مثل ما عانى في هذه، فمن الخير له أن يبقى قابعاً في ركود بيته، قانعاً بالاكتفاء بأن يعرف من العالم تلك الأشياء التي يمكن ليديه أن تصلا إليها دون الخروج، أي الكلمات، والصور، والأوهام.

دخل دون جوزيه ثانية إلى الأرشيف وهو مصمم على حسم الأمر نهائياً، قال: إذا كان المنطق ما يزال سائداً في هذا العالم فلا بد للبطاقات من أن تكون هنا. راح يفتش رفوف القسم الأول، صندوقاً بعد آخر، وكومة فكومة، وكأنه يمر عليها بمشط ناعم، وهذه طريقة في التعبير ترجع أصولها دون ريب إلى الزمن الذي كان الناس فيه مضطرين إلى تسريح شعورهم بالمشط المذكور، والذي يسمى أيضاً مشط الصئبان، لأنه قادر على التقاط ما يمكن أن يفلت من المشط العادي، ولكن المحاولة كانت غير مجدية مرة أخرى، فليس هناك بطاقات. بلى، إنها موجودة، أجل، محشورة بإهمال في صندوق كبير، ولكنها بطاقات السنوات الخمس الأخيرة فقط. وبينما هو مقتنع الآن بأن البطاقات الأخرى قد أُتلفت أخيراً، مُزقت، أُلقيت في القمامة،

Twitter: @ketab_n

هذا إذا لم تكن قد أُحرقت، وبعد أن فقد الأمل، دخل دون جوزيه إلى القسم الثاني بلامبالاة من يقتصر على إنجاز واجب غير مجدٍ. ومع ذلك، فإن عينيه أشفقتا عليه، مع أن الفعل غير مناسب على الإطلاق في هذا المقام، ولكنه مهما حاول لن يجد تفسيراً لواقع أن يُوضع أمامه، مباشرة، ذلك الباب الضيق ما بين خزانتين، كما لو أن عينيه تعرفان، منذ البدء، أنه هناك. ظن دون جوزيه أنه قد وصل إلى نهاية أعماله، إلى تتويج جهوده، معترفاً، في الحقيقة، بأن حدوث عكس ذلك سيكون قسوة غير مقبولة من القدر، ولا بد أن يكون ثمة مبرر لدى الشعب حين يُلح في التأكيد، بالرغم من معاكسات الحياة، على أن سوء الحظ ليس هو وحده ما يختبئ وراء الباب، فوراء هذا الباب، على الأقل، وكما في الحكايات القديمة، يجب أن يكون ثمة كنز، حتى وإن كان الوصول إليه يتطلب مصارعة التنين. وهذا التنين ليس له أشداق تقطر لعاب الغضب، ولا يقذف الدخان والنار من منخريه، ولا يطلق زمجرات كأنها الهزات الأرضية، إنه بكل بساطة ظلمة تقبع منتظرة بسكون، ظلمة كثيفة وصامتة مثل قاع البحر، هناك أشخاص مشهورون بأنهم شجعان لا يتجرؤون على المرور من هنا، بل إن بعضهم يهربون على الفور، مذعورين، يتملكهم الخوف من أن يُنشب ذلك المخلوق الدنس مخالبه في حلوقهم. ومع أنه ليس بالشخص الذي يمكن أن يشار إليه كنموذج أو قدوة في الشجاعة، إلا أن دون جوزيه، بعد سنوات عمله المتراكمة في المحفوظات العامة، اكتسب معرفة بالليل، بالظل، بالظلام، بالعتمة، انتهت به إلى التعويض عن حياته الطبيعي، وهي تتيح له الآن، دون خوف مفرط، أن يمد ذراعه عبر جسد التنين بحثاً عن مفتاح الضوء الكهربائي. وجده، أداره، ولكن لم يشتعل أي نور. جرجر قدميه لكي لا يتعثر، وتقدم قليلاً إلى أن اصطدم كاحل رجله اليمنى بحافة قاسية. انحنى ليتلمس ذلك العائق، وفي الوقت الذي عرف فيه

Twitter: @ketab_n

أنها درجة معدنية، أحس بحجم المصباح اليدوي في جيبه، هذا المصباح الذي كان قد نسيه وسط كل تلك الانفعالات المتناقضة. وجد أمامه سلّماً حلزونياً يصعد باتجاه ظلمة أشد كثافة من تلك التي عند عتبة الباب وقد ابتلعت بؤرة ضوء المصباح قبل أن تتمكن من كشف الطريق إلى أعلى. لم يكن للسلّم درابزين، وهو بالضبط ما لا يناسب شخصاً يعاني الدوار، فعند الدرجة الخامسة، إذا قيض له الوصول إليها، سيفقد دون جوزيه إحساسه بالارتفاع الحقيقي الذي هو فيه ويسقط مغمياً عليه، وسيسقط. لم يحدث الأمر على هذا النحو. لقد تحول دون جوزيه إلى شخص مضحك، ولكن لا أهمية لذلك، فهو وحده من يعرف مدى عبثية وعقم ما يفعله، ولا يمكن لأحد أن يراه وهو يزحف صاعداً السلم مثل حرذون لم يستيقظ بعد تماماً من بياته الشتوي. كان يتشبث جزعاً بالدرجات، واحدة بعد أخرى، وجسده يحاول أن يجاري الانحناء الحلزوني الذي يبدو أنه لن ينتهي أبداً، بينما ركبتاه تتعذبان مرة أخرى. عندما لمست يدا دون جوزيه، أخيراً، أرضية السقيفة الملساء، كانت قوى جسده قد خسرت المعركة منذ زمن ضد الروح المذعورة، ولهذا لم يستطع النهوض فوراً، فبقي ممدداً، هكذا، على بطنه، قميصه ووجهه يقبعان على الغبار الذي يغطي الأرضية، وساقاه تتدليان على درجات السلّم، يا للعذاب الذي يتوجب أن يعانيه أولئك الذين يخرجون من طمأنينة بيوتهم ليحشروا أنفسهم في مغامرات مجنونة.

بعد بضع دقائق، وكان ما يزال مطروحاً على بطنه، لأنه لم يكن عديم التعقل بحيث يرتكب عملاً متهوراً بالوقوف على قدميه وسط الظلام، مع ما ينطوي عليه ذلك من مجازفة أن تزل به قدمه ويسقط موهناً في الهوة التي جاء منها. تلوى دون جوزيه بجسده، بمشقة، وتمكن مرة أخرى من إخراج المصباح اليدوي من جيب بنطاله الخلفي.

Twitter: @ketab_n

أضاءه ومرّ بالنور على الأرضية التي أمامه. كانت هناك أوراق مبعثرة، صناديق كرتونية، بعضها ممزقة، وأخرى مغطاة بالغبار. وعلى بُعد بضعة أمتار ميّز ما بدا له قوائم كرسي. رفع ضوء المصباح قليلاً، وكان كرسياً بالفعل. بدا في حالة جيدة، سواء مقعده أو مسنده، وفوقه، يتدلى من السقف الواطئ، مصباح دون كمة، ففكر دون جوزيه، مثل مصباح المحفوظات العامة. وجه بؤرة الضوء نحو الجدران المحيطة، فظهرت له كتل خزائن متهرية ذات رفوف تلف المقصورة كلها. لم تكن رفوفاً عالية، ولا يمكن لها أن تكون كذلك بسبب ميلان السقف، وكانت محملة بفائض من الصناديق وبأكوام من التقارير الورقية. أين عساه يكون مفتاح النور، تساءل دون جوزيه، وجاءه الجواب الذي كان يتوقعه، إنه في الأسفل وهو معطل، بهذا المصباح اليدوي وحده لا أظن أنه سيكون بالإمكان العثور على البطاقات، فضلاً عن أن قلبي يحدثني بأن بطاريته في الرمق الأخير، كان عليك أن تفكر في ذلك من قبل، ربما يكونون قد وضعوا مفتاحاً آخر للنور هنا، حتى وإن كان الأمر كذلك، فقد رأينا أن المصباح نفسه معطوب، لسنا نعرف ذلك، لو لم يكن معطوباً لأضيء، الشيء الوحيد الذي نعرفه هو أننا أدرنا المفتاح ولم يضاء النور، هذا يعني أنه معطوب، ويمكن له أن يعني شيئاً آخر، ماذا، أنه لا وجود لمصباح في الأسفل، إنني ما أزال على حق إذن، فهذا المصباح الذي هنا معطوب، ليس هناك ما يؤكد لنا عدم وجود مفتاحين ومصباحين، مصباح على السلّم وآخر في السقيفة، المصباح الذي في الأسفل معطوب، أما الذي في الأعلى فما زلنا لا نعرف وضعه، بما أنك قادر على استنتاج ذلك، فاكتشف إذن مفتاح هذا المصباح. ترك دون جوزيه الوضع غير المريح الذي ما يزال فيه وجلس على الأرض. سأخرج من هنا بثياب في حالة مزرية، فكر في ذلك، ووجه ضوء المصباح إلى أقرب الجدران من فتحة السلم، إذا كان موجوداً، فلا بد

Twitter: @ketab_n

أن يكون هنا. واكتشفه في اللحظة التي كان يقترب فيها من التوصل إلى النتيجة المحبطة لهمته بأن مفتاح النور الوحيد هو الذي في الأسفل. فعندما وضع يده الطليقة مصادفة على الأرض لكي يستند بصورة أفضل، اشتمل ضوء السقف، فالمفتاح، وهو من تلك المفاتيح ذات الأزرار، كان مثبتاً على الأرضية بحيث يكون على الفور في متناول من يصعد السلم. لم يكن ضوء المصباح اليدوي الأصفر يكاد يصل إلى الجدار الذي في العمق، ولم تكن تظهر على الأرضية آثار أقدام. وبتذكره التواريخ التي رآها في الأسفل، قال دون جوزيه بصوت عالٍ، منذ ست سنوات على الأقل لم يدخل أحد إلى هنا. وعندما تلاشى الصوت، لاحظ دون جوزيه أن صمتاً عميقاً قد خيم على السقيفة، كما لو أن الصمت السابق يضم في جنباته صمتاً أكبر، لا بد أنها حشرات الخشب وقد أوقفت نشاطها في الحتّ. كانت تتدلى من السقف شِباك عنكبوت مسودّة من الغبار، ولا بد أن أصحابها قد ماتوا منذ زمن بعيد لانعدام الأكل، إذ لا وجود هنا لما يمكن أن يجتذب ذبابة تائهة، خصوصاً وأن الباب السفلي مغلق، وأما عث الورق واللواحس ومثلها سوس عوارض السقف، فلم يكن لديها أي مبرر للانتقال إلى العالم الخارجي متخلية عن أروقة السيليلوز التي تعيش فيها. نهض دون جوزيه، وحاول عبثاً أن ينفض الغبار عن قميصه وبنطاله، كان وجهه يبدو كوجه مهرج غريب الأطوار بتلك البقعة الكبيرة التي تغطي جانباً واحداً فقط من الوجه. جلس على الكرسي، تحت المصباح، وبدأ يحدث نفسه: فلنفكر في تعقل، قال، فنحكّم العقل، إذا ما كانت البطاقات هنا، وكل شيء يشير إلى أنها كذلك، فمن غير المحتمل العثور على بطاقات كل تلميذ منفصلة على حدة، أي أن تكون بطاقات كل تلميذ مجتمعة كلها معاً بحيث يمكن متابعة كامل مسيرته المدرسية في نظرة واحدة، والاحتمال المؤكد هو أن السكرتارية، لدى انتهاء كل سنة

Twitter: @ketab_n

دراسية، تصنع حزمة من كل بطاقات تلك السنة وتكدسها هنا، ولا أظن حتى أنهم يزعجون أنفسهم في حفظها في صناديق، أو ربما يفعلون ذلك، ولسوف نرى، وآمل، إذا كان الأمر كذلك، أن يكونوا قد سجلوا عليها من الخارج السنة التي تنتمي إليها، وسواء أكان الأمر على هذا النحو أم ذاك، فلن يكون سوى مسألة وقت وصبر. لم تضف النتيجة شيئاً مهماً إلى المقدمات، فدون جوزيه يعلم، منذ بداية حياته، بأنه لا يحتاج إلا إلى وقت لكي يستخدم الصبر، وهو يأمل منذ البداية ألا يفتقر الصبر إلى الوقت. نهض واقفاً، ولوفائه لقاعدة أنه من الأفضل، في كل عمليات البحث، البدء دوماً من أحد الأطراف ثم التقدم بمنهجية وانضباط، فقد انقض على العمل من أقصى أحد صفوف الخزائن ذات الرفوف، مصمماً على ألا يترك ورقة فوق ورقة دون التأكد مما إذا لم تكن هناك، بين العلوية والسفلية، ورقة أخرى مخبأة. فتحُ صندوق، أو فكُّ إحدى الرزم، أو أي حركة أخرى يقوم بها كانت تثير سحابة من الغبار، إلى حد أنه اضطر، كي لا يختنق، إلى ربط المنديل فوق أنفه وفمه، وهو أسلوب وقائي يتوجب على الكتبة اتباعه كلما دخلوا أرشيف الموتى في المحفوظات العامة. وخلال دقائق قليلة صارت يداه سوداوين، وفقد المنديل بقع البياض القليلة المتبقية فيه، لقد تحول دون جوزيه إلى عامل في منجم فحم يأمل بالعثور في أعماق المنجم على الفحم النقي لقطعة من الماس.

ظهرت البطاقة الأولى بعد نصف ساعة من البحث. وكانت الطفلة في هذه البطاقة قد تخلت عن تسريح شعرها بترك خصلة منه تتهدل على جبهتها، ولكن العينين، في هذه الصورة الملتقطة لها وهي في الخامسة عشرة، تحتفظان بملمح التوازن المؤلم نفسه. وضعها دون جوزيه بعناية على الكرسي وواصل البحث. كان يعمل بنوع من الحلم، مدققاً، محموماً، ومن بين أصابعه يفر العث مذعوراً من النور، وشيئاً

Twitter: @ketab_n

فشيئاً، كما لو أنه ينبش بقايا قبر، راح الغبار الناعم يخترق ملابسه ويعلق ببشرته. في البدء، عندما تظهر له حزمة من البطاقات، كان يمضي على الفور إلى ما يعنيه، ولكنه بدأ بعد ذلك يتمهل متمعناً في الأسماء، في الصور، لا لشيء إلا لأنه هناك، ولأن أحداً لن يعود إلى دخول هذه السقيفة لينفض الغبار الذي يغطي مئات، بل آلاف وجوه الفتيان والفتيات الذين ينظرون مواجهة إلى العدسة الشيئية، إلى الجانب الآخر للعالم، بانتظار ما لا يعلمونه. الحال في المحفوظات العامة ليس على هذا النحو، ففي المحفوظات العامة لا توجد إلا الكلمات، في المحفوظات العامة لا يمكن رؤية كيف تغيرت الوجوه أو كيف هي آخذة بالتغير، في حين أن هذا هو بالضبط الأمر الأكثر أهمية، ما يبدله الزمن، وليس الاسم الذي لا يتبدل مطلقاً. عندما بثت معدة دون جوزيه إشاراتها، كانت قد اجتمعت على الكرسي سبع بطاقات، اثنتان منها عليهما الصورة نفسها، لا بد أن أم الطفلة قالت لها، خذي صورة السنة الماضية هذه، فلست بحاجة للذهاب إلى المصور، وأخذت هي الصورة، يغمرها الحزن لأنها لم تحصل هذه السنة على صورة جديدة. وقبل أن ينزل دون جوزيه إلى المطبخ، دخل إلى حمام المدير ليغسل يديه، ووقف مذهولاً عندما رأى نفسه في المرآة، لم يكن يتصور بأن يكون وجهه بتلك الحال، متسخاً، تخدده مسايل العرق، وفكر، لا أبدو أنني أنا، وربما لم أكن كذلك إلى هذا الحد من قبل قط. عندما انتهى من تناول الطعام، صعد إلى السقيفة مسرعاً بالقدر الذي تتيحه له ركبتاه، فقد خطر له أنه إذا ما انقطع النور، وهو احتمال يجب أخذه في الحسبان مع هذه الأمطار، فلن يستطيع إنهاء بحثه. إذا افترضنا أنها لم ترسب في أي سنة دراسية، فإن عليه أن يجد خمس بطاقات أخرى فقط، وإذا ما انقطع الضوء وبقي في الظلام، فإن جهوده، جزئياً، ستضيع هباء، لأنه لن يستطيع الدخول ثانية إلى

Twitter: @ketab_n

المدرسة. وبينما هو مستغرق في العمل، نسي ألم الرأس، والرشح، ولكنه كان في حالة أسوأ الآن. نزل ثانية ليتناول قرصي دواء آخرين، ثم صعد مجرجراً قواه الواهنة، وعاد إلى العمل. كان المساء يقترب من نهايته عندما وجد البطاقة الأخيرة. أطفأ ضوء السقيفة، وأغلق الباب، ومثل مُنَوَّم، لبس السترة والمعطف، ومسح بأفضل ما يستطيع آثار أقدامه وجلس ينتظر حلول الليل.

Twitter: @ketab_n

في صباح اليوم التالي، وما إن بدأ النشاط يدب في المحفوظات العامة، واتخذ الموظفون أماكنهم، حتى فتح دون جوزيه الباب الموصل بين بيته والمحفوظات بصورة موارية، وقال بست بست ليلفت انتباه أقرب زملائه الكتبة إليه. أدار الرجل رأسه ورأى وجهاً محتقناً ذا عينين زائغتين، ماذا تريد، سأله بصوت خافت كي لا يعكر سير العمل، ولكنه أبرز في كلماته نبرة مؤنبة ساخرة، كما لو أن فضيحة التغيب لم تأت إلا لتعطي الحق لمن كان التأخر قد فضحه، فقال دون جوزيه، إنني مريض، ولا يمكنني المجيء إلى العمل. نهض الزميل متضايقاً، ومشى ثلاث خطوات باتجاه مأمور قسمه، وأعلمه، عذراً يا سيدي، الكاتب دون جوزيه هناك يقول إنه مريض. نهض المأمور بدوره، ومشى أربع خطوات باتجاه نائب المدير المختص وأعلمه بالأمر، عذراً يا سيدي، الكاتب دون جوزيه هناك يقول إنه مريض. وقبل أن يسير الخطوات الخمس التي تفصله عن طاولة المدير، اقترب نائب المدير ليتحرى طبيعة المرض، سأله، مم تشكو، فردّ دون جوزيه، لدي زكام، لم يكن الزكام سبباً للتغيب عن العمل قط، إنني محموم، وكيف عرفتَ أنك محموم، استخدمتُ ميزان الحرارة، بضعة أعشار الدرجة فوق الحرارة الطبيعية، لا يا سيدي، لدي تسع وثلاثون درجة، حالة رشح عادية لا ترفع درجة الحرارة إلى هذا الحد، قد أكون مصاباً بالانفلونزا، أو ربما بالتهاب رئوي، لا تكن نذير شؤم، إنني أعرض احتمالاً وحسب، ولستُ أتنبأ بأي شؤم، اعذرني، فقد كانت مجرد كلمة تقال، وكيف وصلتَ إلى

Twitter: @ketab_n

هذه الحال، أظن أن السبب هو المطر الذي انهمر عليّ، هذه عاقبة التصرفات الطائشة، معك حق، الأمراض الناجمة عن أسباب لا علاقة لها بالعمل لا تؤخذ في الاعتبار، لم تكن إصابتي في أثناء قيامي بعملي في الواقع، سأذهب لأطلع الرئيس على الأمر، أجل يا سيدي، لا تغلق الباب، فقد يرغب في توجيه بعض التعليمات إليك، حاضر يا سيدي. لم يوجه الرئيس أية تعليمات، واكتفى بالنظر من فوق رؤوس الموظفين المنحنية والإيماء بإشارة مقتضبة من يده، وكأنه يزدري المسألة لتفاهتها أو كأنه يؤجل الاهتمام الذي سيوليها إياه إلى ما بعد، ولم يكن بمقدور دون جوزيه، من تلك المسافة، أن يميز الفرق، هذا إذا افترضنا أن عينيه الدامعتين والملتهبتين قد تمكنتا من رؤية الإيماءة. ويُفترض على أي حال، أن يكون دون جوزيه قد أصيب بالذعر من تلك النظرة، ودون أن يدري ما يفعل، فتح الباب أكثر قليلاً مما كان عليه، مُظهراً جسده بالكامل في المحفوظات العامة، كان يرتدي روباً عتيقاً فوق بيجامته، وقدماه محشورتان في خف بيتي، ويبدو بالمظهر الذاوي لمن يعاني من زكام فظيع، أو انفلونزا خبيثة، أو نزلة رئوية قاتلة، ومن يدري، فكثيرة هي المرات التي انتهى بها نسيم لطيف إلى إعصار مدمر. عاد نائب المدير ليقول له إن الطبيب الرسمي سيزوره اليوم أو غداً ليفحصه، ولكنه بعد ذلك، ويا للروعة، نطق بكلمات لم يسعد بسماعها يوماً أي موظف صغير، هو أو سواه، في المحفوظات العامة، الرئيس يتمنى لك الشفاء، وبدا على نائب المدير نفسه أنه لا يصدق ما يقوله. أما دون جوزيه المذهول، فقد وجد ما يكفي من الجلد لينظر باتجاه المدير، لكي يشكره على لفتته غير المتوقعة، ولكن المدير كان يحني رأسه، وكأنه منهمك في العمل، مع أن ذلك، ونحن نعرف تقاليد العمل في المحفوظات العامة، أمر أكثر من مشكوك فيه. أغلق دون جوزيه الباب ببطء، وبينما هو يرتجف من الانفعال والحمى، اندس في

Twitter: @ketab_n

السرير.

لم يكن قد تلقى ذلك المطر الذي انهمر عليه وهو فوق الظُلّة، يجاهد للدخول إلى المدرسة، وحسب. لأن المسكين لم يكن يتصور ما الذي ينتظره حين خرج أخيراً، بعد حلول الليل، من النافذة ووصل إلى الشارع. لقد كان بانتظاره ما هو أقسى مما عاناه في التسلق، فقبل كل شيء، كان الغبار المتراكم في أرشيف السقيفة قد خلّفه في حالة من القذارة، من رأسه حتى قدميه، يستحيل وصفها، فوجهه وشعره يغطيهما السواد، ويداه مثل فرشاتين مسودتين، ولا حاجة إلى التحدث عن الملابس، فالمعطف المتضمخ بالشحم تحول إلى أسمال، والبنطال كما لو أنه ممرغ بالقطران، والقميص يبدو وكأنه قد استُخدم في تنظيف مدخنة تراكم سناجها منذ قرون، بحيث يمكن لأي متسول، حتى ولو كان يعيش في أقصى حالات العوز، أن يخرج إلى الشارع بمظهر أكثر لياقة. وبعد أن ابتعد دون جوزيه عن المدرسة مجتازاً شارعين، وكان المطر في أثناء ذلك قد انقطع، استوقف سيارة أجرة ليعود إلى البيت، وحدث عندئذ ما لا بد من حدوثه، فحين رأى السائق تلك الهيئة السوداء تبرز له فجأة من أعماق الظلام، أصيب بالذعر واندفع مسرعاً بسيارته. ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة، فثلاث سيارات أجرة أخرى، أشار لها دون جوزيه بعد ذلك، توارت مسرعة عند المنعطف وكأن شيطاناً يلاحقها. فلم يجد دون جوزيه بداً من الاستسلام والعودة إلى البيت ماشياً، لأنه لم يعد يجرؤ الآن على الصعود إلى حافلة، الصبر، سيكون إنهاكاً آخر يضاف إلى هذا الذي يكاد لا يسمح له بجرجرة قدميه، ولكن الأسوأ هو أن المطر ما لبث أن عاود الهطول بعد قليل، ولم يتوقف طوال الطريق اللانهائي، شوارع، ساحات، جادات، عبر مدينة بدت وكأنها مقفرة، وذلك الرجل يقطر، دون أن تكون معه ولو مظلة تقيه من المطر الغزير، ويمكن فهم السبب، فليس هناك من يأخذ

Twitter: @ketab_n

معه مظلة وهو ذاهب إلى عملية اقتحام، فالأمر مثل الحرب، كان بإمكانه الاحتماء عند أحد الأبواب وانتظار توقف المطر، ولكن ذلك لم يعد يستحق العناء، إذ ليس بالإمكان أن يبتل أكثر مما هو عليه. عندما وصل دون جوزيه إلى البيت، كان الجزء الوحيد الجاف إلى حد معقول من ملابسه هو جيب سترته، الجيب الداخلي الأيسر. حيث خبأ البطاقات المدرسية للطفلة المجهولة، وكان يضع يده اليمنى فوقها طوال الوقت، ليحميها من المطر، ويمكن لمن يراه على تلك الحال أن يفكر، خصوصاً بوجهه المعذب، بأنه يعاني مرضاً في القلب. تعرى تماماً وهو يرتجف، وكان يتساءل مشوشاً كيف سيحل مشكلة تنظيف تلك الملابس المكومة على الأرض، لم تكن لديه بدلات، وأحذية، وجوارب، وقمصان إلى الحد الذي يتيح له أن يرسل مجموعة الملابس دفعة واحدة إلى المصبغة، وكأنه شخص مقتدر، فهو سيحتاج بكل تأكيد إلى إحدى هذه القطع عندما سيرتدي في الصباح ما هو متبق لديه. قرر تجاهل هذه المشكلة إلى ما بعد، لأن عليه الآن أن ينزع القذارة عن جسده، والسيئ في ذلك هو أن سخان الماء يعاني من خلل في عمله، إذ يمكن للماء أن يخرج ساخناً يغلي أو بارداً يجمِّد، ومجرد تفكيره في ذلك بعث القشعريرة في جسده كله، ولكنه غمغم بعد ذلك كمن يرغب في إقناع نفسه، ربما كان ذلك جيداً للزكام، دفقة ماء ساخنة، ودفقة باردة، مثلما يقال. دخل حجرة النوم التي يستخدم ركناً منها كغرفة استحمام، نظر إلى نفسه في المرآة وأدرك سبب رعب سائقي سيارات الأجرة، فلو كان في مكانهم لفعل الشيء نفسه، الهرب من هذا الشبح ذي الحدقتين الغائرتين والفم الذي يسيل من جانبيه نوع من اللعاب الأسود. لم يسئ سخان الماء السلوك في هذه المرة، فقد أطلق عليه دفقتي ماء باردتين في البدء، وجاءت البقية بعد ذلك فاترة منعشة، وقد ساعدته بعض اللسعات السريعة الحارقة بين وقت وآخر في إذابة الوساخة. حين

Twitter: @ketab_n

خرج من الحمام، أحس دون جوزيه بالانتعاش، وكأنه جديد، ولكنه ما إن اندس في الفراش حتى عاودته نوبات القشعريرة، عندئذ فتح درج الكوميدينو حيث يخبئ ميزان الحرارة، وقال بعد قليل، تسع وثلاثون، إذا ما بقيتُ هكذا إلى الغد، فلن أستطيع الذهاب إلى العمل. وسواء أكان ذلك بفعل الحمى أم بفعل الإرهاق، أو بتأثيرهما معاً، فإن هذا الخاطر لم يقلقه، ولم تبدُ له غريبة فكرة التغيب غير المعهود عن الخدمة، ففي هذه اللحظة لم يكن يبدو على دون جوزيه أنه دون جوزيه، أو أنهما دونا جوزيه اثنان مطروحان في السرير، ببطانية مرفوعة حتى الأنف، أحدهما دون جوزيه الذي فقد الإحساس بالمسؤولية، ودون جوزيه الآخر الذي لم يعد يبالي بأي شيء من ذلك كله. وعلى النور المضاء، أخذته الإغفاءة لبضع دقائق استيقظ بعدها مفزعاً وقد حلم بأنه ترك البطاقات فوق كرسي السقيفة، وبأنه تركها متعمداً، كما لو أنه لم يكن هناك من هدف آخر لمغامرته سوى البحث عنها والعثور عليها. وحلم أيضاً بأن هناك من دخل إلى السقيفة بعد أن خرج هو منها، وأنه رأى رزمة الثلاثة عشرة بطاقة وتساءل، اي سرّ هو هذا. نهض ذاهلاً ومضى للبحث عنها، كان قد وضعها فوق المنضدة عندما أفرغ جيوب سترته، ثم رجع بعد ذلك إلى الفراش. كانت البطاقات متسخة بآثار سوداء، بل إن بعضها كانت تُظهر بصمات أصابعه بوضوح، يتوجب عليه أن ينظفها غداً ليتجنب أي محاولة لتحديد هويته، ثم فكر، يا للبلاهة، كل ما نلمسه يحتفظ ببصمات أصابعنا، وإذا ما نظفت هذه الآثار فإنني سأخلف غيرها، والفرق هو أن بعضها ظاهر ومرئي، والأخرى غير مرئية. أغمض عينيه وعاد بعد قليل إلى الدخول في حالة الإغفاء، تهدلت يداه اللتان تمسكان البطاقات برخاوة، فوق اللحاف، فسقط بعض البطاقات على الأرض، وهناك كانت صور فتاة في أعمار مختلفة، من الطفولة وحتى المراهقة،

Twitter: @ketab_n

أحضرت إلى هنا بعمل تعسفي، فليس من حق أحد الاستيلاء على صور ليست له، اللهم إلا إذا قُدمت إليه، فحمل صورة شخص ما في الجيب هو أشبه بحمل شيء من روحه. حلم دون جوزيه، الذي لم يستيقظ منه، كان مختلفاً الآن، فهو يرى نفسه ينظف آثار بصمات أصابعه التي خلّفها في المدرسة، إنها موجودة في كل الأنحاء، على النافذة التي دخل منها، في غرفة العيادة، في السكرتارية، في مكتب المدير، في قاعة الطعام، في المطبخ، في غرفة الأرشيف، أما البصمات التي في السقيفة فقد رأى أنها لا تستحق أن يقلق بشأنها، لأن أحداً لن يدخل هناك ليسأل بعد ذلك، أي سرّ هو هذا، ولكن السيئ في الأمر هو أن اليدين اللتين تنظفان الآثار المرئية تخلفان وراءهما أثراً غير مرئي، فإذا ما قدم مدير المدرسة بلاغاً إلى الشرطة عن عملية الاقتحام وفُتح تحقيق جدي، فإن دون جوزيه سيذهب إلى السجن، وهذا مؤكد مثلما هو مؤكد أن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة، ولا بد من تصور فقدان الاعتبار والعار الذي سيلطخ إلى الأبد سمعة المحفوظات العامة للسجل المدني. استيقظ دون جوزيه عند انتصاف الليل وهو يتوقد بالحمى، بدا أنه يهذي، وكان يقول، لم أسرق شيئاً، لم أسرق شيئاً، وكان ذلك صحيحاً، لأنه، إذا ما تحدثنا عن السرقة كسرقة، لم يسرق أي شيء، ومهما بحث المدير وتقصى، ومهما كانت التقصيات، والإحصاءات والمقارنات التي سيجرونها، في قوائم جرد تفصيلية، مادة بعد أخرى، فإن النتيجة ستكون هي نفسها، سرقة بمعنى السرقة لم تقع، لا شك في أن مسؤولة المطبخ ستأتي قائلة إن هناك نقصاً في الطعام الذي في الثلاجة، ولكن إذا افترضنا أن هذه هي الجريمة الوحيدة المقترفة، فإن السرقة من أجل الأكل، حسب الرأي السائد إلى هذا الحد أو ذاك، لا تعتبر سرقة، وحتى المدير نفسه يؤيد هذا الرأي، الشرطة وحدها هي التي تتخذ منذ البداية رأياً مخالفاً،

Twitter: @ketab_n

مع أنه لم يبق أمامها الآن سوى أن تغادر مغمغمة: ثمة سرّ غامض في الأمر، فليس هناك من يقتحم بيتاً لأجل تناول الفطور فقط. وعلى كل حال، فإن الإقرار الرسمي للمدير، المقدم خطياً، بأنه لم يُفقد أي شيء ذا قيمة أو دون قيمة من المدرسة، جعل رجال الشرطة يقررون عدم رفع آثار البصمات، مثلما يستدعي الروتين، لدينا فائض من العمل، قال ذلك آمر جماعة المحققين. ولكن هذه الكلمات المطمئنة لم تتح لدون جوزيه النوم خلال ما تبقى من الليل، فقد خاف أن يتكرر الحلم نفسه وترجع الشرطة ومعها العدسات المكبرة ومساحيق البودرة.

لا يوجد في البيت شيء يوقف هذه الحمى، والطبيب لا يأتي إلا في المساء، ومن المحتمل ألا يأتي اليوم، وهو لن يجلب معه أدوية، بل سيقتصر على كتابة الوصفة المعهودة لحالات الرشح والانفلونزا. الملابس المتسخة ما تزال مكومة وسط البيت، ودون جوزيه ينظر إليها من السرير نظرة حائرة، كما لو أن تلك الأشياء ليست له، وقدر يسير من الحس السليم هو الذي يمنعه من التساؤل، من الذي جاء ليتعرى هنا، وكان ذلك الحس السليم هو الذي دفعه، أخيراً، إلى التفكير في التعقيدات، سواء ذات الطبيعة الشخصية أو المهنية، التي ستنشأ عن دخول أحد زملائه متجاوزاً الباب ليستعلم عن حالته، مرسلاً من قبل الرئيس أو بمبادرة ذاتية، ولقائه مواجهة مع تلك القذارة. عندما نهض واقفاً أحس كما لو أنهم قد دفعوه بفظاظة نحو أعلى السلم، ولكن هذا الدوار لم يكن كغيره، فهو ناجم عن الحمى، وعن الضعف الذي يعتريه إلى حد ما، لأن ما كان يأكله في المدرسة، ويبدو له كافياً في كل مرة، كان ينفع لخداع أعصابه أكثر من نفعه لتغذية جسده. وبصعوبة، مستنداً إلى الجدار، تمكن من الوصول إلى كرسي والجلوس عليه. انتظر أن يعود رأسه إلى حالته العادية لكي يفكر في المكان الملائم لإخفاء الملابس المتسخة، في غرفة الحمام لا، فالأطباء يغسلون أيديهم

Twitter: @ketab_n

لدى الخروج، وتحت السرير مستحيل، فهو من تلك الهياكل القديمة ذات القوائم العالية، ويمكن لأي شخص، حتى دون أن ينحني، أن يرى تلك الأسمال، وفي خزانة الشخصيات المشهورة لا يوجد متسع وهي ليست بالمكان المناسب، الحقيقة الحزينة هي أن رأس دون جوزيه ما زال يعمل بصورة سيئة على الرغم من توقفه عن الدوران، المكان الوحيد الذي ستكون فيه الملابس المتسخة بمنجى من الفضول دون ريب هو المكان الذي توضع فيه عندما تكون نظيفة، أي وراء الستارة التي تغطي الركن الذي يستخدم كخزانة للملابس، وسيكون الزميل الزائر أو الطبيب في منتهى الوقاحة إذا ما دس أنفه هناك. أحس بالرضى عن نفسه لأنه أنجز، بعد تأخير مبالغ فيه، ما كان يُعتبر في ظروف أخرى أمراً جلياً، دفع دون جوزيه الملابس بقدمه نحو الستارة كي لا يلوث بيجامته. بقيت على الأرضية بقعة كبيرة من الرطوبة تحتاج إلى ساعات ريثما تتبخر بالكامل، إذا ما دخل أحدهم قبل ذلك وسأله فسوف يوضح له بأن ماء قد اندلق منه في لحظة سهو أو أنه كانت هناك بقعة على الأرض وحاول تنظيفها. كانت معدة دون جوزيه، منذ أن استيقظ، تتضرع إليه بأن يحنو عليها بفنجان من القهوة مع الحليب، بقطعة بسكويت، بشريحة خبز مع الزبد، بأي شيء يخمد الشهية التي تيقظت فجأة، الآن بعد أن انزاح القلق على المصير العاجل للملابس. كان الخبز قاسياً وناشفاً، والزبد ضئيلاً، ولم يكن هناك حليب، وإنما قهوة فقط، ومن نوعية رديئة، ومن المعروف أن رجلاً لم تشأ امرأة القبول بالعيش في كوخه هذا، رجلاً من هؤلاء، ما عدا استثناءات قليلة جداً لا مكان لها في هذه القصة، لن يتجاوز قط كونه مجرد شيطان بائس، ومن المثير للفضول أن يقال دوماً إنه شيطان بائس ولا يقال أبداً إنه إله بائس، خصوصاً عندما يكون قد أصابه سوء الطالع بالخروج مُفسَد الهندام مثل رجلنا هذا، وحذار، لأن من كنا نتكلم عنه هو إنسان،

Twitter: @ketab_n

وليس مجرد إله لا على التعيين. على الرغم من الطعام القليل الذي يبعث على الكآبة، فقد وجد دون جوزيه من الحماس ما يكفي ليحلق ذقنه، وهي عملية بدا له أنه خرج منها بوجه أحسن حالاً، إلى حد أنه قال أخيراً للمرآة، يبدو أن الحمى قد تراجعت، وقاده هذا الاعتقاد إلى التفكير في أن ذهابه للمثول في موقع العمل بإرادته لن يكون بالسياسة السيئة، وستكون كلماته التي سيقولها، خدمة المحفوظات هي فوق كل شيء، وسيغفر له المدير، نظراً لشدة البرد في الخارج، عدم قيامه بتلك الالتفافة حول المبنى المفروضة عليه للدخول، بل ربما يسجل في ملف دون جوزيه أن مجيئه هو دليل واضح على روح التعاون والمواظبة على العمل. فكر في ذلك ولكنه لم ينفذه. كان يشعر بالألم في كل أنحاء جسمه، كما لو أنهم قد سحلوه، ضربوه، زعزعوه، فقد كانت عضلاته تؤلمه، وكانت تؤلمه مفاصله، ولم يكن ذلك بسبب الجهود الشاقة التي بذلها كمتسلق ومحطم أبواب، فأي شخص يمكنه أن يدرك بأن الأمر يتعلق بآلام مختلفة، واختتم تفكيره، ما أعاني منه هو الانفلونزا.

كان قد اندس في الفراش للتو عندما سمع طرقاً على باب الاتصال بالمحفوظات، لا بد أنه زميل مشفق عليه يأخذ على محمل الجد الوصية المسيحية بزيارة المرضى والمسجونين، لا، لا يمكن للقادم أن يكون زميلاً، فاستراحة الغداء ما تزال بعيدة، وممارسة أعمال التراحم غير مسموح بها إلا خارج أوقات الخدمة، ادخل، الباب غير موصد بالمفتاح، فُتح الباب وظهر عند العتبة نائب المدير الذي كان قد أبلغ المديرَ عن مرضه، يريد الرئيس أن يعرف إذا ما كنتَ تتناول دواءً ما ريثما يحضر الطبيب، لا يا سيدي، ليس لدي شيء مناسب في البيت، إليكَ بعض أقراص الدواء إذن، شكراً جزيلاً، وإذا كنتَ لا تمانع فسوف أدفع لك ثمن الدواء لاحقاً، لأنني لا أستطيع النهوض، بكم أنا

Twitter: @ketab_n

مدين لكَ، لقد كان أمراً أصدره لي الرئيس، ولا يمكن لأحد أن يسأل الرئيس بكم هو مدين له، أعرفُ ذلك، اعذرني، سيكون من المناسب أن نتناول قرصاً الآن، ثم دخل نائب المدير دون أن يطلب إذناً بذلك، أجل، شكراً جزيلاً، هذا لطف كبير منه، ولم يستطع دون جوزيه أن يعترض طريقه، أن يقول له توقف، لا يمكن لحضرتك الدخول إلى هنا، فهذا منزل خاص، لم يستطع قول ذلك لأنه لا يمكن في المقام الأول التحدث بمثل هذه الألفاظ إلى مسؤول، ولأنه في المقام الثاني، ليس هناك في ذاكرة التقاليد الشفوية، ولا في السجلات الخطية لحوليات المحفوظات، ما يشير إلى أن رئيساً قد اهتم يوماً بصحة أحد الكتبة إلى حد إرسال مندوب يحمل إليه أقراص دواء. وكان نائب المدير نفسه مرتبكاً من هذا الوضع المستجد، فهو لم يفعل مثل ذلك بمبادرته الشخصية قط، ولكنه لم يفقد بوصلته على أي حال، وكمن يعرف تماماً ما الذي جاء يفعله ويعرف كل أرجاء البيت، وليس هذا بغريب، فقبل التغيرات العمرانية في الحي، كان يسكن بيتاً مثل هذا البيت. وكان أول ما لاحظه هو بقعة الرطوبة الكبيرة على الأرض، فسأل، ما هذا، أهو تسرب ماء، وكان دون جوزيه يرغب في أن يرد عليه بنعم حتى لا يضطر إلى تقديم تفسيرات أخرى، ولكنه آثر أن ينسب تلك البقعة إلى إهماله، مثلما فكر من قبل، فلم يعد ينقصه إلا أن يجيء بسباك إلى البيت ليقدم تقريراً إلى الرئيس بعد ذلك يعلن فيه بأنه لا علاقة للتمديدات الصحية، بالرغم من قِدمها، بظهور بقعة الرطوبة. كان نائب المدير قد جاء في أثناء ذلك حاملاً كأس الماء وقرص الدواء، وكانت مهمة الممرض التي أنيطت به قد لطفت من ملامح التسلط المعهودة في وجهه، ولكن تلك الملامح ما لبثت أن عادت إليه بغتة، وقد زاد من حدتها أمر يمكن تصنيفه بأنه إهانة مفاجئة، وذلك عندما اكتشف، حين اقترب من السرير، وجود البطاقات المدرسية للطفلة المجهولة

Twitter: @ketab_n

موضوعة فوق الكوميدينو. وقد انتبه دون جوزيه إلى استغراب الآخر في اللحظة التي بدأ يتشكل فيها ذلك الاستغراب، وأحس كما لو أن العالم كله ينهار. أصدر الدماغ على الفور أمراً لعضلات ذراع هذا الجانب، ارفع هذه البطاقات من هنا يا غبي، ولكن بعد ذلك، وبالسرعة نفسها، اندفعت شحنة كهربية في إثر شحنة كهربية، وصححت الخطأ، وهذا لمجرد أن نطلق على ما حدث تسمية ما، مثل من تعرف للتو على غبائه، ارجوك، لا تلمسها، تجاهل الأمر، تجاهله. ولهذا، اعتدل دون جوزيه في السرير بخفة غير متوقعة على الإطلاق من شخص يعاني خموداً جسدياً وذهنياً هو المحصلة الأولى المعروفة للانفلونزا، متظاهراً بأنه يريد تسهيل مهمة نائب المدير الإحسانية، ومدّ ذراعه ليتلقى قرص الدواء، الذي وضعه في فمه، والماء لكي يدفعه عبر حلقه المتضيق والمكروب، منتهزاً في الوقت نفسه كون الفراش الذي يرقد فوقه على مستوى الكوميدينو، ليفطي البطاقات بمرفق ذراعه الأخرى، تاركاً ساعده يهوي بعد ذلك إلى الأمام وراحة يده مبسوطة، زاجرة، وكأنها تأمر نائب المدير توقف عندك. ما أنقذه هو الصورة الملصقة على البطاقة، لأن هذا الاختلاف هو الأبرز بين الشهادات المدرسية وشهادات الميلاد والحياة في المحفوظات، لأن ما تفتقر إليه المحفوظات العامة هو تلقي صورة شخصية للمسجلين الأحياء لديها في كل عام، ومن يقول كل عام يقول كل شهر، أو كل أسبوع، أو كل يوم، أو صورة في كل ساعة، رباه، كيف ينقضي الزمن، ويا للعمل الذي سيتطلبه ذلك، كم من الكتبة سيتوجب تجنيدهم، صورة في كل دقيقة، في كل ثانية، يا لكمية الصمغ، واستهلاك المقصات، الحرص في اختيار العاملين، بحيث يُستبعد الحالمون الذين لا يتورعون عن الاستغراق في تأمل صورة إلى الأبد، ويسرح بهم الخيال كما يسرح خيال البلهاء وهم يرون مرور سحابة. أبدى وجه نائب المدير الملامح التي تظهر عليه في أسوأ

Twitter: @ketab_n

أيامه، عندما تتراكم الأوراق فوق كل الطاولات ويستدعيه الرئيس ليسأله إذا ما كان متأكداً حقاً من أنه ينجز واجبه. بفضل وجود الصورة، لم يفكر في أن البطاقات التي على كوميدينو مرؤوسه هي من بطاقات المحفوظات العامة، ولكن التعجل الذي غطاها به دون جوزيه، وخصوصاً أنه تصرف كما لو أنه يفعل ذلك دون قصد أو بشرود تفكير، أوقظ في نفسه الشكوك، كانت بقعة الرطوبة قد بعثت فيه الحيرة من قبل، وها هي الآن بطاقات من نموذج غير معروف لديه عليها صورة ملصقة، لطفلة، مثلما بإمكانه أن يراها. لم يكن قادراً على تحديد عدد البطاقات الموضوعة بعضها فوق بعض، ولكنها، حسب ما يبدو من سماكتها، يجب أن تكون عشراً على الأقل، عشر بطاقات عليها صور فتيات، يا له من أمر غريب، ما الذي تفعله هذه البطاقات هنا، فكر بذلك مذهولاً، ولا بد أن ذهوله سيكون أكبر بكثير إذا ما عرف أن البطاقات كلها تعود إلى الشخص نفسه، وأن البطاقتين الأخيرتين هما لفتاة في سن المراهقة، ذات وجه جدي ولكنه لطيف. ترك نائب المدير علبة أقراص الدواء على الكوميدينو وانسحب. وعندما صار على وشك الخروج، نظر إلى الوراء ورأى مرؤوسه ما يزال يغطي البطاقات بمرفقه، يجب أن أخبر الرئيس، قال لنفسه. وما كاد الباب يُغلق حتى سارع دون جوزيه، بحركة فظة، كما لو أنه يخشى أن يُفاجأ وهو يرتكب خطيئة، ودس البطاقات تحت الفراش. لم يكن هناك أحد ليقول له إن الوقت قد فات، ولم يكن هو راغباً في أن يفكر في ذلك.

Twitter: @ketab_n

إنها انفلونزا، قال الطبيب، ثلاثة أيام من الراحة كبداية. وكان دون جوزيه قد نهض، دائخاً ومتهالك الساقين، ليفتح الباب، اعذرني لأني جعلتك تنتظر يا سيدي الدكتور، هذه هي نتيجة العيش وحيداً، دخل الطبيب متذمراً، يا للطقس المشؤوم، أغلقَ المظلة التي تقطر، وتركها عند المدخل، قل لي مم تشكو، سأله بينما كان دون جوزيه المرتجف يندس بين ملاءات السرير، وأضاف دون أن ينتظر الرد على سؤاله قائلاً، إنها الانفلونزا. قاس نبضه، طلب منه أن يفتح فمه، ووضع السماعة بسرعة على صدره وظهره، وكرر، إنها الانفلونزا، وأنت محظوظ، كان يمكن أن تكون ذات الرئة، ولكنها انفلونزا، ثلاثة أيام من الراحة كبداية، وبعد ذلك سنرى. وكان قد جلس إلى المنضدة ليكتب الوصفة عندما فُتح باب الاتصال مع المحفوظات، وكان مغلقاً دون إقفال، وظهر منه المدير، مساء الخير يا دكتور، الأصح أن تقول مساء الشر أيها المدير، فلو كان مساء خير، لكنتُ جالساً في عيادتي مستريحاً، بدلاً من الخروج إلى هذه الشوارع في هذا الجو التعس، كيف حال مريضنا، سأله المدير، وردّ عليه الطبيب، لقد منحته استراحة لثلاثة أيام، إنها انفلونزا فقط. ولكنها لم تكن انفلونزا فقط في تلك اللحظة. فدون جوزيه، المتدثر حتى أنفه، كان يرتعش كما لو أنه يعاني نوبة ملاريا، إلى حد أن السرير الحديدي الذي يرقد عليه كان يهتز، بالرغم من أن الارتعاش، الذي لا يمكن كبحه، لم يكن بسبب الحمى، وإنما بسبب نوع من الرعب، بسبب ارتباك شامل في الروح،

Twitter: @ketab_n

فقد كان يفكر، الرئيس هنا، الرئيس في بيتي، وهو الرئيس الذي سأله، كيف تشعر، إنني أفضل حالاً يا سيدي، هل تناولت الأقراص التي أرسلتها إليك، أجل يا سيدي، وهل أفادتك، أجل يا سيدي، ستتوقف الآن عن تناولها وتبدأ بتناول الأدوية التي وصفها لك الطبيب، حاضر يا سيدي، اللهم إلا إذا كان الدواء نفسه، دعني أر، أجل، إنه الدواء نفسه، إضافة إلى بعض الحقن، سأتولى أنا أمر إحضارها. لم يكن دون جوزيه يصدق ما هو أمام عينيه، وأن الشخص الذي يطوي الوصفة الطبية ويحفظها بعناية في جيبه هو فعلاً رئيس المحفوظات العامة. فالرئيس الذي تعلم معرفته بصعوبة لا يمكن له أن يتصرف بهذه الطريقة، ولا أن يأتي شخصياً للاهتمام بحالته الصحية، وأما إمكانية أن يكون هو نفسه راغباً في أن يتولى شراء أدوية كاتب بسيط فكان أمراً غير معقول. ستحتاج بعد ذلك إلى ممرض لزرق الحقن، تذكر الطبيب الأمر تاركاً المعضلة لمن هو مستعد وقادر على حلها، وليس للشيطان التعس المصاب بالانفلونزا، الذي يرتجف من الهزال، وذي اللحية الشائبة التي تبرز قليلاً، وكما لو أن كل الشقاء المتبدي في البيت غير كاف، لتضاف إليه تلك البقعة من الرطوبة في الأرضية التي يشير كل شيء إلى أن سببها هو عطل في التمديدات الصحية، يا لأحزان الحياة التي يمكن للطبيب أن يرويها، لولا اضطراره إلى الحفاظ على أسرار المهنة، ولكنه أجهز على أفكاره بالقول، ولكنني أمنعك من الخروج إلى الشارع وأنت في هذه الحالة، فقال المدير، أنا سأتولى أمر كل شيء يا دكتور، سأتصل بممرض المحفوظات من أجل زرق الإبر، وقال الطبيب، لم يعد هناك مديرون كثيرون مثل حضرتك. هز دون جوزيه رأسه بحركة خفيفة، وكان ذلك هو أقصى ما يستطيع عمله، إنه مطيع ومنضبط، أجل، وقد كان كذلك على الدوام، وهو فخور إلى حد ما بأنه كذلك، ولكنه ليس دنيئاً ولا ذليلاً، وهو لن يتلفظ

Twitter: @ketab_n

مطلقاً، على سبيل المثال، بتملقات بلهاء من نوع، إنه أفضل رئيس للمحفوظات، ليس هناك في العالم من هو أفضل منه، لقد انكسر القالب بعد صنعه، من أجله، وعلى الرغم مما ينتابني من دوار، لا أتورع عن تسلق ذلك السلّم اللعين. لدى دون جوزيه الآن قلق آخر، جزع آخر، إنه يتمنى أن ينصرف الرئيس، أن ينسحب قبل الطبيب، فهو يرتجف متخيلاً نفسه على انفراد مع المدير، تحت رحمة أسئلته المحتومة، ماذا تعني بقعة الرطوبة، ما هي تلك البطاقات التي كانت على الكوميدينو، من أين جئت بها، أين خبأتها، من هي صاحبة الصورة. أغمض عينيه، مضفياً على وجهه إمارات ألم لا يطاق، وبدا كما لو أنه يتوسل، دعوني بسلام في فراش آلامي، ولكنه سرعان ما أعاد فتح عينيه، مذعوراً، حين قال الطبيب، سأواصل جولتي على مرضاي، اتصلوا بي إذا ما ساءت الحالة، ويمكننا على أي حال أن نكون مطمئنين إلى حد ما، فليس في الأمر نزلة رئوية، سنبقيك على اطلاع على الوضع يا دكتور، قال المدير ذلك وهو يرافق الطبيب. أعاد دون جوزيه إطباق عينيه، وسمع إغلاق الباب، فكر، لقد أزفت الساعة. راحت خطوات الرئيس الثابتة تقترب، إنها تتقدم باتجاه السرير، توقفت، إنه ينظر إليّ الآن، ولم يدرِ دون جوزيه ما يمكنه أن يفعله، يستطيع التظاهر بأنه قد غفا، غفوة خفيفة كالتي ينامها مريض متعب، ولكن ارتعاش رموشه سيفضح الزيف، ويمكنه كذلك، بصورة جيدة أو سيئة، أن يتصنع حشرجة محزنة من حنجرته، من تلك الحشرجات التي تمزق نياط القلب، ولكن حالة انفلونزا عادية لا تسمح بكل ذلك، ولا يمكن لهذه الخدعة أن تنطلي إلا على أبله، وليس على هذا المدير الذي يعرف ملكوت كل ما هو مرئي وما هو غير مرئي في الألاعيب والنطنطات. فتح عينيه وكان هو هناك، على بُعد خطوتين عن السرير، دون أية تعبيرات محددة على وجهه، كان يتأمله ببساطة. عندئذ ظن

Twitter: @ketab_n

دون جوزيه بأن الفكرة المنقذة قد وانته، عليه أن يشكر الاهتمام الذي أحاطته به المحفوظات العامة، شكر مرفق بامتداح، بإطراء مفخم، فربما يتمكن بهذه الطريقة من التملص من الأسئلة، ولكنه في اللحظة التي كان يوشك أن يفتح فمه لكي يلفظ الجملة المعهودة، لست أدري كيف أشكركم، أدار الرئيس ظهره في الوقت الذي نطق فيه بكلمة، كلمة بسيطة، اعتن بنفسك، كان ذلك ما قاله بنبرة فيها من التنازل بقدر ما فيها من إيقاع آمر، وأفضل الرؤساء وحدهم يستطيعون الجمع بانسجام بين هذين الشعورين بالغي التنافر، ولهذا السبب ينعمون باحترام وتوقير مرؤوسيهم. حاول دون جوزيه أن يقول، على الأقل، شكراً جزيلاً يا سيدي، ولكن الرئيس كان قد خرج مغلقاً الباب وراءه بلطف، مثلما يستدعي عمل ذلك في غرفة مريض. كان رأس دون جوزيه يؤلمه، ولكن ذلك الألم لم يكن شيئاً يذكر إذا ما قارناه بالهيجان الذي يعتمل في داخله. فقد كان دون جوزيه في حالة من التشوش إلى حد أن أول حركة قام بها بعد خروج المدير هي دس يده تحت الفراش ليتأكد من أن البطاقات ما زالت هناك. ثم كانت حركته الثانية أشد إهانة للحس العام، ذلك أنه نهض من السرير وأدار المفتاح دورتين في باب الاتصال بالمحفوظات، مثل من يضع دعائم لباب بيته بعد أن تعرض البيت للسطو. أما العودة إلى الاضطجاع فكانت حركته الرابعة، لأن الحركة الثالثة كانت في رجوعه نحو السرير مفكراً، وماذا لو خطر للرئيس أن يعود ثانية، في مثل هذه الحالة يقتضي التعقل، من أجل تجنب الشكوك، ترك الباب مغلقاً فقط. من المؤكد أنه إذا كان دون جوزيه يتلقى نسمة تلقين من جهة فإنه يتلقى ريحاً عاصفة من الجهة الأخرى.

عندما حضر الممرض كان الليل قد حلّ. وتنفيذاً للأوامر التي تلقاها من المدير، أحضر معه أقراص الدواء وأمبولات الحقن التي

Twitter: @ketab_n

وصفها الطبيب، كما أحضر معه فضلاً عن ذلك، وهو ما فاجأ دون جوزيه، لفافة وضعها بكل حذر على الطاولة قائلاً، مايزال ساخناً، وأرجو ألا أكون قد دلقت منه شيئاً، وهو ما يعني أن اللفافة تحتوي على طعام، وهذا ما أكدته كلمات المرض التالية، تناوله قبل أن يبرد، ولكن علينا أن ننتهي من حقنتنا أولاً. لم يكن دون جوزيه يحب الحقن، وخصوصاً في وريد الذراع، حيث يضطر دائماً لأن يشيح ببصره، ولهذا أحس بالرضى عندما قال له المرض إن الوخزة ستكون في الألية، هذا المرض هو شخص مهذب، من زمن آخر، معتاد على استخدام لفظة اليتين بدلاً من كلمة ردفين كي لا يصدم وساوس السيدات، وقد كاد أن ينتهي به الأمر إلى نسيان التسمية الدارجة، فهو يستخدم كلمة أليه حتى عندما يتعامل مع مرضى لا تعدو كلمة ردف عندهم أن تكون تحفة لغوية قديمة ومضحكة، ويفضلون عليها المرادف الفظ «طيز». الظهور المفاجئ للطعام والإحساس بالراحة لأن وخز الحقنة لن يكون في الذراع، قوضا دفاعات دون جوزيه، فلم يتذكر ببساطة، أو أنه لم يلاحظ ببساطة أكبر أن ساقي بيجامته ملطختان بالدم عند مستوى الركبتين، نتيجة مآثره الليلية كمتسلق مدارس. وبدلاً من أن يقول له المرض الذي كان يشهر الحقنة الجاهزة استدر، سأله، ما هذا، فارتد دون جوزيه عندئذ بسبب هذا الدرس من الحياة إلى إدراك الصلاح الحاسم للحقن في الذراع، وردّ بصورة غريزية، لقد وقعتُ، يا لسوء حظك يا رجل، تقع أولاً، ثم تصاب بالانفلونزا بعد ذلك، لحسن الحظ أن لديك هذا المدير، استدر الآن، وبعد ذلك سنلقي نظرة على ركبتيك. لم يكن ينقص دون جوزيه، في وهن الجسد والروح والإرادة، وتشنجه حتى آخر عصب من أعصابه، إلا القليل لينفجر بالبكاء مثل طفل عندما أحس بوخز الإبرة وبالتسلل البطيء للسائل في العضل، ففكر، لقد تحوّلتُ إلى مجرد خرقة، وكان ذلك صحيحاً، فهو مجرد حيوان

Twitter: @ketab_n

بشري بائس محموم، مضطجع على سرير بائس في بيت بائس، حيث توجد ملابس الجرم الوسخة المخبأة وبقعة رطوبة على الأرض تبدو أنها لن تجف مطلقاً. انقلب على ظهرك، ولنر الآن هذه الجروح، قال الممرض ذلك، وقلب دون جوزيه جسده بمشقة، منصاعاً، وهو يئن ويسعل، والآن، بينما هو يميل برأسه إلى الأمام، استطاع أن يرى كيف كان الممرض يشمر ساقي بنطال بيجامته بطيهما إلى ما فوق الركبتين، وكيف كان يزيل لصقات الجروح المتسخة، بسكب ماء الأكسجين عليها ونزعها شيئاً فشيئاً وبرفق شديد، لحسن الحظ أنه ممرض محترف من الطراز الأول، والحقيبة التي يحملها معه هي صيدلية كاملة للإسعافات الأولية، فيها أدوية لكل شيء تقريباً. عندما انكشفت الجروح، بدت على وجهه إمارات عدم تصديق التفسير الذي قدمه إليه دون جوزيه، وتحدث فيه عن وقوعه، ودفعته خبرته في الخدوش والكدمات إلى التعليق بفطنة غير واعية، يبدو أنكَ كنتَ تحك ركبتيك بجدار يا رجل، لقد قلتُ لك إنني وقعت، هل أطلعت الرئيس على هذا، ليس لهذا علاقة بالعمل، ويمكن للمرء أن يتعثر دون أن يكون مضطراً إلى إبلاغ رؤسائه بذلك، اللهم إلا إذا وجد الممرض، الذي استدعي من أجل زرق حقنة، نفسه مضطراً إلى إجراء علاج إضافي، انا لم أطلب ذلك، أجل يا سيدي، أنتَ لم تطلب ذلك في الواقع، ولكنك إذا ما أُصبت غداً بالتهاب خطير بسبب هذه الجروح، فمن الذي سيتحمل المسؤولية، ويُتهم بالإهمال وانعدام الكفاءة المهنية، إنه أنا، أضف إلى ذلك أن الرئيس يحب أن يعرف كل شيء، بالرغم من طريقته في التظاهر بأنه لا يكترث بأي شيء، ساخبره بذلك غداً، انصحك بحرارة أن تفعل، فهكذا يكون التقرير موثقاً، اي تقرير تعني، تقريري، لا أرى أي ضرورة لذكر جروح بسيطة في تقرير، بل هناك ضرورة لذكر أبسط الجروح، ولكن جراحي، بعد أن تلتئم، ستخلف ندوباً تافهة،

Twitter: @ketab_n

تختفي مع مرور الزمن، اجل، الجراح في الجسم تلتئم، أما في التقرير فتبقى مفتوحة دائماً، لا تلتئم ولا تختفي، لستُ أفهم ما تعنيه، منذ متى وأنت تعمل في المحفوظات العامة، عما قريب سأُكمل ستاً وعشرين سنة، وكم رئيساً عاصرت حتى الآن، ثلاثة، بمن فيهم هذا الحالي، يبدو أنك لم تلحظ شيئاً، اي ملاحظة تعني، ويبدو أنك لم تدرك شيئاً، لستُ أفهم ما الذي تريد الوصول إليه، هل صحيح أم غير صحيح أنه ليس لدى الرؤساء إلا قدر قليل من العمل، بل صحيح، والجميع يتحدثون عن ذلك، اعلم إذن أن شغلهم الشاغل، خلال ساعات الفراغ الطويلة التي ينعمون بها، بينما الموظفون الآخرون يعملون، هو جمع المعلومات عن المرؤوسين، كل أنواع المعلومات، وهم يفعلون ذلك منذ وُجدت المحفوظات العامة، واحداً إثر الآخر منذ الأزل. لم تمر اختلاجة القشعريرة التي انتابت دون جوزيه مرور الكرام دون أن يلحظها الممرض الذي سأله، هل انتابتكَ قشعريرة، اجل، أُصبتُ بقشعريرة، لكي تكون لديكَ فكرة واضحة عما أقوله لك، اعلم إذن أنني يجب أن أضمّن حتى هذه القشعريرة في تقريري، ولكنك لن توردها، لا، لن أوردها، وأُخمنُ السبب، أخبرني به، لأنه سيكون عليك أن تذكر بأن القشعريرة انتابتني بينما كنتَ تخبرني بأن الرؤساء يجمعون معلومات عن موظفي المحفوظات العامة، وسيُلح الرئيس عندئذ على معرفة الظروف التي أدت إلى محادثتك معي، وكيف تمكن ممرض من معرفة مسألة حصرية، وحصرية جداً بحيث لم أسمع بشيء عنها خلال خمس وعشرين سنة من الخدمة في المحفوظات العامة، هناك ميل كبير إلى البوح بالأسرار للممرضين، ولكنه يبقى أقل مما هو للأطباء، اتحاول أن تلمح إلى أن من عادة الرئيس البوح لك بالأسرار، إنه لا يفعل ذلك، ولستُ أُلمح إلى أنه يفعل، كل ما هنالك أنني أتلقى أوامر، عليك إذن أن تنفذها وحسب، انت مخطئ، يتوجب عليّ أن أفعل ما هو أكثر من

Twitter: @ketab_n

تنفيذها، عليّ أن أفسرها، لماذا، لأن هناك اختلافاً بين ما يأمر به وما يرمي إليه، إذا كان قد أمرك بالمجيء إلى هنا، فقد فعل ذلك لكي تعطيني حقنة، هذا هو الظاهر، وما الذي رأيته في هذه الحالة، فضلاً عن ظاهرها، حضرتك لا تستطيع أن تتصور كمية الأشياء التي يمكن اكتشافها من خلال النظر إلى جرح، رؤية هذه الجراح كان مصادفة محضة، ولابد من أخذ المصادفات المحضة بعين الاعتبار على الدوام، فهي تساعد كثيراً، وما هي الأشياء التي اكتشفتها في جراحي، أنك كنت تفرك ركبتيك بجدار، بل إنني وقعت، لقد قلتَ لي ذلك، معلومة مثل هذه، مع الافتراض بأنها صحيحة، لن تكون ذات نفع كبير للرئيس، ليس من اختصاصي أن تكون نافعة أو غير نافعة، انا أكتفي بملء التقارير، لقد اطلع على إصابتي بالانفلونزا، ولكنه لم يعلم بأمر الجراح في ركبتيك، وهو لم يعلم كذلك بأمر بقعة الرطوبة تلك التي على الأرض، ولكن ليس بأمر القشعريرة، إذا كان لم يعد لديك ما تفعله هنا، فأرجوك أن تنصرف، إنني متعب وبحاجة إلى النوم، عليك أن تتناول الطعام أولاً، لا تنس ذلك، وعسى ألا يكون عشاؤك قد برد تماماً بعد هذه المحادثة، يمكن للجسد الممدد أن يتحمل الكثير من الجوع، ولكنه لن يستطيع تحمل الجوع كله، هل الرئيس هو الذي أمرك بجلب الطعام لي، وهل تعرف شخصاً آخر يمكنه عمل ذلك، اجل، لو أنه يعرف أين أسكن، ومن هو ذلك الشخص، امرأة مسنة تعيش في طابق فوق أرضي، جراح في الركبتين، وقشعريرة مفاجئة وغامضة، وامرأة مسنة في طابق فوق أرضي، الشقة اليمنى، سيكون هذا أهم تقرير في حياتي إذا ما قيض لي أن أكتبه، الن تكتبه، بلى، سأكتبه، لأذكر فقط أنني زرقتك حقنة في إليتك اليسرى، اشكرك على مداواة جراحي، كان هذا هو أفضل ما تعلمته من كل ما لقنوني إياه. بعد خروج المرض، بقي دون جوزيه مضطجعاً بضع دقائق أخرى دون حراك، محاولاً

Twitter: @ketab_n

استعادة هدوئه وقواه. لقد كان الحوار شاقاً، تتخلله الشراك والأبواب الكاذبة المترصدة في كل خطوة، وكان يمكن لأدنى زلة أن تجرجره إلى اعتراف كامل، لو لم تكن روحه متيقظة للمعاني المتعددة في الكلمات التي كان ينطق بها بتروٍ وحذر، وخصوصاً تلك التي تبدو وحيدة المعنى، فلا بد من توخي الحذر في التعاطي معها. فالمعنى والمغزى، على خلاف الاعتقاد السائد، ليسا الشيء نفسه على الإطلاق، فالمعنى يبقى هنا، إنه مباشر، حرفي، صريح، منغلق على نفسه، ويمكن القول إنه أحادي المعنى، بينما لا يمكن للمغزى أن يبقى ساكناً، إنه يفور بمعان ثانية وثالثة ورابعة، باتجاهات شعاعية تأخذ بالانقسام والتفرع إلى أغصان وأفرع إلى أن تغيب عن الأبصار، مغزى كل كلمة هو أشبه بنجمة عندما تأخذ بإطلاق موجات حية عبر الفضاء، وعبر الرياح الكونية، والاضطرابات المغناطيسية، والكروب.

وأخيراً، خرج دون جوزيه من السرير، حشر قدميه في الخف، ولبس الروب الذي ينفعه كبطانية احتياطية كذلك في الليالي الباردة. ومع أن الجوع كان يُثقل عليه، فقد فتح الباب ليلقي نظرة على قاعة المحفوظات. أحس في داخلة بتمزق غريب، بانطباع غياب، وكأن أياماً طويلة قد انقضت منذ المرة الأخيرة التي كان فيها هناك. ومع ذلك، لم يكن هناك أي تبدل، فقد رأى منضدة الكونتوار الطويلة حيث ينجز طلبات أصحاب المعاملات والوقحين، وتحتها، الأدراج التي تُحفظ فيها بطاقات الأحياء، ويلي ذلك طاولات الكتبة الثمانية، فطاولات المأمورين الأربعة، وطاولتا نائبي المدير، ثم طاولة المدير الكبيرة وفوقها النور المضاء المتدلي من أعلى، وبعد ذلك خزائن الرفوف الضخمة التي تعلو حتى السقف، والظلمة الأحفورية في الجانب المخصص للأموات. وبالرغم من عدم وجود أحد في المحفوظات العامة، فقد أقفل دون جوزيه الباب بالمفتاح. كان ألم ركبتيه قد استكان بفضل الضمادات

Twitter: @ketab_n

الجديدة التي وضعها له الممرض، وصار بإمكانه المشي بصورة أفضل، لم يعد يشعر بتصلب في جراحه. جلس إلى المنضدة، مزق اللفافة، كان فيها وعاءان أحدهما فوق الآخر، الذي في الأعلى فيه حساء، والذي في الأسفل يحتوي على بطاطا ولحم، وكان كل شيء ما يزال فاتراً. تناول الحساء أولاً بنهم، وبعد ذلك، دون تعجل، أجهز على اللحم والبطاطا. ما ينجيني هو كون الرئيس على ما هو عليه، غمغم بذلك وهو يتذكر كلمات الممرض، فلولاه لكنت أحتضر الآن من الجوع والهجران، مثل كلب ضال. أجل، هذا هو ما ينجيني، كرر القول وكأنه بحاجة إلى إقناع نفسه بما قاله. وكان يشعر بالانتعاش عندما اندس في الفراش، بعد أن مرّ على الركن الذي يستخدمه كحمام. وكان جاهزاً للاستسلام للحلم عندما تذكر دفتر الملاحظات الذي روى فيه خطواته الأولى في البحث. سأكتب غداً، قال لنفسه، ولكن هذا الأمر المستعجل الجديد كان ملحاً كالطعام، ولهذا نهض ليبحث عن الدفتر. ثم جلس بعد ذلك في السرير، وهو يرتدي البرنس، ويزرر قميص البيجامة حتى عنقه، ومتدثراً بالبطانيات، واصل رواية القصة من النقطة التي توقف عندها. قال الرئيس، إذا لم تكن مريضاً، فكيف تفسر إذن أداءك السيئ في العمل خلال الأيام الأخيرة، لستُ أدري يا سيدي، ربما السبب هو أنني أنام بصورة سيئة. وبمساعدة الحمى، واصل الكتابة حتى وقت متقدم من الفجر.

Twitter: @ketab_n

لم تكفه ثلاثة أيام، وإنما احتاج دون جوزيه إلى أسبوع لكي يتخلص من الحمى ويهدأ سعاله. واظب المرض على المجيء كل يوم من أجل إعطائه الحقنة وإحضار الطعام إليه، وكان الطبيب يأتي يوماً ولا يأتي في اليوم الذي يليه، ولكن هذه المثابرة الاستثنائية، ونعني مثابرة الطبيب، يجب ألا تقودنا إلى أحكام متعجلة حول الفعالية السائدة المفترضة للخدمات الصحية الرسمية والإسعاف المنزلي، ذلك أنها كانت، بكل بساطة، نتيجة الأمر الصريح الذي أصدره رئيس المحفوظات العامة، عالج لي هذا الرجل يا دكتور وكأنك تعالجني أنا بالذات، إنه مهم. لم يتوصل الطبيب إلى معرفة صائبة لسبب هذه المعاملة التي يوصيه بها وتنم بوضوح عن تقديم الجميل، خصوصاً وأن الرأي التقويمي الذي عبر عنه الرئيس يفتقر إلى الموضوعية، لأن الطبيب يعرف بيته من خلال إحدى زياراته المهنية، وطريقته المريحة والمتحضرة في العيش، وعالم ذلك البيت الداخلي لا يشبه بأي حال الكوخ الفظ الذي يسكنه هذا المدعو دون جوزيه ذو الحلاقة السيئة، والذي لا يملك كما يبدو ملاءات احتياطية للفراش. بلى، إن دون جوزيه يملك ملاءات، فهو ليس فقيراً إلى هذا الحد، ولكنه رفض بجفاء، لأسباب يعرفها هو وحده، اقتراح المرض عندما عرض عليه أن يسوي له الفراش ويستبدل الملاءات التي تعبق برائحة العرق والحمى، أقل من خمس دقائق، وسأجعل فراشك ندياً، إنني على ما يرام هكذا، فلا تزعج نفسك، ليس هناك أي إزعاج، إنه جزء من عملي، قلت لك إنني

Twitter: @ketab_n

على ما يرام. لا يمكن لدون جوزيه أن يكشف أمام أي كان أنه يخبئ بين الفراش وسطح السرير البطاقات المدرسية لامرأة مجهولة ودفتر ملاحظات يتضمن قصة اقتحامه للمدرسة التي درست فيها في أيام طفولتها وصباها. يمكن لتخبئتها في مكان آخر، بين ملفات قصاصات المشهورين مثلاً، أن يحل المعضلة فوراً، ولكن الإحساس بأنه يذود عن سر، بجسده بالذات، كان قوياً، بل ومبهجاً، بحيث لا يمكن لدون جوزيه أن يتخلى عنه. ولكي لا يضطر إلى مناقشة الموضوع مرة أخرى مع الممرض، أو مع الطبيب الذي كان قد وجه نظرة مؤنبة، وإن لم يتفوه بأي تعليق، إلى الملاءات المجعدة وقطب أنفه أمام الرائحة التي تفوح منها، نهض دون جوزيه في إحدى الليالي، مستجمعاً قوة من الوهن، واستبدل الملاءات بنفسه. ولكي لا يجد الطبيب أو الممرض أدنى ذريعة للإلحاح على الموضوع، أو لتقديم تقرير للمدير، من يدري، حول إهمال الكاتب المستعصي، دخل إلى الحمام، فحلق ذقنه، واغتسل على أحسن وجه يستطيعه، ثم أخرج من أحد الأدراج بيجامة قديمة، ولكنها نظيفة، واندس ثانية في الفراش. أحس بالرضى وباستعادة القوى إلى حد قرر معه، كمن يلعب مع نفسه، أن يدون في دفتر الملاحظات وصفاً تفصيلياً لكل التفاصيل، تفاصيل النظافة والترتيب والعناية التي أنجزها للتو. إنها العافية التي تريد العودة إليه، وهو ما لم يتأخر الطبيب في إعلانه للمدير، لقد تعافى الرجل، وسيكون بمقدوره بعد يومين آخرين أن يعود إلى العمل دون خطر التعرض لانتكاسة. واكتفى المدير بالقول، حسن جداً، ولكنه قال ذلك بهيئة ساهية، كما لو أنه يفكر في شيء آخر.

لقد شفي دون جوزيه، ولكنه فقد الكثير من وزنه، بالرغم من الخبز والغماس الذي كان يأتيه به الممرض بانتظام، ومع أنه كان يفعل ذلك مرة واحدة في اليوم، إلا أن الكمية كانت أكثر من كافية للقيام

Twitter: @ketab_n

بأود جسد رجل راشد غير مطالب ببذل أي جهد. ولا بد من الأخذ في الاعتبار مع ذلك التأثير المضني للحمى على الأنسجة الدهنية، خصوصاً عندما لا تكون وفيرة من قبل، مثلما هي الحالة التي لدينا. لم يكن من اللائق في أعراف المحفوظات العامة للسجل المدني إبداء الملاحظات ذات الطابع الشخصي، وخصوصاً تلك التي لها علاقة بالحالة الصحية، ولهذا السبب لم يكن هزال دون جوزيه ومظهره المثير للشفقة محط أي تعليق من جانب زملائه الكتبة أو رؤسائه، ونعني أي تعليق شفوي، ذلك أن نظرات الجميع كانت بليغة بما يكفي للتعبير العام عن نوع من الشفقة المزدرية، يمكن لأشخاص آخرين، غير عارفين لعادات المكان، أن يفسروها بصورة خاطئة على أنها نظرات تحفظ رصين وصامت. ولكي يبدي مدى قلقه من التغيب عن العمل عدة أيام، كان دون جوزيه هو أول من وقف في الصباح أمام بوابة المحفوظات، بانتظار مجيء نائب المدير الأحدث عهداً في المنصب، وهو المكلف بفتح الباب، كما أنه المكلف بإغلاقه مع انتهاء العمل في المساء. وكان المفتاح الأصلي، وهو تحفة فنية من عمل نقاش باروكي قديم ورمز مادي للسلطة، لا يعدو مفتاح نائب المدير أن يكون نسخة متقشفة وذليلة منه، بحوزة المدير نفسه الذي لم يكن يستخدمه، في الظاهر، مطلقاً، سواء بسبب وزنه وزخارفه المعقدة التي تجعل حمله غير ممكن، أو لأنه لا بد للمدير، وفق بروتوكول المراتب الوظيفية غير المكتوب، إنما الساري منذ أزمنة موغلة في القِدم، أن يكون آخر من يدخل المبنى. إن أحد الأسرار العجيبة التي تستحق التقصي فعلاً في حياة المحفوظات العامة، لو لم تستغرق كل اهتمامنا قضية دون جوزيه والمرأة المجهولة، هو كيف يتدبر الموظفون أمرهم، على الرغم من الازدحامات المرورية التي تضيق بها المدينة، من الوصول إلى العمل دوماً بالترتيب نفسه، الكتبة أولاً، دون تمييز في الأقدمية، ثم نائب المدير الذي يفتح الباب، وبعد ذلك

Twitter: @ketab_n

المأمورون، مع مراعاة الأقدمية، ثم نائب المدير الأقدم عهداً في الخدمة، وأخيراً المدير، الذي يصل عندما يتوجب عليه الوصول، دون أن يقدم تفسيراً لأحد. ولكن الحدث يبقى موثقاً على أي حال.

إحساس الشفقة المزدرية، مثلما قيل من قبل، الذي قوبلت به عودة دون جوزيه إلى العمل، تواصل حتى دخول المدير، بعد نصف ساعة من بدء العمل، ليتبدل على الفور إلى إحساس بالحسد، وهو أمر يمكن تفهمه في نهاية المطاف، ولكنه لم يتبدّ لحسن الحظ في كلمات أو أفعال. وحيث أن النفس البشرية هي مثلما نعرفها، ولا يمكننا التبجح بأننا نعرفها بالكامل، فلا بد من الانتظار. لقد شاع في المحفوظات في تلك الأيام، عبر بوابات جانبية ووشوشات في الزوايا، خبر اهتمام الرئيس بطريقة غير معهودة بانفلونزا دون جوزيه، ووصول الأمر به إلى إرسال الطعام إليه مع الممرض، فضلاً عن الذهاب لزيارته في بيته مرة واحدة على الأقل، وهي الزيارة التي قام بها في أثناء أوقات العمل، وأمام الجميع، وما لم يُعرف هو إذا ما كانت الزيارة قد تكررت. وهكذا يصير من السهل تصور استنكار العاملين الصامت، دون تمييز في المراتب، عندما توقف المدير بجانب دون جوزيه، حتى قبل توجهه إلى مقعده، وسأله عما إذا كان يشعر بأنه قد استرد عافيته تماماً. وقد كانت الفضيحة أكبر لأنها المرة الثانية التي يحدث فيها ذلك، فالجميع يتذكرون تلك المناسبة الأخرى، ليس منذ زمن طويل، حين سأل الرئيس دون جوزيه عما إذا كان قد تحسن من الأرق، وكأن أرق دون جوزيه هو مسألة حياة أو موت لانتظام سير العمل في المحفوظات العامة. وبينما هم يكادون ألا يصدقوا ما يسمعون، شهد الموظفون محادثة ندٍ لند، سخيفة بكل المقاييس، كان دون جوزيه يقدم الشكر خلالها لطيبة الرئيس، وبلغ به الأمر إلى حد الإشارة بصورة مكشوفة إلى الطعام، وهو ما كان له بالضرورة، في أجواء المحفوظات

Twitter: @ketab_n

الصارمة، وقع البذاءة، وما يشبه الفحش، وكان الرئيس يوضح أنه لم يكن بمقدوره تركه مهجوراً تحت رحمة القدر القاسي لمن يعيشون منفردين، دون أن يكون هناك من يقدم له على الأقل فنجاناً من الحساء، أو يسوي له ملاءة السرير، وأعلن المدير بمهابة، الوحدة لم تكن بالرفقة الطيبة قط يا دون جوزيه، فالأحزان الكبيرة، والإغواءات الكبيرة، والأخطاء الكبيرة هي على الدوام تقريباً نتيجة بقاء المرء وحيداً في الحياة، دون صديق فطن يمكن طلب النصيحة منه عندما يحدث ما يعكر صفونا أكثر مما هو معهود في بقية الأيام، فرد دون جوزيه، أنا يا سيدي لا أظن أنني حزين بالمعنى المتعارف عليه لكلمة حزين، ربما كانت طبيعتي كئيبة بعض الشيء، ولكن هذا ليس نقيصة، أما بالنسبة للإغواءات، فيجب القول إنه لا يمكن لسني ولا لوضعي أن يسمحا لي بالميل إليها، أعني أنني لا أسعى إليها ولا هي تسعى إليّ، وماذا عن الأخطاء، هل تعني يا سيدي الأخطاء في العمل، إنني أعني الأخطاء عموماً، أما أخطاء العمل، لا بد أن تنتج عاجلاً أو آجلاً عن العمل، والعمل هو الذي يحلها، أنا لم أسيء إلى أحد قط، بصورة واعية ومتعمدة على الأقل، وهذا كل ما يمكنني قوله لك، وماذا عن الأخطاء بحق نفسك، لا بد أنني اقترفت الكثير منها، وربما كان هذا هو السبب في كوني وحيداً، لكي تقترف أخطاء أخرى، اخطاء الوحدة فقط يا سيدي. كان دون جوزيه قد نهض، مثلما يفرض عليه الواجب، لدى اقتراب الرئيس، وأحس فجأة بأن ساقيه تتراخيان، وبأن موجة من العرق تُغرق جسده. شحب وجهه، بينما كانت يداه تبحثان بجزع عن حافة الطاولة، ولكن ذلك الاستناد لم يكن كافياً، فاضطر دون جوزيه إلى الجلوس على الكرسي وهو يتلعثم، اعذرني يا سيدي، اعذرني. نظر إليه المدير بملامح لا يمكن سبر غورها استمرت لبضع ثوان ثم توجه إلى مكانه. استدعى نائب المدير المسؤول عن جناح دون جوزيه، وأصدر

Twitter: @ketab_n

إليه أمراً بصوت منخفض، ثم أضاف، بصوت مسموع، دون المرور عبر المأمور، وهو ما يعني أن التعليمات التي تلقاها نائب المدير للتو، موجهة إلى أحد الكتبة، ويتوجب عليه بالذات، خلافاً للقواعد المتبعة، أن يتولى تنفيذها. لقد حدث من قبل، عندما أرسل المدير نائبه هذا نفسه ليحمل أقراص الدواء إلى دون جوزيه، أن جرى خرق سلسلة المراتب الوظيفية، ولكن ذلك التجاوز كان بالإمكان تبريره بعدم الثقة في قدرة المأمور المعني على التنفيذ المُرضي للمهمة، وهي لم تكن ترمي إلى حمل الأقراص المضادة للأنفلونزا إلى المريض، بقدر ما تهدف إلى إلقاء نظرة على البيت وإطلاع المدير على ذلك فيما بعد. ويمكن لمأمور أن يتقبل تماماً، أجل يمكنه أن يتقبل تماماً، التفسير الذي سيخطر له، بسبب الطقس الشتوي السائد، لنشأ بقعة الرطوبة على الأرض، وربما كان سيعود إلى المحفوظات راضياً عن نفسه بإنجاز واجبه، دون أن ينتبه إلى البطاقات الموضوعة على الكوميدينو، ليقول للرئيس، كل شيء طبيعي. لا بد من القول مع ذلك، بأن نائبي المدير، وهذا منهما بصورة خاصة، المتورط في العملية من خلال المشاركة الفعالة التي أستُدعي إليها، يدركان بأن تصرف المدير محدد بهدف معين، باستراتيجية، بفكرة مركزية. لا يمكن لهما أن يتصورا فحوى تلك الفكرة وما هو الهدف منها، ولكن تجربتهما ومعرفتهما بشخصية الرئيس تقول لهما إن كل كلماته وكل تصرفاته في هذه الواقعة تشير بصورة محتمة إلى نهاية ما، وأن دون جوزيه الذي وُضع، بإرادته أو بفعل ظروف المصادفة، في الطريق، هو أحد أمرين، فإما أنه لا يعدو كونه أداة مفيدة دون وعي، أو أنه، هو نفسه، قضية المدير المفاجئة، وغير المتوقعة بأي حال من الأحوال. أحكام منطقية شديدة التعارض، وأحاسيس بالغة التناقض، جعلت الأمر الصادر، من خلال النبرة التي نُقل بها إلى دون جوزيه، يبدو أقرب بكثير إلى جميل يطلبه منه المدير مما هو إلى

Twitter: @ketab_n

التعليمات الواضحة والحاسمة التي أصدرها بالفعل، فقد قال نائب المدير، يرى الرئيس يا دون جوزيه أن حالتك الصحية ليست جيدة إلى حدّ مجيئك إلى العمل، نظراً للإغماء الذي ألم بك قبل قليل، لم يكن إغماء، ولم يبلغ الأمر حد فقداني الوعي، بل هو مجرد دوار آني، سواء أكان دواراً أم إغماء، آنياً أم دائماً، ما تريده المحفوظات العامة هو أن تستردَ عافيتك بالكامل، سأعمل وأنا جالس بقدر ما أستطيع، وخلال أيام قليلة سأكون كما في السابق، يعتقد الرئيس بأنه من الأفضل أن تطلب إجازة لبضعة أيام، ليس العشرين يوماً دفعة واحدة بالطبع، ربما عشرة أيام، عشرة أيام من الراحة، مع تغذية جيدة، واستراحة، والقيام بنزهات قصيرة في المدينة، فلديك الحدائق والمتنزهات، والوقت الذي تتفتح فيه الأزهار، إنها نقاهة حقيقية، وباختصار، لن نستطيع التعرف عليك عندما تعود. نظر دون جوزيه مذهولاً إلى نائب المدير، الحقيقة أنه لم يكن بالحوار الذي يدور مع موظف كاتب، إنها خطبة تنم عن شيء من عدم الوقار. من الواضح أن الرئيس يريد منه أن ينصرف في إجازة، وهو أمر بحد ذاته ينم عن مكيدة، ولكنه يكشف في الوقت نفسه عن قلق فريد وغير مسبوق على صحته. لا شيء من هذا يتوافق مع أنماط السلوك المعهودة في المحفوظات العامة، حيث تُحسب مخططات الإجازات بالميليمتر، من أجل التوصل، بعد موازنة عوامل لا حصر لها، بعضها لا يعرفه أحد سوى الرئيس، إلى توزيع عادل للوقت المخصص للإجازات السنوية. وإقدام المدير على تجاوز برنامج الإجازات المُعدّ للسنة الجارية، وإرسال كاتب إلى بيته دون أخذ ورد، هو أمر لم يُعرف له مثيل من قبل. كان دون جوزيه مضطرباً، وبدا ذلك واضحاً على وجهه. لقد كان يشعر وراء ظهره بنظرات زملائه الحائرة، ويلحظ نفاد صبر نائب المدير المتنامي حيال ما كان يبدو له تردداً لا مبرر له، وكان على وشك أن يقول حاضر يا سيدي، مثل من ينصاع

Twitter: @ketab_n

ببساطة لأمر صادر إليه، عندما أشرق وجهه بالكامل فجأة، فقد انتبه للتو إلى ما يمكن أن تعنيه بالنسبة إليه عشرة أيام من الحرية، عشرة أيام للتحري دون أن يكون مقيداً إلى عبودية ساعات العمل، إلى أوقات الدوام، أية حدائق وأية متنزهات، وأية نقاهة، فليتبارك من اخترع الانفلونزا، وراح دون جوزيه يبتسم وهو يقول، حاضر يا سيدي، كان عليه أن يبدي مزيداً من الرصانة في التعبير، فلا يمكن للمرء أن يعرف مطلقاً ما يمكن لنائب مدير أن يقوله للرئيس، لقد تصرف، في اعتقادي، بطريقة غريبة، فقد أوحى في البداية بأنه حائر، أو أنه لم يفهم جيداً ما قلته له، ثم بدا بعد ذلك مثل من حصل على الجائزة الكبرى في اليانصيب، ولم يعد يبدو أنه الشخص نفسه، هل تظن أنه يلعب، لا أعتقد ذلك، فقد كانت طريقة في الكلام، لقد كان له هدف آخر إذن. وكان دون جوزيه يقول لنائب المدير، الواقع أن هذه الأيام تناسبني تماماً، لا بد أن أشكر السيد المدير، أنا سأنقل إليه شكرك، ربما يتوجب علي أن أفعل ذلك شخصياً، أنت تعرف جيداً أنها ليست العادة المعمول بها، على الرغم من كل شيء، ونظراً لاستثنائية الحالة، بينما دون جوزيه ينطق بهذه الكلمات، وهي، بيروقراطياً، الأكثر ملاءمة، التفت برأسه إلى حيث يجلس المدير، ولم يكن يتوقع أن يراه ينظر إليه، وأقل من ذلك أن يكون قد أدرك فحوى الحديث برمته، وهو ما أراد أن يؤكده بتلك الإيماءة الحازمة، إنما الفاترة والمتعجرفة في الوقت نفسه، من يده، دعك من عبارات الشكر المضحكة، قدم طلب الإجازة وانصرف.

كان أول ما اهتم به دون جوزيه عندما صار في البيت هو الملابس المخبأة في المخزن الذي يستخدمه كخزانة. إذا كانت تلك الملابس متسخة من قبل، فقد تحولت الآن إلى قذارة كاملة، تطلق رائحة نتنة مختلطة بأبخرة العفونة، بل وكانت تظهر طبقة من الطحالب في ثنيات

Twitter: @ketab_n

البنطال، ويمكن تصوّر حزمة ملابس رطبة، سترة، قميص، بنطال، جوارب، ملابس داخلية، كلها ملفوفة بمعطف كان يقطر ماء آنذاك، فكيف يمكن لكل هذا أن يكون بعد أسبوع. دسّ الثياب كومة واحدة في كيس بلاستيكي كبير، وتأكد من أن البطاقات ودفتر الملاحظات ما زالت مخبأة بين الفراش وسطح السرير، الدفتر عند الرأس، والبطاقات تحت موضع القدمين، وتأكد من أن باب الاتصال مع المحفوظات مقفل بالمفتاح، وأخيراً، منهوكاً إنما مطمئن الروح، خرج للذهاب إلى مصبغة قريبة كان زبوناً لها، وإن لم يكن من زبائنها المواظبين. لم تستطع المستخدمة، أو أنها لم تشأ، كبح نفسها من إبداء ملامح التأنيب عندما أفرغت وبعثرت محتويات الكيس فوق منضدة الكونتوار، المعذرة، إذا لم تكن هذه الملابس قد غمست في الطين فعلاً، فإنها تبدو كذلك، لقد أصبتِ تقريباً، صمم دون جوزيه، وهو مضطر إلى الكذب، أن يفعل ذلك محترماً منطق الاحتمالات، منذ أسبوعين، بينما كنت أحمل هذه الملابس لتنظيفها، تمزق الكيس وسقطت كلها على الأرض، وكان ذلك في مكان موحل بسبب الحفريات في الشارع، وتتذكرين بأن المطر هطل بغزارة في تلك الأيام، ولماذا لم تُحضر الملابس فوراً، لأنني سقطت طريح الفراش مصاباً بالانفلونزا، وكان الخروج من البيت مجازفة، فقد أُصابُ بالتهاب رئوي، سيكلفك تنظيف هذه الملابس سعراً أغلى بكثير، لأننا سنضعها في الغسالة مرتين، ليس أمامنا من مخرج، وهذا البنطال، انظر بأية حال تركتَ هذا البنطال، لا أدري إذا ما كنت تريد حقاً أن أنظفه، انظر إلى ركبتيه، يبدو وكأنك كنت تحكهما بجدار. لم يكن دون جوزيه قد انتبه إلى الحالة المزرية التي صار إليها بنطاله البائس بعد عملية التسلق، فقد كان مكشوطاً عند الركبتين، مع وجود تمزق صغير في إحدى ساقيه، وهذا ضرر جدي بالنسبة إلى شخص مثله، لا يملك الكثير من الملابس. سألها، الا

Twitter: @ketab_n

توجد طريقة لإصلاحه، الإصلاح ممكن، وهذا يتطلب إرساله إلى رفاءة، انا لا أعرف أي واحدة، يمكننا أن نتولى ذلك، ولكن عليكَ أن تعلم أن الكلفة لن تكون رخيصة، فالرفاءات يتقاضين أجراً عالياً، ولكن ذلك سيكون في جميع الأحوال أفضل من بقائي دون بنطال، يمكنكَ أن ترقعه، بنطال مرقع لا يمكن استخدامه إلا في البيت، ولكنه لا ينفع أبداً للذهاب إلى العمل، طبعاً، معكَ حق، إنني موظف في المحفوظات العامة للسجل المدني، آه، حضرتك موظف في المحفوظات، قالت مستخدمة المصبغة ذلك بنغمة جديدة من صوتها تنم عن التوقير، ورأى دون جوزيه أنه من الأفضل أن يتجاهلها، نادماً لأنه تهور بالتكلم لأول مرة عن مكان عمله، فلص السطو الليلي المحترف بصورة جدية لا يتجول موزعاً آثاره، فلنصور أن هذه المستخدمة في المصبغة متزوجة من المستخدم في محل الخردوات الذي اشترى منه دون جوزيه قطاعة الزجاج أو مستخدم محل الجزارة حيث اشترى الشحم، وقد يحدث في الليل، في إحدى تلك المحادثات التافهة التي يقضي بها الأزواج والزوجات سهراتهم، تخرج فجأة في السياق هذه الأحداث الصغيرة من الحياة التجارية اليومية. ولكن لا يبدو أن ثمة خطراً هنا على أي حال، اللهم إلا أن تكون هناك نوايا خفية بوشاية دنيئة في ما تقوله المستخدمة، وترفقه بابتسامة لطيفة، فهي ستتقاضى في هذه المرة سعراً استثنائياً، وستتولى المصبغة دفع أجور الرفاءة، هذه لفتة نخص حضرتك بها لأنك موظف في المحفوظات، قالت محددة. شكرها دون جوزيه بتهذب، ولكن دون تفخيم، وانصرف. كان متضايقاً. فهو يخلّف آثاراً كثيرة في المدينة، ويتحدث مع أشخاص كثيرين، ليس هذا هو نمط التحريات الذي كان قد تخيله، وحقيقة القول إنه لم يكن قد تخيل أي شيء، فهذه الفكرة خطرت له الآن، فكرة البحث عن المرأة المجهولة والعثور عليها دون أن يكون بإمكان أحد الانتباه إلى نشاطاته، كما لو أن

Twitter: @ketab_n

الأمر يتعلق بلامرئي يبحث عن لامرئي آخر. وبدلاً من هذا السر المغلق، هذا الغموض المطلق، صار هناك شخصان، امرأة الزوج الغيور وسيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي، مطلعين على ما يفعله، وهذا بحد ذاته يشكل خطراً، فلنفترض مثلاً أن أياً منهما، وبنية المساعدة الحميدة في البحث، مثلما هو واجب المواطنين الصالحين، حضرت إلى المحفوظات في غيابه، أريد التحدث مع دون جوزيه، دون جوزيه ليس في الخدمة، إنه في إجازة، آه، يا للأسف، فقد جئته بمعلومة مهمة حول الشخص الذي يبحث عنه، اي معلومة، وأي شخص، ودون جوزيه لا يرغب في مجرد معرفة ما سيأتي بعد ذلك، بقية الحديث بين امرأة الزوج الغيور والمأمور، لقد وجدتُ تحت لوح خشبي مفلت في غرفة نومي على يوميات (diario)، اتعنين جريدة، لا يا سيدي، يوميات من تلك التي يحب بعض الناس كتابتها، أنا أيضاً كانت لدي يوميات قبل زواجي، وما هي علاقتنا نحن بهذه القضية، فنحن في المحفوظات لا نهتم إلا بمعرفة ميلاد الناس وموتهم، ربما كانت المذكرات لأحد أقرباء الشخص الذي يتحرى عنه دون جوزيه، ليست لدي معلومات عن أن دون جوزيه يتحرى عن أي شخص، وهذه المسألة على أي حال ليست من اختصاص المحفوظات العامة، فالمحفوظات العامة لا تتدخل في الحياة الخاصة لموظفيها، ليست مسألة خاصة، فقد قال لي دون جوزيه إنه يمثل المحفوظات، انتظري لحظة، سأستدعي نائب المدير، ولكن عندما اقترب نائب المدير من منضدة الكونتوار كانت السيدة المسنة قاطنة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي تستعد للمغادرة، فقد علمتها الحياة بأن أفضل طريقة لحماية الأسرار الخاصة هي في احترام أسرار الغير، عندما يرجع دون جوزيه من إجازته، أرجوك أن تخبره بأن عجوز الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي جاءت في طلبه، الا تريدين ترك اسمك، ليس

Twitter: @ketab_n

ضرورياً، فهو يعرف من أكون. كان بإمكان دون جوزيه أن يزفر براحة، فسيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي هي التكتم مجسداً، فهي لن تخبر نائب المدير أبداً بأنها تلقت للتو رسالة من ابنتها في العماد، وفكر دون جوزيه، لقد قلبت الانفلونزا رأسي، فما هذه إلا تخيلات لا يمكن لها أن تحدث، فليس هناك مذكرات مخبأة تحت خشب الأرضية، ولن يخطر لها الآن، بعد صمت كل تلك السنوات، أن تكتب رسالة إلى عرابتها، ولحسن الحظ أن العجوز تمتعت بالحس السليم ولم تذكر اسمها، إذ يكفي المحفوظات العامة أن تمسك بطرف هذا الخيط لتكتشف كل شيء خلال وقت قصير، البطاقات المستنسخة، تزييف وثيقة التكليف، وسيكون ذلك سهلاً عليهم مثل سهولة من يجمع أجزاء لوحة مفككة وهو يملك رسماً كاملاً لها أمام ناظريه. توجه دون جوزيه إلى البيت، ولم يشأ في هذا اليوم الأول أن يعمل بالنصائح التي قدمها إليه نائب المدير، عن التنزه، والذهاب إلى الحدائق للتعرض للشمس الجيدة على وجهه الشاحب الناقه، لكي يستعيد، بكلمة واحدة، قواه التي استنزفتها الحمى. إنه بحاجة إلى إقرار الخطوات التي يناسبه اتخاذها ابتداء من الآن، ولكنه يحتاج قبل كل ذلك إلى تهدئة قلق يراوده. هل سيترك بيته الصغير تحت رحمة المحفوظات، ملتصقاً بالجدار العملاق الذي يبدو وكأنه على وشك أن يبتلعه. لا بد أن هناك أثراً من الحمى ما يزال في رأسه المشوش لكي يفكر، فجأة، بأن ذلك هو ما حدث لبيوت الموظفين الأخرى، وأن المحفوظات قد افترستها جميعها لكي تُسمِّن جدرانها. غذ دون جوزيه الخطى، فهو لا يريد حتى أن يتصور حجم النكبة إذا ما وصل ووجد أن البيت قد اختفى، وإذا ما اختفت معه البطاقات والدفتر وضاعت هباء جهوده التي بذلها طوال أسابيع، وذهبت مغامراته أدراج الرياح بسبب ما حدث. وستكون قد اجتمعت حشود من الفضوليين ليسألوه عما إذا كان قد فقد شيئاً ثميناً

Twitter: @ketab_n

في الكارثة، وسيجيب بنعم، بعض الأوراق، فيسألونه من جديد، أهي أسهم، سندات، وثائق ديون، فهذا هو ما يفكر فيه الناس العاديون الذين بلا أفق روحي، أفكارهم تتركز على المصالح والأرباح المادية، ويعود هو إلى القول لهم نعم، ولكنه يضفي في ذهنه معاني أخرى على هذه الكلمات، إنها الأسهم التي اقترفها، والسندات التي تولاها، ووثائق الديون التي كسبها.

كان البيت ما يزال في مكانه، ولكنه بدا أصغر بكثير، أو أن المحفوظات هي التي تضخمت خلال الساعات الأخيرة. دخل دون جوزيه وهو يحني رأسه، مع أنه لم يكن بحاجة إلى الانحناء، فأسكفة الباب الخارجي ما زالت على ارتفاعها المعهود، وهو لم ينمُ جسدياً، كما يبدو واضحاً، بفعل الأسهم والسندات والديون. ذهب ليتنصت بجانب باب الاتصال، ليس لأنه يأمل في سماع صوت ما في الجانب الآخر، فالعادة في المحفوظات هي العمل بصمت، وإنما ليهدئ مشاعر الشك المضطربة التي تشغله منذ أن أمره الرئيس بالتقدم بطلب إجازة. ثم رفع بعد ذلك فراش السرير، وتناول البطاقات ورتبها حسب تسلسلها التاريخي على الطاولة، من الأقدم إلى الأحدث، ثلاث عشرة قطعة كرتونية مستطيلة، متوالية وجوه تتحول من طفلة صغيرة إلى طفلة كبيرة، من بدء مراهقة إلى ما يشبه امرأة تقريباً. وخلال تلك السنوات بدلت الأسرة بيتها ثلاث مرات، ولكنها لم تبتعد في تنقلها كثيراً إلى حدّ الاضطرار إلى استبدال المدرسة. ليس هناك ما يستحق الانهماك في تدبير خطط عمل معقدة، فالشيء الوحيد الذي يمكن لدون جوزيه عمله الآن هو الذهاب إلى عنوان المنزل المدون في البطاقة الأخيرة.

Twitter: @ketab_n

ذهب في اليوم التالي صباحاً، ولكنه قرر عدم الصعود لسؤال شاغلي البيت الحاليين ومستأجري البناية الآخرين عما إذا كانوا يعرفون الطفلة صاحبة الصورة. من المؤكد أنهم سيردون عليه بأنهم لا يعرفونها، وأنهم يعيشون هنا منذ وقت قصير أو أنهم لا يتذكرون، تفهم الأمر، فالناس يذهبون ويجيئون، والحقيقة أنني لا أتذكر شيئاً عن هذه الأسرة، ليس هناك ما يستحق عناء تقليب الدماغ، وإذا كان هناك من سيقول نعم، يبدو له أن لديه فكرة غامضة، فإنه سيضيف على الفور بأن علاقاتهم لم تكن تتعدى حدود العلاقة الطبيعية بين أناس مهذبين، وسيلّح دون جوزيه، ألم تعد تراهم، لم أرهم قط، منذ أن رحلوا لم أعد أراهم قط، يا له من أمر مؤسف، لقد أخبرتك بكل ما أعرفه، يؤسفني أنني لم أستطع أن أكون أكثر فائدة للمحفوظات العامة. الحظ الذي حالفه في العثور منذ البداية تحديداً على سيدة في الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي جيدة الاطلاع، وقريبة جداً من المصادر الأصلية للقضية، لا يمكن له أن يتكرر مرتين، ولكن دون جوزيه سيكتشف بعد وقت طويل، عندما لا يعود شيء مما يروى هنا بذي أهمية، بأن الحظ السعيد كان حليفه بصورة عجيبة في هذه الحالة، ووفر عليه عواقب وخيمة. فهو لم يكن يعرف بأن أحد ساكني البناية هو بالتحديد، وبفعل مصادفة شيطانية، أحد نائبي المدير في المحفوظات، ويمكن له أن يتخيل المشهد الرهيب بسهولة، سيطرق رجلنا الواثق دون جوزيه الباب، عارضاً البطاقة، وربما وثيقة التكليف المزيفة، فتقول له المرأة التي

Twitter: @ketab_n

تستقبله لتوقع به، عد لاحقاً، عندما يكون زوجي في البيت، فهذه الأمور هي ضمن مجال اختصاصه، وسيرجع دون جوزيه لاحقاً، بقلب مفعم بالآمال، فيصطدم بنائب مدير غاضب يُصدر على الفور أمراً بالسجن، فأنظمة المحفوظات العامة للسجل المدني، ونقول هذا بالمعنى الدقيق وليس بالمعنى المجازي، لا تقبل التصرفات الطائشة والارتجالية، والأسوأ أننا لا نعرف تلك الأنظمة كلها. لقد نجا دون جوزيه، دون أن يعرف ذلك، من أكبر كارثة في حياته الوظيفية، حين قرر هذه المرة، كما لو أن ملاكه الحارس قد نصحه هامساً في أذنه بإلحاح، التوجه في تحرياته نحو المتاجر القريبة. اكتفى إذن بالنظر إلى نوافذ البيت الذي عاشت فيه المرأة المجهولة في طفولتها، ولكي يدخل على أحسن وجه في جلده كمتحرٍ حقيقي، تخيل أنه يراها تخرج حاملة حقيبة كتبها لتذهب إلى المدرسة، وتسير حتى موقف الحافلة وتنتظر هناك، لا يجدر به أن يلحق بها مقتفياً أثرها خطوة خطوة، فدون جوزيه يعرف جيداً إلى أين هي ذاهبة، ولديه الأدلة القاطعة على ذلك مخبأة بين الفراش وسطح السرير. بعد ربع ساعة من ذلك خرج الأب، إنه يتخذ الاتجاه المعاكس، هذا هو سبب عدم مرافقته ابنته حين تذهب إلى المدرسة، اللهم إلا إذا كان هذا الأب وهذه الابنة لا يحبان السير معاً ويتذرعان بهذه الحجة، بل ربما لا يتذرعان، فهناك نوع من الترتيب المضمر بينهما، حتى لا ينتبه الجيران إلى عدم مبالاتهما المتبادل. لم يعد أمام دون جوزيه الآن إلا التحلي بقليل من الصبر، وانتظار خروج الأم من أجل المشتريات، كما هي عادة كل الأسر، وهكذا سيتاح له أن يعرف إلى أين يوجه تحرياته، أقرب محل تجاري، على بعد ثلاث عمارات، هي تلك الصيدلية، ولكن الشك خامر دون جوزيه، فور دخوله، بإمكانية الحصول على أي معلومة مفيدة هنا، فقد كان المستخدم رجلاً شاباً وجديداً في المحل، وقد قال له هو نفسه، لستُ أعرفها، إنني

Twitter: @ketab_n

أعمل هنا منذ سنتين فقط. ولكن دون جوزيه لن يفقد حماسه بهذه السرعة، فقد قرأ من الجرائد والمجلات أكثر مما هو كاف، إضافة إلى التجربة التي منحته إياها الحياة، لكي يدرك أن هذه التحريات، التي تجري على الطريقة القديمة، تكلف جهداً كبيراً، وعليه أن يمشي ويمشي، أن يذرع شوارع ودروباً، ويصعد أدراجاً، ويطرق أبواباً، وينزل الأدراج، ويوجه السؤال نفسه ألف مرة، ويتلقى الإجابات نفسها، وبالنبرة المتحفظة نفسها على الدوام تقريباً. لستُ أعرفها، لم أسمع شيئاً عن هذه الشخصية قط، ونادراً ما يحدث أن يأتي من الداخل صيدلي أكبر سناً سمعَ الحديث، ويكون رجلاً فضولياً، فيسأل، ما الذي ترغب فيه، إنني أبحث عن شخص، يرد دون جوزيه بذلك في الوقت الذي يمد يده إلى جيب سترته الداخلي ليعرض وثيقة اعتماده. لم يتوصل إلى إكمال الحركة، فقد أوقفه قلق مباغت، ولكن لم يكن القلق في هذه المرة من صنع أي ملاك حارس، فما جعله يعيد يده هو نظرة الصيدلي، فهي نظرة تبدو أشبه بخنجر، أو أشبه بمثقب، لا يمكن لأحد تحديد ذلك، فبذلك الوجه المجعد، وذلك الشعر الشائب، تكون محصلة النظر بتينك العينين هي التزام أشد المخلوقات سذاجة جانب الحذر، وربما هذا هو السبب في عدم قدرة الصيدلي على إشباع فضوله قط، فكلما أراد معرفة المزيد، تضاءل ما يخبرونه به. وهذا ما حدث مع دون جوزيه. فلم يُخرج التكليف المزيف ولم يقل إنه آت من المحفوظات العامة، واكتفى بإخراج البطاقة المدرسية الأخيرة للفتاة من جيب آخر، وقد خطر له أن يحملها معه في ساعة سعد، مدرستنا بحاجة إلى العثور على هذه السيدة بسبب شهادة لم تأت لتأخذها من السكرتارية، وكان دون جوزيه يشهد بتلذذ، بل وبحماس تقريباً، ممارسته لقدراته الاختلاقية التي لم يتصور قط أنه يمتلكها، واثقاً من أنه لم يوقع نفسه في شرك سؤال الصيدلي، وهل تبحثون عنها بعد انقضاء كل هذه

Twitter: @ketab_n

السنوات، فرد عليه، ربما لن تكون مهتمة بها، ولكن واجب المدرسة يقتضي بذل كل الجهود الممكنة لتسليم الشهادة لصاحبتها، وكنتم تنتظرون طوال هذا الوقت أن تأتي هي بنفسها، إذا أردت الحقيقة، فإن دائرة الخدمات لم تلحظ الواقعة، لقد كان سوء انتباه مؤسفاً من جانبنا، خطأ بيروقراطياً، إذا ما أردنا تفسيره بطريقة ما، ولكن هناك على الدوام متسع لإصلاح أي زلة، إذا ما كانت السيدة قد ماتت، فلن يكون ثمة متسع، لدينا أسباب للاعتقاد بأنها ما تزال على قيد الحياة، وكيف ذلك، بدانا بالاستفسار في السجل، وقد توخى دون جوزيه الحذر بتجنب النطق بكلمتي المحفوظات العامة، وتجنب بفضل ذلك، في تلك اللحظة على الأقل، أن يتذكر الصيدلي بأن هناك، بين زبائنه، نائباً لمدير المحفوظات العامة، وأنه يعيش على بعد ثلاث بوابات بذلك الاتجاه. لقد نجا دون جوزيه للمرة الثانية من العقوبة القصوى. صحيح أن نائب المدير لا يدخل إلى الصيدلية إلا في أوقات متباعدة، فمثل هذه المشتريات، كما هو شأن غيرها من المشتريات، تقوم بها زوجته، باستثناء الواقيات الذكرية التي تدفع الوساوس الأخلاقية نائب المدير لشرائها من حي آخر، ولهذا لم يكن من السهل تصور أن تدور محادثة بين نائب المدير والصيدلي، مع أنه يجب عدم استبعاد حدوث حوار آخر، كأن يقول الصيدلي لزوجة نائب المدير، حضر إلى هنا موظف مدرسي للبحث عن شخص كان يعيش، منذ زمن، في البيت الذي تعيشون فيه الآن، وقد أخبرني في إحدى اللحظات بأنه استفسر في السجل، ولكنني، وبعد مغادرته، وجدت من المستغرب أن يقول السجل بدلاً من المحفوظات العامة، يبدو لي أنه يخفي شيئاً ما، بل إنه مدّ يده في إحدى اللحظات إلى جيب سترته الداخلية وكأنه يستعد ليعرض علي شيئاً، ولكنه ندم على ذلك وصحح فعلته، فأخرج من جيب آخر بطاقة تسجيل في المدرسة، وأنا أحاول تقليب الأمر في رأسي الآن

Twitter: @ketab_n

لأتصور ما الذي يمكن أن يكونه ذلك الشيء، أظن أنه يجب علي أن أتحدث في الأمر مع زوجك، فلا يمكن لأحد أن يعرف ما الذي ينويه، وسط الشرور التي تذرع هذا العالم، ربما هو الرجل نفسه الذي كان يقف أول أمس على الرصيف، وينظر إلى نوافذ بيتنا، أهو شخص متوسط العمر، أصغر مني سناً بقليل، ويبدو على وجهه أنه كان مريضاً قبل وقت قصير، إنه هو نفسه، هذا ما كنت أظنه، حاسة شمي لم تخني قط، ولم يولد بعد من يمكنه أن يخدعني ويبيعني قطاً على أنه أرنب، من المؤسف أنه لم يطرق باب بيتي، لأنني كنت طلبت منه أن يرجع في نهاية المساء، عندما يكون زوجي في البيت، وكنا عرفنا الآن من هو هذا الشخص وما الذي يسعى إليه، سأبقى متيقظاً فلعله يرجع مرة أخرى إلى هنا، وأنا لن أنسى أن أخبر زوجي بالقصة. ولم تنس فعلاً، ولكنها لم تخبره بها كاملة، فقد أسقطت من القصة، دون أن تدري، تفصيلاً مهماً، ربما هو الأكثر أهمية من كل التفاصيل، فهي لم تقل إن الرجل الذي يتسكع حول البيت كان مريضاً قبل وقت قصير. فنائب المدير المعتاد على ربط الأسباب بالنتائج، لأن هذا هو الجوهر الحقيقي لنظام القوى الذي يحكم منذ بداية الأزمنة المحفوظات العامة، هناك حيث كل شيء كان، ومازال، وسيبقى إلى الأبد مرتبطاً بكل شيء، ذاك الذي ما يزال حياً بذاك الميت، وذاك الذي يحتضر بذاك الذي يولد، كل الكائنات بكل الأشياء، وكل الأشياء بكل الأشياء،حتى عندما يبدو أنه ليس ثمة ما يجمع، بينهم وبينهن، إلا ذاك الذي يفرقهم في الظاهر، إلا أنه ما كان لنائب المحافظ اللبيب إلا أن يتذكر دون جوزيه، ذلك الكاتب الذي بدأ في الآونة الأخيرة، رغم رأفة الرئيس التي لا تفسير لها، يتصرف بطريقة شديدة الغرابة. ومن هناك إلى حلّ طرف خيط من اللفافة، ثم اللفافة كلها، لا توجد سوى خطوة واحدة. وهو ما لن يحدث، مع ذلك، ولن يعودا لرؤية دون جوزيه في تلك الأماكن. فمن

Twitter: @ketab_n

بين المتاجر العشرة من مختلف فروع التجارة التي دخلها لتوجيه الأسئلة، بما فيها الصيدلية، وجد في ثلاثة منها فقط من يتذكر الفتاة وأبويها، فالصورة التي على البطاقة المدرسية تساعد كثيراً في التذكر بالطبع، ومن المحتمل أن الأشخاص الذين استجوبهم أرادوا أن يبدوا لطفاء، وألا يخذلوا الرجل المصاب بانفلونزا لم يشف منها تماماً كما يبدو على وجهه، والذي يحدثهم عن شهادة مدرسية لم تسلم لصاحبتها منذ عشرين سنة. عندما وصل دون جوزيه إلى بيته، كان مستنفداً ومثبط العزيمة، فمحاولته الأولى في هذه المرحلة الجديدة من التحري لم توفر له أي بداية لطريق يمكنه أن يسلكه، بل على العكس، إذ يبدو أنها وضعته أمام جدار لا يمكن تجاوزه. ارتمى الرجل المسكين على السرير سائلاً نفسه لماذا لا يفعل ما قاله له الصيدلي بتكتم ساخر، لو كنتُ مكانك لحللت المشكلة، كيف، سأله دون جوزيه، بالنظر في دليل الهاتف، فهذه هي أسهل طريقة للعثور على شخص في الأزمنة الحديثة، شكراً لاقتراحك، ولكننا فعلنا ذلك، واسم هذه السيدة غير وارد، ردّ عليه دون جوزيه معتقداً أنه سيُطبق بذلك فم الصيدلي، ولكن هذا الأخير عاد إلى الهجوم، إذا كان الأمر كذلك، فاذهب إلى مديرية المالية العامة، ففي المالية العامة يعرفون كل شيء عن الجميع. نظر دون جوزيه إلى مثير القلق ذاك، وحاول أن يداري اضطرابه، فهذا أمر لم يخطر لسيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي، وأخيراً تمكن من القول متلعثماً، إنها فكرة جيدة، سأخبر المدير بها. خرج من الصيدلية غاضباً من نفسه، كما لو أنه افتقر في اللحظة الأخيرة إلى حضور الروح للرد على إهانة، وكان مستعداً للعودة إلى البيت دون مزيد من الأسئلة، ولكنه فكر بعد ذلك مستسلماً، لقد سُكب النبيذ، ولا بد من شربه، ولم يقل مثلما قال ذاك الآخر، أبعدوا عني هذه الكأس، فأنتم تريدون قتلي. المتجر الثاني الذي دخله كان محل خردوات، والثالث

Twitter: @ketab_n

محل جزارة، والرابع محل قرطاسية، والخامس متجر أدوات كهربائية، والسادس دكان مأكولات، الروتين المعهود في الأحياء، وهكذا حتى المحل العاشر، وقد حالفة الحظ لحسن الحظ، إذ لم يحدثه أحد، بعد ذلك الصيدلي، عن مراجعة المالية أو دليل الهاتف. والآن، بينما هو مستلق على ظهره، ويداه متقاطعتان تحت رأسه، كان دون جوزيه ينظر إلى السقف ويسأله، ما الذي يمكنني عمله بدءاً من الآن، فيرد عليه السقف، لا شيء، فقد عرفتَ عنوانها الأخير، أعني، العنوان الأخير في الزمن الذي كانت ترتاد فيه المدرسة، ولم يقدم لك أي أثر يفيدك في مواصلة البحث، ما زال يمكنك بالطبع اللجوء إلى العناوين السابقة، ولكن ذلك سيكون مضيعة للوقت، ما دام تجار الشارع، وهم أكثر الناس اطلاعاً، لم يستطيعوا مساعدتك، فكيف سيتمكن الآخرون من مساعدتك، أنت ترى إذن أنه على التخلي عن الموضوع، ربما لم يعد أمامك مخرج آخر، اللهم إلا ذهابك للسؤال في المالية، ولن يكون الأمر صعباً وأنت تملك وثيقة التكليف هذه، أضف إلى ذلك أنهم موظفون مثلك، ولكن وثيقة التكليف مزيفة، سيكون من الأفضل عملياً عدم استخدامها، فلستُ أتمنى أن أكون في جلدك إذا ما فاجأوك في أحد هذه الأيام بالجرم المشهود، لا يمكن لك أن تكون في جلدي، فلستَ سوى سقف من الملاط، أجل، ولكن هذا الذي تراه مني هو الجلد أيضاً، أضف إلى ذلك أن الجلد هو كل ما نريد أن يراه الآخرون، أما تحته فلا يمكن لنا نحن أنفسنا أن نعرف من نكون، سأخبئ وثيقة التكليف، لو كنتُ مكانك لمزقتها، أو أحرقتها، سأخبئها مع أوراق المطران، أين وضعتُها، أنت من يجب أن يعرف أين هي، لا تروقني هذه النبرة التي تتكلم بها، تبدو لي نبرة فأل شؤم، حكمة السقوف لا حدود لها، إذا كنتَ سقفاً حكيماً، فقدم لي فكرة، واصل النظر إلي، فهذا يؤدي إلى نتيجة أحياناً.

Twitter: @ketab_n

الفكرة التي قدمها السقف إلى دون جوزيه هي أن يقطع إجازته ويعود إلى العمل، ستقول للرئيس إن لديك ما يكفي من القوة وتطلب منه أن يحفظ لك الأيام المتبقية لفرصة أخرى، هذا إذا كنت ما تزال تجد طريقة للخروج من الثقب الذي أدخلت نفسك فيه، حيث كل الأبواب مغلقة وليس هناك أثر يوجهك، سيستغرب الرئيس مجيء موظف إلى العمل دون أن يكون مضطراً إلى ذلك ودون أن يكون قد استُدعي إليه، ولكنك قمت بأشياء أشد غرابة بكثير في الفترة الأخيرة، لقد كنتُ أعيش بسلام قبل أن يتسلط هذا الهاجس العقيم على عقلي، البحث عن امرأة لا تعرفُ حتى أنني موجود، ولكنك تعرف أنها موجودة، وهذه هي المشكلة، من الأفضل أن أتخلى عن الأمر دفعة واحدة، هذا ممكن، هذا ممكن، وتذكر على أي حال بأن حكمة السقوف ليست هي وحدها غير المحدودة، لأن مفاجآت الحياة هي كذلك أيضاً، ما الذي تعنيه بهذا الكلام الزنخ، اعني أن الأيام تتوالى ولا تتكرر، هذه فكرة أشد زنخاً من سابقتها، ولا تقل لي إن حكمة السقوف تكمن في مثل هذه العبارات المبتذلة، علق دون جوزيه بازدراء، أنتَ لا تعرف شيئاً من الحياة إذا كنت تعتقد بوجود شيء أكثر يمكن معرفته، قال السقف ذلك ثم صمت. نهض دون جوزيه من السرير، خبأ وثيقة التكليف في الخزانة، بين أوراق المطران، ثم بحث عن دفتر الملاحظات وراح يدون أحداث الصباح المحبطة، مشدداً بصورة خاصة على نبرة الصيدلي المنفرة ونظرته المرهفة. وكتب في نهاية القصة، كما لو أن الفكرة هي من بنات أفكاره، اعتقد أنه من الأفضل أن أعود إلى العمل. وبينما كان يخبئ الدفتر تحت الفراش تذكر أنه لم يتناول الغداء، قال له ذلك رأسه، وليس معدته، فمع مرور الوقت وإهمال الطعام ينتهي الأمر بالناس إلى عدم سماع منبه الشهية. ولو أن دون جوزيه سيواصل إجازته لما أهمه أن يندس في الفراش بقية اليوم، والبقاء دون طعام،

Twitter: @ketab_n

وعدم العشاء، وأن ينام طوال الليل إن أمكن، أو أن يلجأ إلى السبات الإرادي لمن قرر أن يدير ظهره لأحداث الحياة المزعجة. إنما عليه أن يغذي جسده لكي يعمل في اليوم التالي، فهو يمقت أن يوصله الضعف ثانية إلى التعرق البارد والاغماءات المضحكة أمام شفقة زملائه المتكلفة ونفاد صبر رؤسائه. خفق بيضتين، وأضاف إليهما بعض شرائح السجق، ورشة لا بأس بها من الملح الخشن، وضع زيتاً في مقلاة، وانتظر أن تسخن إلى الحد المضبوط، وقد كانت هذه هي موهبته الوحيدة في الطبخ، وما سوى ذلك يتلخص في فتح المعلبات. أكلَ طبق العجة بتأنٍ، بتقطيعه إلى أجزاء هندسية، وحاول إطالة أمد ذلك أكثر ما يمكن، لكي يشغل الوقت، وليس لترف التلذذ بالطعام. ولأنه لا يريد أن يفكر قبل كل شيء. الحوار المتخيل والميتافيزيقي مع السقف أفاده في التغطية التامة على تشتت روحه، والإحساس بالرعب الذي تثيره فيه فكرة أنه لن يكون لديه شيء يعمله في الحياة إذا ما كان بحثه عن المرأة المجهولة قد انتهى، وهو ما لديه أسباب للاعتقاد به. كان يشعر بعقدة قاسية في حنجرته، مثلما كان يحدث له في طفولته عندما يعنفونه لدفعه إلى البكاء، وكان آنذاك يتحمل، يتحمل، إلى أن تطفر منه الدموع في نهاية المطاف، مثلما بدأت تطفر منه الآن، في نهاية المطاف. أزاح الطبق جانباً، ترك رأسه يهوي على ذراعيه المتقاطعتين وبكى دون حياء، ولم يكن هناك أحد على الأقل في هذه الساعة ليضحك منه: وهذه واحدة من تلك الحالات التي لا يمكن فيها للسقوف أن تفعل شيئاً لمساعدة الأشخاص المحزونين، وتضطر إلى الاكتفاء بالانتظار هناك في الأعلى إلى أن تمر العاصفة، وتنفس الروح عن كربها، ويتعب الجسد. وهذا هو ما حدث لدون جوزيه. فبعد بضع دقائق أحس بالتحسن، مسح دموعه بفظاظة بكم قميصه ومضى ليغسل الطبق وأدوات الطعام. كان أمامه المساء كله وليس لديه ما يفعله. فكر

Twitter: @ketab_n

في زيارة سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، وأن يروي لها ما يحدث إلى هذا الحد أو ذاك، ولكنه قدّر بعد ذلك أن الأمر لا يستحق العناء، فقد أخبرته هي بكل ما تعرفه، وربما انتهى بها الأمر إلى سؤاله عن الشياطين التي تدفع المحفوظات العامة إلى بذل كل هذا الجهد من أجل شخص عادي، من أجل امرأة ليست لها أية أهمية، وسيكون ضرباً من الزيف غير الوقور، ومن البلاهة البالغة، أن يرد عليها بأننا جميعنا في نظر المحفوظات العامة للسجل المدني متساوون، مثلما هي الشمس بالنسبة إلى الجميع عندما تطلع، هناك أشياء من غير المناسب أن تقال أمام شخص عجوز إذا كنا لا نريده أن يضحك منا في وجهنا. تناول دون جوزيه من أحد أركان البيت حزمة من المجلات والصحف القديمة، من تلك التي كان قد قص منها الأخبار والصور، ويمكن أن يكون قد فاته شيء مهم لم ينتبه إليه أو أن هناك فيها بداية حديث عن أحدهم يبشر بوعد مقبول في دروب الشهرة الشاقة. وعاد دون جوزيه إلى مجموعاته.

كان أكثر من فوجئ بينهم جميعاً هو المدير. فقد دخل، كما هي العادة، حين كان جميع العاملين في أماكنهم يباشرون عملهم، وتوقف لثلاث ثوان إلى جانب منضدة دون جوزيه، ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة. توقع دون جوزيه أن يتم إخضاعه إلى استجواب مباشر حول أسباب عودته السابقة لأوانها إلى العمل، ولكن الرئيس اكتفى بسماع التفسيرات التي قدمها إليه على الفور نائب المدير المعني بالقسم، والذي صرفه بعد ذلك بحركة حاسمة من يده اليمنى، وكان إصبعاه السبابة والوسطى فيها ملتصقين ومشدودين، بينما بقية الأصابع شبه مضمومة، وهو ما يعني، حسب قواعد الإيماءات في المحفوظات، أنه غير مستعد لسماع كلمة أخرى حول الموضوع. كان دون جوزيه، المشتت بين توقعه الأول بأن يتم استجوابه وبين اطمئنانه إلى أنهم قد تركوه

Twitter: @ketab_n

بسلام، يحاول أن يجلو أفكاره، وأن يركز حواسه على العمل الذي وضعه المأمور فوق منضدته، وهو أكثر من عشرين شهادة ميلاد جديدة يتوجب نقل المعلومات منها إلى البطاقات، وأرشفة هذه البطاقات في أدراج الكونتوار، وفق الترتيب الأبجدي المعمول به. كان عملاً بسيطاً، ولكنه ينطوي على مسؤولية، وهو عمل يتميز، بالنسبة إلى دون جوزيه، الذي ما يزال يعاني ضعفاً في ساقيه ورأسه، بإمكانية إنجازه جالساً. أخطاء النساخ هي آخر ما يمكن التسامح فيه، ولن يفيد في شيء قولهم، لقد سهوت، بل على العكس، فاعترافهم بالسهو هو اعتراف بأنهم كانوا يفكرون في شيء آخر، بدلاً من تركيز اهتمامهم على الأسماء والبطاقات التي تأتيها أهميتها القصوى من كونها هي، في الحالة الآنية، من تمنح وجوداً شرعياً لواقع الوجود. وخصوصاً اسم الشخص الوليد. فأي خطأ بسيط في النسخ، مثل تبديل الحرف الأول من إحدى الكنيتين، سيؤدي إلى وضع البطاقة في غير موقعها، بل وبعيداً جداً عن المكان الذي يجب أن تكون فيه، كما قد يحدث في هذه المحفوظات العامة للسجل المدني، حيث الأسماء كثيرة، إذا لم نقل إنها كل الأسماء. فلو أن الكاتب الذي نسخ، في أزمنة ماضية، اسم دون جوزيه، كتب شوزيه، مخطئاً ذهنياً بسبب تشابه اللفظ الذي يكاد يصل إلى حد التطابق، فسوف تكون الطامة الكبرى في العثور على البطاقة الضالة لتسجيل أي واحدة من الوقوعات الثلاثة المألوفة، أي الزواج، والطلاق، والوفاة، وهي وقوعات يمكن تجنب اثنين منها إلى هذا القدر أو ذاك، أما الثالثة فلا مهرب ولا خلاص منها على الإطلاق. ولهذا راح دون جوزيه ينسخ بكل حذر، حرفاً فحرفاً، إثباتات حياة هذه الكائنات الجديدة التي عُهد إليه بها، وكان قد أنجز ست عشرة شهادة ميلاد، وسحب بيده الآن السابعة عشرة، وهيا البطاقة، ولكن يده بدأت ترتجف فجأة، وزاغت عيناه، وغطى العرق بشرة جبهته. فالاسم الذي

Twitter: @ketab_n

أمامه، وهو لشخص من الجنس الأنثوي، مطابق في كل شيء تقريباً لاسم المرأة المجهولة، وليس هناك سوى فرق وحيد في كنيتها الثانية، مع أن الحرف الأول من هذه الكنية هو نفسه. وهكذا فإن كل الاحتمالات تشير إلى أن هذه البطاقة، بهذا الاسم الذي تحمله، يجب أن تؤرشف بعد تلك البطاقة، ولهذا نهض دون جوزيه عن كرسيه فور انتهائه من عملية التسجيل، كمن لم يعد قادراً على التحكم بجزعه مع اقتراب لحظة لقاء منتظر بلهفة، وهرع نحو الدرج المناسب في خزانة البطاقات، وراح يمر بأصابعه العصبية فوق البطاقات، بحث، ووجد المكان. لم تكن بطاقة المرأة المجهولة في مكانها. فومضت الكلمة المشؤومة على الفور في رأس دون جوزيه، ماتت. لأن دون جوزيه يعرف بالضرورة أن غياب بطاقة من الأرشيف تعني دون ريب موت صاحبها، فكم من بطاقات لا حصر لها سحبها هو نفسه من هنا، خلال خمس وعشرين سنة من عمله كموظف، ونقلها إلى أرشيف الموتى، ولكنه يرفض الآن تقبل ما هو جلي، في أن يكون هذا هو سبب اختفاء البطاقة، ربما وقع إهمال وبدّل أحد الزملاء غير الأكفاء مكان البطاقة، وربما هي إلى الأمام قليلاً أو إلى الوراء قليلاً، فدون جوزيه يريد، بدافع اليأس، أن يخدع نفسه، مع أنه لم يحدث قط، طوال قرون وقرون من عمل المحفوظات العامة، أن وُضعت بطاقة من هذا الأرشيف في غير مكانها، ولكن هناك احتمال واحد، احتمال واحد فقط، بأن تكون المرأة ما تزال على قيد الحياة، وذلك بأن تكون بطاقتها موجودة بصورة مؤقته بين يدي أحد الكتبة من أجل تسجيل واحدة من الوقوعات الجديدة، ربما تكون قد تزوجت مرة أخرى، هكذا فكر دون جوزيه، ولهنيهة، هدّأ التناقض غير المنتظر الذي سببته له الفكرة من قلقه. بعد ذلك، ودون أن ينتبه تقريباً لما يقوم به، وضع البطاقة التي كان قد استنسخها عن الإبلاغ بالولادة في مكان البطاقة المختفية، وعاد

Twitter: @ketab_n

بساقين مرتجفتين إلى طاولته. لا يمكنه أن يسأل زملاءه إذا ما كانت لديهم، بالمصادفة، بطاقة السيدة، ولا يمكنه التجول حول طاولاتهم ناظراً بطرف عينه إلى الأوراق التي يعملون بها، لا يمكنه أن يفعل شيئاً باستثناء مراقبة درج البطاقات ليرى إذا ما كان أحدهم سيعيد المستطيل الكرتوني المسحوب من مكانه نتيجة خطأ أو لسبب أقل روتينية من الموت. راحت الساعات تمر، وأفسح الصباح المجال للمساء، وما استطاع دون جوزيه تناوله في الغداء لم يكن شيئاً يُذكر، لا بد أن هناك شيئاً في حنجرته يجعل هذه الغصات تتوالى بسهولة، وهذا الضيق، وهذا الغم. لم يفتح أي واحد من زملائه درج البطاقات ذاك، ولم تجد أي بطاقة شاردة طريق عودتها، فالمرأة المجهولة قد ماتت.

Twitter: @ketab_n

رجع دون جوزيه هذه الليلة إلى المحفوظات. كان يحمل مصباح الجيب ولفافة حبل متين طوله مئة متر. وكان في المصباح بطارية جديدة، تدوم لعدة ساعات من الاستخدام المتواصل، ولكن دون جوزيه الذي استخلص العبر من الصعوبات التي وجد نفسه مضطراً إلى مواجهتها، خلال مغامرته في تسلق المدرسة والسطو عليها، تعلم من الحياة أن كل الاحتياطات تبقى قليلة، خصوصاً عندما تخرج عن سبل السلوك السوية النزيهة لتتساق عبر دروب الجريمة الملتوية. وليتصور المرء عطباً يصيب لمبة المصباح الصغيرة، أو ليتصور أن العدسة التي تحميها وتركز النور قد أفلتت من موضعها، فليتصور أن المصباح، مع البطارية والعدسة واللمبة السليمة، يسقط فجأة في ثقب لا يمكن الوصول إليه بالذراع، أو حتى بخطاف، ولافتقار دون جوزيه إلى خيط آريان الحقيقي، لأنه لا يجرؤ على استخدام ذلك الخيط بالرغم من أن درج منضدة الرئيس، حيث يُحتفظ به للمناسبات، لا يُقفل أبداً، فإنه سيستخدم لفافة عادية وفظة من حبل اشتراه من السوق ليحل محل ذلك الخيط ويقود عالم الأحياء الذي يتهيأ، في هذه اللحظة، للدخول إلى مملكة الأموات. وباعتباره موظفاً في المحفوظات العامة، فإن دون جوزيه يتمتع بكل الصلاحية الشرعية للوصول إلى أي وثيقة من وثائق السجل المدني، ولا حاجة إلى التكرار، بأن هذا هو جوهر عمله، ولهذا قد يستغرب البعض من أنه، حين لحظ غياب البطاقة، لم يقل للمأمور المعني، سأدخل داخلاً للبحث عن بطاقة امرأة ماتت. فالمسألة ليست

Twitter: @ketab_n

في إعلان ذلك وحسب، إذ عليه أن يقدم مبرراً ذا سند إداري ومنطق بيروقراطي، لأن المأمور لن يمتنع عن سؤاله، ولماذا تريدها، ولا يمكن لدون جوزيه أن يرد عليه، لكي أتأكد من موتها، فأين ستصل الأمور بالمحفوظات العامة إذا ما بدأت تتشغل في إشباع هذا النوع من الفضول أو غيره، وهو ليس بالفضول المرضي وحسب، وإنما هو غير منتج أيضاً. إن أسوأ ما يمكن أن تسفر عنه حملة دون جوزيه الليلية هذه هو ألا يتمكن من العثور على أوراق المرأة المجهولة في الفوضى التي تعم أرشيف الموتى. فمن المؤكد، بادئ ذي بدء، ولأن الأمر يتعلق بوفاة حديثة، أن الأوراق يجب أن تكون في ما يعرف بالمدخل في اللغة المتداولة، ولكن المشكلة تبدأ هنا في استحالة معرفة، أين هو بالضبط مدخل أرشيف الموتى. وسيكون من التبسيط الشديد القول، مثلما يلح بعض المتفائلين الجامحين، بأن حيز الموتى يبدأ بالضرورة حيث ينتهي حيز الأحياء، والعكس بالعكس، وربما كانت الأمور في العالم الخارجي تجري، بطريقة ما، على هذا النحو، حيث ليس من المألوف رؤية الموتى مختلطين مع الأحياء في الشوارع، اللهم إلا في أحداث استثنائية، وإن تكن ليست شديدة الاستثنائية عندما نرغب في ذلك، مثلما هي في الكوارث الطبيعية أو النزاعات الحربية. هذا إذن ممكن الحدوث، ليس فقط في المحفوظات العامة، لأسباب بنيوية. إنه ممكن الحدوث، وهو يحدث فعلاً. لقد أوضحنا من قبل بأنه بين وقت وآخر، عندما يبدأ الاحتقان، الذي يسببه تراكم الأموات المستمر الذي لا يمكن وقفه، في الحيلولة دون تنقل الموظفين في الممرات، مما يعرقل بالتالي أي قدرة على البحث عن الوثائق، فإنه لا يعود هناك مفر من هدم الجدار الخلفي وإعادة بنائه على بُعد بضعة أمتار إلى الوراء. ومع ذلك، وبسبب سهو غير مقصود من جانبنا، لم نذكر في حينه، أن هناك عاملين خبيثين يسببان ذلك الاحتقان. ففي المقام الأول، وخلال الوقت الذي

Twitter: @ketab_n

يجري فيه بناء الجدار، لا يكون هناك بد من أن تأخذ بطاقات وملفات الموتى الحديثين، بسبب عدم وجود الحيز المخصص لها في أقصى البناء، بالاقتراب بصورة خطرة، في هذا الجانب، وملامسة ملفات الأحياء المرتبة في أقصى الجزء الداخلي من الخزائن المخصصة لهم، فينشأ عن ذلك حزامٌ حالات اختلاط حساسة بين من لا يزالون أحياء ومن هم في عداد الأموات. وفي المقام الثاني، عندما ينتهي بناء الجدار ومدّ السقف، ويصير بإمكان أرشيف الموتى أن يعود إلى وضعه الطبيعي، فإن ذلك الاختلاط بالذات، ويمكن تسميته بالاختلاط الحدودي، يجعل من المستحيل، أو من العسير جداً على الأقل، نقل مجمل الدخلاء، مع الاعتذار من هذه الكلمة غير المناسبة، إلى ظلمة العمق. ويضاف بعد ذلك إلى هاتين العقبتين غير الصغيرتين، واقع أن الكاتبين الأحدث عهداً، ودون أن يعلم الرئيس أو الزملاء بذلك، لا يعيرون اهتماماً بين حين وآخر، إلى أنهما يفلتان ملف أحد الموتى في أي مكان، دون أن يجهدا نفسيهما في الذهاب إلى عمق المبنى ليريا إذا ما كان هناك مجال فارغ أو لا، سواء لقصور في إعدادهما المهني أو لضعف خطير في أخلاقهما الشخصية. فإذا لم يكن الحظ في هذه الرزمة حليف دون جوزيه، وما لم يسعفه القدر، فإن مغامرة اقتحام المدرسة، إذا ما قورنت بما ينتظره، وعلى الرغم من المجازفة التي انطوت عليها، ستبدو أشبه بنزهة.

قد يتساءل المرء عما سيستفيده دون جوزيه من حبل طويل، طوله مئة متر، إذا كان امتداد المحفوظات العامة، بالرغم من أعمال التوسيع المتتالية، لم يتجاوز الثمانين متراً بعد. هذا النوع من الشكوك خاص بمن يتصور بأن كل شيء في الحياة يمكن تحقيقه بالاتباع الدقيق لخط مستقيم، وأنه من الممكن على الدوام الذهاب من مكان إلى آخر عبر أقصر الدروب، وربما أمكن لبعض الناس، في العالم الخارجي، أن

Twitter: @ketab_n

يحكموا بأنهم استطاعوا عمل ذلك، أما هنا، حيث يتقاسم الأحياء والأموات المجال نفسه، فلا بد في بعض الأحيان من الدوران طويلاً من أجل العثور على أحدهم، يجب الالتفاف حول جبال من الحزم، وأعمدة من محاضر القضايا، وأكداس من البطاقات، وهياكل من المخلفات القديمة، والتقدم عبر مضائق مظلمة، بين جدران من الورق المتسخ التي تصل إلى الأعلى، فإن أمتاراً وأمتاراً من الحبل يجب مدّها، وتركها إلى الخلف، مثل أثر متعرج وبصير مخطوط على الغبار، ولا توجد طريقة أخرى لمعرفة من أين يجب المرور، وليست هناك وسيلة أخرى للعثور على طريق العودة. ربط دون جوزيه أحد طرفي الحبل بإحدى قوائم منضدة الرئيس، وهو لم يفعل ذلك عن قلة احترام، وإنما ليكسب بعض الأمتار الإضافية، ثم ربط الطرف الآخر بكاحله، وأفلت اللفافة وراءه، على الأرض، لتنسل معه في كل خطوة يخطوها، وتقدم من أحد الممرات المركزية في أرشيف الأحياء. كانت خطته تقضي ببدء البحث في فسحة العمق، هناك حيث يجب أن يكون ملف المرأة المجهولة وبطاقتها، مع أن الاحتمال ضئيل، للأسباب المعروضة آنفاً، في أن يكون إيداعها قد تم بصورة نظامية وصحيحة. وكموظف من أزمنة أخرى، تربى وفق المناهج القديمة وانضباطها، كانت طباع دون جوزيه الصارمة تنفر من الاصطدام بتهاون الأجيال الجديدة ولامسؤوليتها، فبدأ البحث من المكان الذي لا يمكن أن يكون قد أودع فيه ميت إلا بمخالفة واضحة ومستنكرة لقواعد الأرشفة الأساسية. كان يعرف أن الصعوبة الكبرى التي سيواجهها هي انعدام الضوء. فباستثناء منضدة الرئيس، التي يتواصل فوقها وميض المصباح الأبدي الخافت، تبقى المحفوظات كلها في العتمة، غارقة في ظلام دامس. وإشعال مصابيح أخرى على امتداد المبنى، بالرغم من الشحوب الذي هي فيه، سيكون مجازفة كبيرة، إذ يمكن لشرطي متيقظ يتجول في الحي، من أولئك الذين

Twitter: @ketab_n

يؤرقهم أمن المجتمع، أن يلمح من خلال النوافذ العالية الضوء الشاحب ويطلق نداء الإنذار على الفور. ولهذا لن يكون لدى دون جوزيه من إنارة سوى دائرة الضوء الخافت التي تنوس أمامه على إيقاع خطواته، ومع ارتجاف يده التي تحمل المصباح أيضاً. فهناك فرق كبير بين المجيء إلى أرشيف الموتى خلال ساعات العمل العادية، بحضور الزملاء، في الخلف، الذين على الرغم من قلة ميلهم إلى التضامن، مثلما رأينا، يهرعون على الدوام في حالة الخطر الحقيقي أو عند حدوث نوبة عصبية شديدة، وخصوصاً إذا ما أمرهم الرئيس، اذهب وانظر ما الذي جرى لذاك، وبين المجازفة بالمجيء وحيداً، وسط ليلة مدلهمة، عبر سراديب الموتى هذه، محاصراً بالأسماء، منصتاً إلى وشوشة الأوراق، أو دمدمة الأصوات، فمن الذي يمكنه التمييز.

وصل دون جوزيه إلى نهاية خزائن الأحياء، وهو يبحث الآن عن ممر ليصل إلى عمق المحفوظات العامة، في البداية، ووفق المخطط الذي وُضع لشغل الحيز، كان مقرراً للممر أن يمتد على طول منتصف الأرضية، بحيث يقسم المبنى المستطيل إلى قسمين متساويين، ولكن انهيارات الملفات، والتي يتواصل حدوثها مهما دفعوا كتل الأوراق إلى الوراء، حوّلت ما يجب أن يكون ممراً مستقيماً وسريعاً إلى شبكة معقدة من الدروب والمسالك، حيث تبرز في كل لحظة العوائق والدروب المسدودة. في النهار، عندما تكون كل الأنوار مضاءة، يكون أسهل نسبياً على الباحث أن يحافظ على التوجه الصحيح، فيكفيه أن يمضي متيقظاً، محترساً، وأن ينتبه إلى اتباع السبل التي يرى فيها قدراً أقل من الغبار، فهذه هي العلامة التي تدل على كثرة المرور من هناك، وحتى الآن، على الرغم من بعض حالات الذعر، وبعض القلق من التأخر، لم تقع قط أي حالة دخل فيها موظف ولم يعد من حملته. ولكن ضوء مصباح الجيب ليس جديراً بالثقة، ويبدو أنه يختلق ظلالاً من تلقاء

Twitter: @ketab_n

نفسه، وقد كان على دون جوزيه، الذي لا يجرؤ على استخدام مصباح المدير، أن يشتري مصباحاً من تلك المصابيح الحديثة، شديدة القوة، والتي يمكن لها أن تنير حتى نهاية العالم. صحيح أن الخوف من الضياع لم يكن يثبط من عزيمته كثيراً، وكان الشدّ الدائم للحبل المربوط بكاحله يطمئنه إلى حد ما، ولكنه إذا ما راح يلف ويدور هنا، ويمشي في دوائر، ويتعثر باللفافة، فإنه سينتهي إلى عدم القدرة على أن يخطو خطوة إضافية واحدة، وسيضطر إلى العودة إلى الوراء، للبدء من جديد. وكان قد اضطر أحياناً إلى عمل ذلك لأسباب أخرى، حين ينحشر الحبل، وهو حبل رفيع، بين جبال الورق ويعلق هو في الزوايا، ويبقى هناك دون قدرة على التحرك إلى الأمام أو إلى الوراء. بسبب كل هذه المشاكل والعوائق، يمكن إدراك أنه لا يمكن للتقدم إلا أن يكون بطيئاً، وأن معرفة دون جوزيه بطبوغرافية المكان لا تكاد تفيده في شيء، وخصوصاً الآن بالذات وقد انهالت كومة ضخمة من الملفات سدت على ارتفاع قامة ما كان له مظهر طريق مؤكد، مثيرة غمامة كثيفة من الغبار، يحوم العث في وسطها مفزعاً، وشبه شفاف على ضوء المصباح. دون جوزيه يشمئز من هذه الحشرات التي يمكن القول للوهلة الأولى بأنها وُضعت في العالم للزينة، مثلما يشمئز من اللواحس التي تتكاثر هنا أيضاً، فهي، جميعها، الكائنات الشرهة المسؤولة عن تلف الكثير من الذاكرة، ذاكرة أبناء كثيرين عن آبائهم، والكثير من الأملاك المورثة التي سقطت في أيدي الدولة النهمة بسبب نقص الأهلية القانونية للورثة، على الرغم من الأيمان المغلظة بأن الوثيقة التي تُثبت ذلك قد أُكلت، لُوثت، قُرضت، التُهمت من قبل مملكة الحيوان التي تعيث فساداً في المحفوظات العامة، وأن هذا الأمر يجب أن يؤخذ في الاعتبار ولو لمجرد الدافع الإنساني، ولكن ليس هناك لسوء الحظ من هو قادر على إقناع وكيل الأرامل واليتامى بأن الواجب يفرض عليه

Twitter: @ketab_n

أن يقف إلى جانبهم، ولكنه ليس موجوداً، فإما أن تظهر الوثيقة أو لا يكون هناك ميراث. أما بالنسبة للفئران، فلا حاجة إلى الحديث عن قدرتها التخريبية. ولكن، على الرغم من الأضرار التي تُحدثها، فإن لهذه القوارض جانبها الإيجابي، فلو أنها لم تكن موجودة لتفززت المحفوظات العامة في أماكن اتصال جدرانها، أو لكان لا بد من مضاعفة طولها. وقد يفاجأ مراقب غافل لعدم تكاثر مستوطنات الفئران هنا إلى حد القضاء التام على الملفات، خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار الاستحالة الأكثر من جلية لعملية تطهير فعالة مئة بالمئة. وتفسير ذلك، مع أن هناك من يشكك بصحته الكاملة، هو في عدم وجود ماء أو رطوبة جوية كافية، ولأن هذه الحيوانات محكومة بحمية جافة في طعامها في الوسط الذي اختارته لحياتها أو حيث ألقى بها سوء الحظ، فقد أدى ذلك إلى ضمور ملحوظ في العضلات التناسلية مع نتائج سلبية جداً في ممارستها الجماع. ولمعارضة هذه المحاولة في التفسير، هناك من يصر على التأكيد بأنه لا علاقة للعضلات بذلك، مما يعني بقاء الجدل مفتوحاً.

في أثناء ذلك، كان دون جوزيه المغطى بالغبار، وبأسمال ثقيلة من نسيج العنكبوت ملتصقة بشعره وكتفيه، قد وصل أخيراً إلى الفسحة الخاوية بين آخر الأوراق المؤرشفة وجدار العمق، حيث يفصل بينهما حوالي ثلاثة أمتار تشكل ممراً غير منتظم، يزداد ضيقاً مع مرور كل يوم، ليصل ما بين الجدارين الجانبيين. الظلام في هذا المكان مطبق بالمطلق. والضوء الخارجي الضعيف الذي يمكن له أن يتسرب من طبقات الأوساخ التي تغطي، من الداخل والخارج، الكوى الجانبية، وخصوصاً الأخيرة منها في كل جانب، وهي الأقرب إلى المكان، لا يتمكن من الوصول إلى هنا بسبب التراكم العمودي لحزم الوثائق التي تكاد تصل إلى السقف. أما جدار العمق الخلفي، بكامله، فهو، لسبب لا

Twitter: @ketab_n

يمكن تفسيره، أعمى، أي أنه يخلو حتى من كوة يمكنها أن تساعد الآن ضوء المصباح الشحيح. لم يستطع أحد فهم عناد جمعية المهندسين التي عارضت، متذرعة بتبرير جمالي ضئيل الأهمية، إجراء تعديل على التصميم التاريخي والسماح بفتح نوافذ في الجدار كلما تطلب الأمر هدمه وإعادة بنائه، بالرغم من أنه يمكن لأي جاهل في الموضوع أن يدرك أن الأمر لا يعدو أن يكون إرضاء لحاجة وظيفية. كان يجب على أولئك المهندسين أن يكونوا هنا الآن، ليعرفوا بأنفسهم كم يكلف هذا من مشقة، تمتم دون جوزيه بذلك متأففاً. كانت أكداس الأوراق المركونة على هذا الجانب وذاك من الممر المركزي ذات ارتفاعات مختلفة، ويمكن لبطاقة المرأة المجهولة وملفها أن يكونا في أي واحدة منها، مع احتمال أكبر، على أي حال، في أن يُعثر عليهما في الأكوام الواطئة، هذا إذا كان قانون بذل الحد الأدنى من الجهد هو المفضل للكاتب المكلف بالتخزين. ولسوء الحظ أننا لا نعدم في إنسانيتنا التائهة هذه أرواحاً شديدة الالتواء، بحيث لا يكون مستغرباً أن تخطر للموظف الذي حفظ ملف وبطاقة المرأة المجهولة، الفكرة الخبيثة، لمجرد الضفينة المجانية، بإسناد السلّم اليدوي الضخم المستخدم هنا إلى أعلى كومة من الأوراق، ووضع الملف فوقها، في القمة، فهكذا هي شؤون هذا العالم.

بدأ دون جوزيه البحث بمنهجية، ودون تسرع، حتى أنه تذكر كما يبدو إيماءات وحركات الليلة التي أمضاها في سقيفة المدرسة، عندما كان من المحتمل أن تكون المرأة المجهولة ما تزال على قيد الحياة. لكن الغبار الذي يغطي الأوراق هنا أقل بكثير، وهو ما يمكن فهمه بسهولة إذا ما أخذنا في الاعتبار إنه لا يكاد يمر يوم إلا وتُجلب فيه ملفات وبطاقات أشخاص متوفين، وهو ما يعادل القول، بلغة التخيل، ولكن باستياء واضح، إن الموتى الذين في أقصى المحفوظات العامة للسجل المدني يبقون نظيفين دوماً. وفي الأعلى فقط، حيث الأوراق تكاد تبلغ

Twitter: @ketab_n

السقف، مثلما قيل سابقاً، يتهادى الغبار الذي يغربله الزمن ليستقر بهدوء فوق الغبار الذي غربله الزمن، إلى حد أنه لا بد من نفض أغلفة الملفات الموجودة في الأعلى وهزها بقوة، إذا أردنا أن نعرف من هم أصحابها. وإذا لم يجد دون جوزيه ما يبحث عنه في المستويات السفلى، فلا بد له من التضحية مجدداً بتسلق سلم يدوي، ولكنه لن يكون بحاجة في هذه المرة إلى البقاء متسلقاً لأكثر من دقيقة واحدة، ولن يكون لديه بالتالي متسع من الوقت ليصاب بالدوار، فبنظرة واحدة سيكشف له ضوء المصباح إذا ما كان الملف قد وُضع هناك خلال الأيام الأخيرة. مقدراً أن وفاة المرأة المجهولة، قد جرت، على الأغلب، منذ وقت قصير، قبل أيام قليلة أو بعد أيام قليلة، حسب اعتقاد دون جوزيه، من فترتي تغيبه عن العمل، خلال أسبوع الأنفلونزا أولاً، وبعد ذلك الإجازة القصيرة، ويمكن له مراجعة الوثائق في كل كومة بسرعة كبيرة، وحتى لو كان موت المرأة قبل ذلك، أي بعد اليوم الذي وقعت فيه بطاقة المرأة بين يدي دون جوزيه مباشرة، فإن الزمن الذي انقضى ليس كبيراً بحيث يكون الملف محفوظاً الآن تحت عدد كبير من الملفات الأخرى. هذا التأمل المتكرر للأوضاع التي قد تستجد، وهذا التفكير المتواصل، وهذه الموازنة التفصيلية بين ما هو واضح وما هو غائم، ما هو مباشر وما هو مختلط، ما هو نظيف وما هو متسخ، كانت تمر كلها، مثلما نرويها تماماً، في رأس دون جوزيه. وقد يبدو الزمن الذي استغرقناه في شرحها، أو بعبارة أدق، في استنساخها، مبالغاً فيه ظاهرياً، وهذه هي النتيجة الحتمية، ليس لتعقيد العوامل المذكورة، سواء في المضمون أو في الشكل، وحسب، وإنما كذلك لطبيعة الدوائر الذهنية شديدة الخصوصية لكاتبنا العمومي. وهو سيمر الآن بتجربة عصيبة. اقترب دون جوزيه من أحد الجدارين الجانبيين، متقدماً، خطوة خطوة، على طول الممر الضيق المكون، كما أسلفنا، من أكداس الوثائق ومن الجدار

Twitter: @ketab_n

الخلفي. في البداية، وبصورة مجردة، لم يخطر ببال أحد أن اعتبار ممر كهذا ضيقاً، بمرضه المريع الذي يصل إلى قرابة الثلاثة أمتار، ولكن إذا ما جرى التفكير بهذا العرض في علاقته بطول الممر الذي، نكرر مرة أخرى، يمتد من جدار جانبي إلى جدار جانبي، سيكون علينا عندئذ أن نتساءل كيف أمكن لدون جوزيه، ونحن نعرف أنه يصاب بحالات هيجان جدية من النوع النفسي، مثلما هو أمر الدوار والشرود، ألا يعاني حتى الآن، في هذا الحيز المغلق والخانق، من نوبة عنيفة من رهاب الأماكن المغلقة. وربما وجدنا التفسير في أن الظلام، تحديداً، لا يتيح له إدراك حدود هذا الحيز، التي يمكن لها أن تكون هنا أو هناك، وهو لا يكاد يرى، أمامه، سوى كتلة الأوراق المألوفة والمطمئنة. ولم يكن من عادة دون جوزيه المكوث طويلاً في هذا المكان قط، فهو يصل إليه عادة ليضع فيه وثائق حياة منتهية ثم يرجع من فوره إلى طمأنينة منضدة عمله، وإذا كان صحيحاً أنه منذ دخوله، في هذه المرة، إلى أرشيف الموتى، لم يستطع التخلص من انطباع قلق، يحيط به كحضور مجسد، فقد نسبه إلى ذلك الخوف من المبهم والمجهول الذي يملك أشجع الشجعان الحق الإنساني في الشعور به. فدون جوزيه لم يشعر بالخوف، بالمعنى الذي تتضمنه كلمة خوف، حتى اللحظة التي وصل فيها إلى نهاية الممر ووجد نفسه قبالة الجدار. انحنى ليتفحص بعض الأوراق التي على الأرض تقريباً، والتي يمكن لها أن تكون أوراق المرأة المجهولة، وقد ألقى بها الموظف اللامبالي بإهمال، وفجأة، وحتى قبل أن يتاح له الوقت لتفحصها، تخلى عن كونه دون جوزيه الكاتب في المحفوظات العامة للسجل المدني، وعن أنه في الخمسين من عمره، وصار الآن جوزيه صغيراً بدأ لتوه الذهاب إلى المدرسة، إنه الطفل الذي لا يريد أن ينام لأن كابوساً ينتابه في كل ليلية، وهو الكابوس المتسلط نفسه، فحافة الجدار هذه، هذا الحائط المسدود، هذا السجن،

Twitter: @ketab_n

وهناك، في الطرف الآخر من الممر، مخبأ في الظلام، يوجد حجر صغير جداً وعادي، مجرد حجر صغير آخذ في النمو ببطء، لا يمكن له أن يراه الآن بعينيه، ولكن ذاكرة الأحلام التي حلم بها تقول له إنه هناك، إنه حجر يتضخم ويتحرك، وكأن الحياة قد دبت فيه، حجر يطفح من جنباته ومن أعلاه، يصعد الجدران ويتقدم متجرجراً باتجاهه، متكوراً على نفسه، كما لو أنه ليس حجراً وإنما هو طين، وكما لو أنه ليس طيناً وإنما هو دم متخثر.ويخرج الطفل من الكابوس صارخاً عندما تلمس الكتلة الدنسة قدميه، وعندما يكون طوق «غاروتي»[1] الغم على وشك أن يخنقه، ولكن دون جوزيه، ويا له من مسكين، لا يستطيع الاستيقاظ من حلم لم يعد حلمه. ينكمش بملاصقة الجدار مثل كلب مذعور، يوجه بيده المرتجفة ضوء المصباح نحو الطرف الآخر من الممر، ولكن الضوء لا يصل إلى ذلك البعد مع ذلك، ويبقى في منتصف الطريق، حيث يوجد الممر المؤدي إلى أرشيف الأحياء تقريباً. يفكر في أنه إذا ما ركض بسرعة سيتمكن من الإفلات من الحجر الذي يتقدم، ولكن الخوف يقول له، كن حذراً، فمثلما تعرف أنه ليس متوقفاً هناك، بانتظارك، فسوف تقع في فم الذئب. كان تقدم الحجر في الحلم يتم بمرافقة موسيقى غريبة تبدو وكأنها متولدة من الهواء، أما هنا فالصمت مطبق، شامل، وكثيف إلى حد يبتلع معه أنفاس دون جوزيه، مثلما تبتلع الظلمة ضوء المصباح. وقد ابتلعتها بالكامل في هذه اللحظة بالذات. كان ذلك كما لو أن الظلمة قد تقدمت لترتطم، مثل هبة ريح، بوجه دون جوزيه. وكان كابوس الطفل قد انتهى مع ذلك. أما بالنسبة إليه، وليفهم من هو قادر على فهم الروح الإنسانية، فإن واقع عدم رؤيته جدران الحبس، القريبة منها والبعيدة، كان كما لو أنها غير

---

[1] الغاروتي، garrote: المِخنَق، وهو طوق حديدي كان يُستخدم في تنفيذ أحكام الإعدام خنقاً في العصور الوسطى.

Twitter: @ketab_n

موجودة، وكما لو أن الحيز قد اتسع، حراً إلى ما لانهاية، وكما لو أن الأحجار ليست سوى الفلز الخامل الذي تتكون منه، وكما لو أن الماء هو ببساطة علة وجود الطين، وكما لو أن الدم يجري في عروقه فقط وليس خارجها. ولم يعد كابوس الطفولة هو ما يرعب دون جوزيه الآن، فما يشلّه خوفاً هو التفكير مرة أخرى في أنه قد يبقى ميتاً في هذا الركن، مثلما تصور، منذ بعض الوقت، أنه قد يسقط عن سلّم آخر، قد يموت دون أوراق وسط أوراق الموتى، فتسحقه الظلمة والانهيارات التي لن تلبث أن تتهاوى من الأعلى، ويكتشفون ذلك في الغد، لقد تغيب دون جوزيه عن العمل، أين تراه يكون، لا بد له أن يظهر، وعندما يأتي أحد الزملاء لنقل ملفات أخرى وبطاقات أخرى، سيجده هناك، على ضوء مصباح يدوي أفضل من مصباحه هذا الذي يخذله عندما يكون في أشد الحاجة إليه. مرت الدقائق التي لا بد من مرورها لكي يبدأ دون جوزيه شيئاً فشيئاً في سماع صوت في داخله يقول، يا رجل، حتى الآن، إذا ما أبعدت الخوف جانباً، لم يصبك أي سوء بعد، ها أنتذا جالس، بكل عافيتك، صحيح أن مصباحك قد انطفأ، ولكن ما حاجتك أنت إلى مصباح، لديك الحبل المربوط إلى كاحلك، والمثبت في طرفه الآخر بقائمة منضدة الرئيس، إنك آمن، مثل جنين مربوط بالحبل السري إلى رحم أمه، وهذا لا يعني أن الرئيس هو أبوك أو أمك، ولكن العلاقات بين الأشخاص هنا معقدة في نهاية المطاف، وما عليك التفكير فيه هو أن كوابيس الطفولة لا تتحقق أبداً، وأقل منها تحقق الأحلام، وذلك الحلم عن الحجر كان مرعباً حقاً، ولكن لا بد أن يكون له تفسير علمي ما، مثلما حين كنت تحلم بأنك تطير فوق البساتين، تعلو وتنخفض، وتطفو بذراعين مفتوحتين، تذكر، كان ذلك إشارة إلى أنك تنمو، وقد كان للحجر وظيفته كذلك، وإذا كان لا بد من أن تعيش تجربة الرعب، فليكن ذلك عاجلاً أفضل من أن يكون آجلاً، أضف إلى

Twitter: @ketab_n

ذلك أن الواجب يحتم عليك أن تعرف أن هؤلاء الموتى ليسوا كذلك جدياً، فمن المبالغة الجهنمية إطلاق هذه التسمية على أرشيفهم، وإذا كانت الأوراق التي بين يديك هي أوراق المرأة المجهولة، فإنها تبقى أوراقاً وليست عظاماً، إنها أوراق وليست لحماً متفسخاً، وهذه هي الأعجوبة التي حققتها محفوظاتك العامة، تحويل الحياة والموت إلى مجرد أوراق، صحيح أنك رغبت في العثور على هذه المرأة، ولكنك لم تصل في الوقت المناسب، فحتى هذا الأمر لم تستطع تحقيقه، أو ربما أنك كنت ترغب ولا ترغب، كنت تتردد بين الرغبة والخوف مثلما يحدث لأناس كثيرين، كان يكفيك أن تذهب إلى المالية، ولم يعدم من ينصحك بذلك، لقد قضي الأمر، من الأفضل أن تتركها كائنة، فلم يعد هناك وقت لها ونهاية وقتك أنت قادمة أيضاً.

نهض دون جوزيه ببطء وهو يتلمس الجدار المزعزع المكون من الملفات، متوخياً الحذر كي لا ينهار عليه. وكان الصوت الذي قدم له تلك الخطبة يقول له الآن، لا تخف يا رجل، فالظلام الذي أنت فيه هنا ليس أكبر من الظلام الذي في جسدك، إنهما ظلامان منفصلان بجلد، وأراهن أنك لم تفكر في ذلك قط، إنك تحمل معك على الدوام من مكان إلى آخر ظلمة، دون أن يرعبك ذلك، ومنذ لحظات كنتَ على وشك البدء بالصراخ لمجرد أنك تخيلت بعض الأخطار، لمجرد أنك تذكرت الكابوس الذي كان يأتيك وأنت صغير، عليك يا صديقي العزيز أن تتعلم العيش مع ظلمة الخارج مثلما تعلمت العيش مع ظلمة الداخل، والآن انهض دفعة واحدة من فضلك، خبئ المصباح في جيبك، فهو لن يفيدك في شيء، وخبئ الأوراق، ما دمت مصراً على حملها معك، بين السترة والقميص، أو بين القميص والجلد لأنه أكثر أماناً، وامسك الحبل بثبات، ولفه مع كل خطوة تتقدمها حتى لا يتشابك بقدميك، والآن هيا، لا تكن رعديداً، فهذا هو أسوأ الأشياء. وبينما هو ما يزال

Twitter: @ketab_n

يستند بكتفه إلى الجدار برفق، غامر دون جوزيه بالسير خطوتين خجولتين. انشقت الظلمات مثل ماء أسود، وراحت تنغلق وراءه، خطوة أخرى، ثم أخرى، خمس أمتار من الحبل رُفعت عن الأرض وتم لفها، من المناسب لدون جوزيه الآن أن تكون له يد ثالثة تتلمس الهواء أمامه، ولكن العلاج بسيط، يكفيه أن يرفع يديه الاثنتين إلى مستوى وجهه، إحداهما تَلُف والأخرى تُلَف، فهذه هي بداية اللفافة.

كان دون جوزيه على وشك الخروج من الممر، بضع خطوات أخرى ويكون بمنجى من هجوم آخر لحجر الكابوس، لقد بدأ الحبل يقاوم قليلاً الآن، ولكنها علامة طيبة، فهي تعني أنه عالق بمحاذاة الأرض في زاوية الممر المؤدي إلى أرشيف الأحياء. ولكن الغريب أنه طوال الطريق، وحتى وصوله، كان كما لو أن هناك من يلقي عليه الأوراق من فوق، فقد كانت تسقط أوراق وأوراق على رأس دون جوزيه، ببطء، واحدة، أخرى، أخرى، كوداع. وعندما وصل أخيراً إلى منضدة الرئيس، وقبل أن يفك الحبل، أخرج من تحت القميص الملف الذي التقطه عن الأرض، وعندما فتحه ورأى أنه ملف المرأة المجهولة، كان انفعاله شديداً لم يُتح له سماع ضجة باب المحفوظات، كما لو أن هناك من خرج منها للتو.

Twitter: @ketab_n

كان دون جوزيه قد تعلم مسألة عدم تطابق الزمن النفسي مع الزمن الرياضي بالطريقة نفسها التي أحرز بها في حياته بعض المعارف الأخرى متنوعة الفوائد، والفضل في ذلك يعود في المقام الأول، بالطبع، إلى معايشاته الخاصة، فبالرغم من انه لم يتعدَ قط كونه كاتباً عادياً، إلا أنه ليس بالشخص الذي يمضي في هذا العالم لمجرد رؤية الآخرين يمضون فيه وحسب، فهناك التأثير التكويني لعدد من الكتب والمجلات العلمية الجديرة بالثقة، أو بالإيمان في هذه المناسبة، بل ويمكننا أن نذكر كذلك بعض الروايات التخيلية من النوع التأملي الشعبي، حيث يتم التطرق إلى الموضوع نفسه بأساليب وإضافات تخيلية مختلفة. ولكنه لم يشعر في أي مناسبة سابقة بالانطباع الحقيقي، الموضوعي، الذي لا يقل مادية عن تقلص عضلي مفاجئ، للاستحالة الفعلية لقياس هذا الزمن الذي يمكننا تسميته زمن الروح، مثلما شعر به في اللحظة التي نظر فيها مرة أخرى، وقد صار في البيت، إلى بطاقة وفاة المرأة المجهولة، وأراد، بصورة غامضة، أن يحدد موقعها في الزمن الذي انقضى منذ أن بدأ بالبحث. وكان يمكن له الرد على السؤال القائل، ما الذي كنتَ تفعله في ذلك اليوم، بأن يقدم إجابة فورية عملياً، إذ يكفيه أن ينظر إلى التقويم، وأن يفكر باعتباره دون جوزيه، الموظف في المحفوظات الذي كان غائباً عن العمل بسبب المرض، ليقول، في ذلك اليوم كنتُ طريح الفراش، مصاباً بالأنفلونزا، ولم اذهب إلى العمل، ولكنه إذا ما سُئل بعد ذلك، اربط

Twitter: @ketab_n

الأمر الآن بنشاطك في التحري، وقل لي متى حدث ذلك، فسيكون عليه عندئذ أن يراجع دفتر الملاحظات الذي يخبئه تحت الفراش، ويرد، كان ذلك بعد يومين من اقتحامي المدرسة. وعملياً، باعتماد تاريخ الوفاة المدون على البطاقة التي تحمل اسمها، فإن المرأة المجهولة قد ماتت بعد يومين من الحدث المؤسف الذي حوّل دون جوزيه النزيه حتى ذلك الحين إلى مجرم، ولكن هذه التأكيدات المتقاطعة، تأكيدات الموظف الكاتب المتقاطعة مع تأكيدات الباحث، وتأكيدات الباحث المتقاطعة مع تأكيدات الكاتب، وهي في الظاهر أكثر من كافية للربط بين الزمن النفسي لأحدهما والزمن الرياضي للآخر، لم توفر الطمأنينة لهذا أو ذاك من الإحساس ببلبلة دوارية. لم يكن دون جوزيه في أعلى درجات سلم مرتفع جداً، ينظر إلى أسفل ويرى كيف أن هذه الدرجات آخذة بالابتعاد أكثر فأكثر، وتزداد ضيقاً إلى أن تُختزل في نقطة عند ملامستها الأرض، ولكن حالته كانت كما لو أن جسده، بدلاً من أن يتعرف على ذاته واحداً وكاملاً في تعاقب اللحظات، يجد نفسه موزعاً على امتداد ما تستغرقه هذه الأيام الأخيرة، ونعني الاستغراق النفسي أو الذاتي، وليس الرياضي أو الحقيقي، ومعه يتقلص ويتمدد. إنني سخيف وأخرق تماماً، كان دون جوزيه يؤنب نفسه، فاليوم يتألف من أربع وعشرين ساعة منذ أراد أن يكون كذلك، والساعة تتضمن الآن وكانت تتضمن على الدوام ستين دقيقة، والستون ثانية في الدقيقة هي كذلك منذ الأزل، وإذا ما بدأت ساعة بالتأخير والتقديم فليس ذلك لخلل في الزمن، وإنما في الآلة، ولهذا لا بد أن يكون نابضي معطوباً. ابتسم للفكرة برخاوة، ليس الخلل، حسب ما أعرفه، في آلة الزمن الواقعي، وإنما هو في الآلية النفسية التي تقيسه، وما يتوجب عليّ عمله هو أن أجد مختصاً نفسانياً ليصلح لي مسنناتي. ابتسم مرة أخرى، ثم عاد إلى إبداء الجدية، هناك حل سهل للقضية، بل ما هو

Twitter: @ketab_n

أكثر من ذلك، إذ أنها انحلّت من تلقاء نفسها، فالمرأة ماتت، ولم يعد بالإمكان عمل شيء، سأحتفظ بالملف والبطاقة إذا ما أردتُ الإبقاء على ذكرى ملموسة من هذه المغامرة، وسيكون ذلك بالنسبة إلى المحفوظات العامة كما لو أن المرأة لم تولد في الأصل، وربما لن يحتاج أحد إلى هذه الأوراق، ويمكن لي أن أتركها كذلك في أي مكان من أرشيف الموتى، عند المدخل، إلى جانب أقدم الأموات، فسيان تركها هنا أو هناك، والقصة متشابهة بالنسبة للجميع، ولدت، ماتت، ومن ذا الذي سيهتم الآن بمن كانت، فالأبوان، إذا كانا يحبانها، سيبكيانها لبعض الوقت، ثم يقل بكاؤهما فيما بعد، ثم يتوقفان بعد ذلك عن البكاء، هذا هو المعتاد، والرجل الذي طُلقت منه لن يكترث، صحيح أنها قد تكون على علاقة عاطفية، أو عاشرت أحدهم، أو قد تكون على وشك الزواج مرة أخرى، ولكن هذه القصة ستكون قصة مستقبل لا يمكن لها أن تعيشه، فليس هناك في العالم من يكترث للقضية الغريبة للمرأة المجهولة. كان الملف والبطاقة أمامه، وكذلك الثلاث عشرة بطاقة مدرسية، والاسم نفسه مكرراً ثلاث عشرة مرة، واثنتا عشرة صورة مختلفة للوجه نفسه، صورة منها مكررة، ولكنها جميعها صور ميتة في الماضي، ميتة قبل أن تموت المرأة التي ستصير إليها، إن الصور القديمة تخدعنا كثيراً، فهي توهمنا بأننا أحياء فيها، وهذا غير صحيح، لأن الشخص الذي ننظر إليه فيها لم يعد موجوداً، ولو كان بمقدوره أن يرانا، فلن يتعرف على نفسه فينا، وسيقول، من هذا الذي ينظر إليّ بوجه محزون. عندئذ تذكر دون جوزيه فجأة أن هناك صورة أخرى، تلك التي أعطته إياها سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي، وعلى غير انتظار، وجد الجواب على السؤال الذي قد يطرحه من يمكن له أن يهتم بالقضية الغريبة للمرأة المجهولة.

لم ينتظر دون جوزيه حتى يوم السبت. ففي اليوم التالي، وبعد

Twitter: @ketab_n

إغلاق المحفوظات العامة، ذهب إلى المصبغة ليستعيد الملابس التي أخذها للتنظيف، سمع وهو شارد الذهن المستخدمة المُدقِّقة تقول له، تمهل جيداً في هذا الرفو المتقن، لاحظ، مرّ بأصابعك عليه وقل لي إذا كنت تلحظ أي فرق، يبدو وكأن شيئاً لم يحدث للبنطال، هكذا يتكلم عادة أولئك الذين يرضون بالمظاهر. دفع دون جوزيه الأجر، وضع اللفافة تحت إبطه ومضى إلى بيته ليبدل ملابسه. سيزور سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، ويريد الظهور بمظهر نظيف ولائق، مستفيداً، ليس فقط من عملية الرفو المتقنة، وهي تستحق الإطراء فعلاً، وإنما كذلك من خط البنطال الدقيق، وكيّ القميص الباهر، والاستعادة الإعجازية لربطة العنق. وكان مستعداً للخروج عندما مرت فكرة مَرَضية في رأسه، والرأس هو، على حدّ علمه، العضو الوحيد المفكر في خدمة الجسم، وماذا إذا ما كانت سيدة الشقة اليمنى من الطابق الأرضي قد ماتت أيضاً. والواقع أنها لم تكن تبيع صحة، أضف إلى ذلك أن المرء لا يحتاج لكي يموت إلا أن يكون حياً، والسيدة صارت في سن... وتخيل نفسه يقرع الجرس، مرة، ثم أخرى، وبعد إلحاح طويل سمع باب الشقة اليسرى من الطابق فوق الأرضي يُفتح وأطلت منه امرأة قائلة، وقد أزعجتها الضجة، لا تُتعب نفسك، فليس هناك أحد، أهي خارج البيت، لقد ماتت، اتقولين ماتت، أجل، بالضبط، ومتى حدث ذلك، منذ حوالي خمسة عشر يوماً، ومن تكون حضرتك، أنا من المحفوظات العامة للسجل المدني، يبدو إذن أن عملكم لا يسير على ما يرام، فأنت من المحفوظات ولا تعرف مع ذلك أنها ماتت. اعتبر دون جوزيه نفسه لجوجاً ولكنه آثر أن يحلّ القضية هنا بالذات، بدلاً من الذهاب لتحمل سفاهة المرأة التي تسكن الشقة اليسرى من الطابق فوق الأرضي. سيدخل إلى المحفوظات ويتفحص فهرس البطاقات ليتأكد من الأمر في أقل من دقيقة، ولا بد أن تكون عاملتا التنظيف قد

Twitter: @ketab_n

أنجزتا عملهما في هذه الوقت، فهما لا تحتاجان إلى وقت طويل، إذ أن عملهما يقتصر على إفراغ سلال المهملات، وكنس الأرض ومسحها حتى الخزائن التي وراء منضدة الرئيس، ومن المستحيل إقناعهما، بالحسنى أو بالإكراه، على المضي أبعد من ذلك، فهما تخافان، وتقولان إنهما لن تفعلا ذلك ولو ماتتا، ماذا سنفعل لهما، فهما أيضاً ممن يرضون بالمظاهر. بعد أن أخرج بطاقة المرأة المجهولة ليتذكر اسم سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، عرابتها في العماد، فتح دون جوزيه باب المحفوظات بكل حذر وتفحص المكان، ومثلما توقع، لم تكن عاملتا التنظيف هناك، دخل، ومضى مسرعاً إلى درج البطاقات وبحث عن الاسم، وقال، ها هي، ثم تنفس الصعداء. رجع إلى البيت، انتهى من ترتيب هندامه وخرج. من أجل ركوب الحافلة التي ستقله إلى مقربة من بيت سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي، عليه أن يذهب إلى الساحة المقابلة للمحفوظات، فموقف الحافلة هناك. وعلى الرغم من تقدم الغروب، كان ما يزال يطفو فوق المدينة الكثير من ضوء النهار المتبقي في السماء، لن يبدأ إشعال مصابيح الإنارة العامة قبل عشرين دقيقة على الأقل. وقف دون جوزيه ينتظر الحافلة مع أناس آخرين، وهو لن يستطيع على الأرجح ركوب أول حافلة تمر. وكان ذلك ما حدث بالفعل. ولكن حافلة ثانية ظهرت في الحال ولم تكن ممتلئة. صعد دون جوزيه في الوقت المناسب للحصول على مقعد إلى جانب نافذة. نظر خارجاً، متأملاً كيف كان تحلل الضوء في الجو، بتأثير بصري غير عادي، يضيء واجهات المباني بلون مائل إلى الحمرة، كما لو أن الشمس بالنسبة لكل واجهة منها تولد في تلك اللحظة. وهناك كانت المحفوظات العامة، ببوابتها القديمة جداً، والدرجات الحجرية الثلاث السوداء المؤدية إلى المدخل، والنوافذ الخمس المتطاولة في واجهتها الأمامية، والعقار كله يبدو كطلل ثابت في الزمن، كما لو أنهم

Twitter: @ketab_n

قد حنطوه بدل أن يرمموه عندما استدعى التآكل المادي ذلك. كانت إحدى المرقلات المرورية تحول دون انطلاق الحافلة. وأحس دون جوزيه بالضيق، فهو لا يريد الوصول في وقت متأخر إلى بيت سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي. فعلى الرغم من الحديث الذي دار بينهما، وكان مليئاً وصريحاً، وبالرغم من تبادلهما الأسرار، منها ما هو غير متوقع من شخصين تعارفا لتوهما، إلا أنهما لم يصلا إلى درجة من الحميمية تسمح له طرق بابها في أوقات غير مواتية. نظر دون جوزيه مرة أخرى إلى الساحة، كان الضوء قد رحل، وتحولت واجهة المحفوظات العامة فجأة إلى اللون الرمادي، ولكنه رمادي ما يزال منيراً يبدو وكأنه يخفق، يهتز، وحدث في تلك اللحظة، في الوقت نفسه الذي انطلقت فيه الحافلة أخيراً، منحرفة ببطء نحو مسرب الدوران، أن صعد رجل طويل، ضخم، أدراج المحفوظات، وفتح الباب ودخل. فهمهم دون جوزيه، إنه الرئيس، ما الذي يفعله في المحفوظات في مثل هذه الساعة. نهض بفظاظة من المقعد، مدفوعاً برعب مفاجئ ومبهم، قام بحركة متعجلة للخروج، مما جعل الراكب الذي بجانبه يومئ إيماءة مفاجأة عظيمة واستياء، ثم عاد للجلوس مضطرباً. كان يعرف أن هناك ما يدفعه لأن يهرع إلى البيت، كما لو أن عليه حمايته من خطر، وهو منطق غير معقول دون ريب. فلو افترض أن الرئيس لص، وهذا غير معقول آخر، فإنه لن يدخل من بوابة المحفوظات ليصل إلى بيته. ولكن من غير المعقول كذلك الظن أن الرئيس قد رجع، بعد انتهاء الدوام الرسمي، إلى المحفوظات حيث لا ينتظره أي عمل، مثلما تبين في هذه القصة من قبل، ويمكن لدون جوزيه أن يضع يده في النار لتأكيد ذلك. والافتراض بأن الرئيس يذهب إلى المحفوظات لاداء ساعات عمل إضافية، هو أشبه إلى هذا الحد أو ذاك، بتخيل دائرة مربعة. غادرت الحافلة الساحة، وواصل دون جوزيه البحث عن

Twitter: @ketab_n

الأسباب العميقة التي دفعته إلى التصرف بتلك الطريقة المشوشة. وانتهى إلى الجزم بأن السبب يكمن في أنه اعتاد، منذ سنوات، على أنه المقيم الليلي الوحيد في مجمع المباني المؤلف من المحفوظات العامة وبيته، إذا كان هذا البيت جدير بأن يطلق عليه اسم مبنى، وربما كانت التسمية مناسبة من وجهة النظر اللغوية الصارمة، فالمبنى هو كل شيء جرى بناؤه، ولكنها تسمية غير ملائمة بجلاء لدى المقارنة مع ذلك الوقار الهندسي الذي تتضح به الكلمة كما يبدو، وخصوصاً عندما ننطق بها. وفكر في أن وقع رؤية الرئيس يدخل إلى المحفوظات سيكون مثل رؤيته، عند عودته إلى البيت، جالساً على مقعده. الطمأنينة النسبية التي بثتها هذه الفكرة في دون جوزيه، دون حساب الاعتبارات المتصلة بالموضوع والمُحيِّرة أخلاقياً، والاستحالة الفيزيائية المادية لتسلل الرئيس إلى حجرات مرؤوسيه الحميمة، والوصول إلى حد استخدام كرسيه، انهارت فجأة عندما تذكر البطاقات المدرسية للمرأة المجهولة، وتساءل إذا ما كان قد خبأها تحت الفراش، أو أنه تركها، بإهمال، مكشوفة فوق الطاولة. فحتى لو كان بيته أميناً جداً مثل صندوق خزنة مصرف، ومزوداً بأقفال مشفرة وتصفيح مثبت في الأرضية والسقف والجدران، فإن البطاقات يجب ألا تبقى على الإطلاق ظاهرة للعيان. وواقع أنه ليس هناك من يمكنه أن يراها ليس بالعذر المقبول لما اقترفه من إهمال بتركها مكشوفة، ونحن نعرف، رغم جهلنا، المدى الذي صار بإمكان التقدم العلمي الوصول إليه، فبالطريقة نفسها التي يمكن بها للموجات، التي لا يراها أحد، أن تحمل الأصوات والصور في الهواء والرياح، قافزة عن الجبال والأنهار، ومجتازة المحيطات والصحارى، ليس هناك ما هو استثنائي في أن يكونوا قد اكتشفوا أو اخترعوا، أو سيتم ذلك في الغد، موجات قارئة وموجات تصويرية قادرة على اختراق الجدران وتسجيل أحوال وأسرار وحياءات

Twitter: @ketab_n

حياتنا اليومية التي نظنها في مأمن من الكشف، وبثها إلى الخارج. أما إخفاؤها، أي الأحوال والأسرار والحياءات، تحت الفراش، فما زال أكثر أساليب الإخفاء أماناً، وخصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار الصعوبة المتزايدة التي تواجهها عادات اليوم حين تريد فهم عادات الأمس. مهما كانت خبرة تلك الموجات القارئة وتلك الموجات التصويرية، فإن دس الأنف بين فراش وسطح سرير هو أمر لا يمكن له أن يدور في رأسها.

من المعروف أن أفكارنا، سواء القلقة منها أو الراضية، وغيرها مما هي ليست هذه ولا تلك، ينتهي بها الأمر عاجلاً أو آجلاً إلى التعب والضجر من نفسها، إنها مسألة منح وقت للوقت فقط، وتركها مستسلمة للهذيان الكسول الذي يأتيها بصورة طبيعية، وعدم الإلقاء إلى المحرقة بأية تأملات جديدة، مثيرة للسخط أو الجدل، وتوخي، قبل كل شيء، أقصى درجات الحذر من التدخل في كل مرة ضد فكرة مستعدة بذاتها إلى الشرود في تشعب جذاب، فرعي، تحويل في الاتجاه. أو التدخل، أجل، ولو بالحث بدفعة رقيقة على الظهر، وكأننا ننصح أفكارنا، امضِ من هناك، فأنت تتخذين مساراً صحيحاً. وكان هذا هو ما فعله دون جوزيه عندما برزت في ذهنه تلك الفنتازيا غير المعقولة والتي أوحت بها العناية الإلهية، عن موجة الصورة والموجة القارئة، واستسلم فوراً للتخيلات، دفعها لأن تُظهر له الموجات الفازية وهي تفتش في كل أرجاء الغرفة في محاولة للعثور على البطاقات، التي تبين له في النهاية أنه لم يتركها فوق الطاولة، وكانت الموجات حائرة وخجلة لأنها لم تستطع تنفيذ الأمر الذي تلقته، أنتِ تعلمين، إما أن تعثري على البطاقات وتقرئيها وتصوريها وإلا فإننا سنستغني عنك ونعود إلى أساليب التجسس التقليدية. وفكر دون جوزيه مع ذلك بالرئيس، ولكنها كانت فكرة فضلة، إنها ببساطة الفكرة النافمة للعثور على تفسير مقبول لواقعة عودته إلى المحفوظات خارج أوقات العمل

Twitter: @ketab_n

الرسمية، لقد نسي شيئاً هو بحاجة إليه، لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر. ودون وعي منه، كرر الشطر الثاني من الجملة بصوت عالٍ، لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر، مستثيراً بذلك للمرة الثانية ريبة الراكب الذي بجانبه، ولا بد أن أفكار هذا الراكب، على ضوء الحركة التي جعلته ينتقل من مكانه، صارت جلية وواضحة، هذا الشخص مجنون، نراهن بأنه فكر بهذه الكلمات أو بما يشبهها. لم يلحظ دون جوزيه انسحاب جاره من المقعد، وانتقل دون انقطاع، إلى التفكير بسيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، فها هو ذا يراها أمامه، عند عتبة الباب، هل تتذكرينني، أنا من المحفوظات العامة، اتذكرك جيداً، إنني قادم بخصوص القضية السابقة، هل عثرتَ على ابنتي بالعماد، لا، لم أجدها، أو بكلمة أدق، بلى، أجل، لا، أعني أنني أريد التحدث مع حضرتك، إذا لم يكن لديك مانع، وإذا كانت لديك لحظة فراغ، تفضل بالدخول، وأنا أيضاً لدي أمر أود أن أخبرك به، من مثل هذه الكلمات تقريباً، كانت الجمل التي تبادلها دون جوزيه وسيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، عندما فتحت الباب ورأته، آه، أهذا أنت، هتفت بذلك مشدوهة، فلم يستطع بالتالي أن يسألها، هل تتذكرينني، أنا من المحفوظات العامة، ولكنه لم يستطع كذلك أن يكبح نفسه من توجيه السؤال الملح، والضاغط، إلى حد يبدو معه أن حاجتنا هي المضي في الدنيا قائلين لكل من نصادفه من نحن، حتى عندما نكون قد سمعنا للتو، آه، أهذا أنت، كما لو أن تعرفهم علينا قد أوصلهم إلى معرفتنا ولم يعد هناك المزيد لمعرفته عنا، أو أن القليل المتبقي لا يستحق عناء توجيه سؤال جديد.

لم يكن هناك أي تبدل في الصالة الصغيرة، والمقعد الذي جلس عليه دون جوزيه في المرة الأولى، كان ما يزال في مكانه، والمسافة بينه وبين الطاولة كانت هي نفسها، وكانت الستائر تتدلى بالطريقة نفسها،

Twitter: @ketab_n

وتشكل الثنيات نفسها، وكانت حركة المرأة أيضاً هي نفسها عندما وضعت يديها على حجرها، اليد اليمنى فوق اليسرى، وضوء السقف وحده هو الذي كان يبدو شاحباً بعض الشيء، كما لو أن المصباح يشرف على نهايته. سألها دون جوزيه، كيف هي أحوالك بعد زيارتي الأخيرة، ثم أنّب نفسه لقلة لياقته، بل وللبلاهة الواضحة التي يكشف عنها، كان عليه أن يعرف أنه لا يمكن التقيد دائماً بحرفية قواعد التربية الأساسية، بل لا بد من أخذ الظروف بعين الاعتبار، وموازنة كل حالة على حدة، فلنتصور الآن أن المرأة قد ردّت عليه وهي تبتسم ابتسامة منفتحة، لحسن الحظ إنني على ما يرام، فمن الناحية الصحية، أنا في أحسن حال، ومن الناحية المعنوية، حالتي ممتازة، فمنذ زمن لم أشعر بمثل هذه القوة، فيواجهها هو عندئذ دون تروٍ، اعلمي إذن أن ابنتك بالعماد قد ماتت، ولنر كيف ستتلقى الخبر. ولكن المرأة لم ترد على سؤاله، واكتفت برفع كتفيها دون مبالاة، وقالت، لقد كنتُ أفكر منذ أيام في الاتصال بك هاتفياً على رقم المحفوظات العامة، ولكنني تخليت عن الفكرة، مقدرة أنك ستأتي لزيارتي عاجلاً أو آجلاً، لحسن الحظ أنك لم تتصلي، فالمدير يستاء من تلقينا مكالمات هاتفية، يقول إن ذلك يضر بالعمل، افهم ذلك، إنما كان يمكن حل هذا الأمر بسهولة، إذ يكفي أن أخبره هو نفسه بالمعلومة التي لدي، دون حاجة لأن يخبرك بها. غطى عَرَقٌ بارد مفاجئ جبهة دون جوزيه. فقد انتبه لتوه إلى أنه كان، طوال عدة أسابيع، وهو جاهل بالخطر، وغير مدرك للتهديد، على شفا الكارثة المطلقة المتمثلة في الكشف العلني عن عدم قانونية سلوكه المهني، وعن انتهاكه المتواصل والإرادي لقوانين الحقوق والواجبات الموفرة في المحفوظات العامة للسجل المدني، التي يسود فصولها، وبنودها، وفقراتها، ونقاطها، تعقيد شديد، خصوصاً بسبب لغتها المغرقة في القدم، إلا أن خبرة القرون الطويلة أوجزتها

Twitter: @ketab_n

في سبع كلمات عملية، *لا تتدخل في ما لا يطلب منك*. أحس دون جوزيه لبرهة بكراهية ساخطة نحو المرأة التي تجلس قبالته، فشتمها في ذهنه، ونعتها بالعجوز الشمطاء، القميئة، البلهاء، وكمن لم يجد طريقة أفضل للانتقام من رعب عنيف ومفاجئ، كان على وشك أن يقول لها، آه، هكذا، تحملي إذن هذا الخبر، فابنتك بالعماد، صاحبة الصورة، قد ماتت. ولكن المرأة سألته، هل تشعر بالتوعك يا دون جوزيه، أتريد كأساً من الماء، إنني بخير، لا تقلقي، ردّ عليها بذلك وهو يشعر بالخجل من اندفاعه الشرير، سأُعد لكِ شاياً، أشكركِ جزيل الشكر، لا حاجة إلى ذلك، لا أريد إزعاجك، وأحس دون جوزيه في هذه اللحظة بأنه أشد خسة ومذلة من غبار الشارع، كانت سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي قد خرجت من الصالة، وراح يسمع ضجة أواني الخزف في المطبخ، مرت بضع دقائق، أول ما يجب عمله هو غلي الماء، ودون جوزيه يتذكر بأنه قرأ في مكان ما، ربما في إحدى المجلات التي يقص منها صور الأشخاص المشهورين، بأنه يتوجب صنع الشاي من ماء مغلي مسبقاً وليس من ماء يغلي، صحيح أنه كان سيتمتع بكأس ماء بارد، ولكن الشاي سيكون أفضل بكثير، فالجميع يعرفون أنه من أجل رفع المعنويات المنهارة، ليس هناك ما يمكن مقارنته بفنجان من الشاي، هذا ما تقوله كل المراجع، الشرقية منها والغربية. ظهرت صاحبة البيت وهي تحمل صينية، فيها طبق من المعجنات، إضافة إلى إبريق الشاي والفنجانين والسكرية، قالت، لم أسألكَ إن كنتَ تحب الشاي، لقد فكرتُ فقط في أنه سيكون أفضل من القهوة في هذه اللحظات، أحبُ الشاي، أجل يا سيدتي، أحبه كثيراً، هل تريد سكراً، لا أتناوله مطلقاً، وفجأة اعتراه الشحوب، وراح يتعرق، وظن بأن عليه أن يبرر ذلك، لابد أنها آثار إصابة بالأنفلونزا ألمت بي، لو أنني تلفنتُ إذن، لما وجدتكَ في المحفوظات العامة، أي أنه كان علي أن أخبر رئيسك بما

Twitter: @ketab_n

جرى معي. وفي هذه المرة لم يكد العرق يبلل راحتي يدي دون جوزيه، ومع ذلك فإن حسن الحظ وحده شاء أن يكون فنجان الشاي على المنضدة، لأنه لو كان في يده في تلك اللحظة، لهوى فنجان الخزف على الأرض، أو لانسكب الشاي، وسلق ساقي الكاتب التعس، مع ما سيتبع ذلك من نتائج بينة، أولها الحرق، ثم العودة بعد ذلك بالبنطال إلى المصبغة. تناول دون جوزيه قطعة معجنات من الطبق، قضمها بأناة، دون تلذذ، مدارياً بحركة المضغ الصعوبة التي تجدها الكلمات في الخروج من فمه، إلى أن تمكن من صياغة السؤال الذي يشغله، وما هي تلك المعلومة التي كنت تودين إطلاعي عليها. شربت المرأة قليلاً من الشاي، ومدّت يدها المترددة نحو طبق المعجنات، ولكنها لم تكمل الحركة. قالت، هل تتذكر أنني نصحتك في نهاية زيارتك، عندما كنتَ على وشك الانصراف، بأن تبحث في دليل الهاتف عن اسم ابنتي في العماد، أتذكر ذلك، ولكنني فضلتُ ألا أعمل بنصيحتك، ولماذا، هذا أمر يصعب تفسيره، ولكن لا بد أن تكون لديك أسباب لذلك، تقديم أسباب لما يفعله أحدنا أو لما يمتنع عن فعله هو من أسهل الأمور، وعندما نلاحظ أننا لا نملك الأسباب، أو أننا نملك القليل منها، فإننا نحاول اختلاقها، وفي قضية ابنتك بالعماد، على سبيل المثال، يمكنني أن أعلن الآن بأنني ارتأيت أنه من الأفضل سلوك أطول السبل وأكثرها تعقيداً، وانا أتساءل، هل هذا المبرر هو من المبررات الحقيقية أم المختلقة، فلنتفق على أنه يتضمن من الحقيقة قدر ما يتضمنه من الكذب، وما الجانب الكاذب فيه، كوني أتصرف هنا كما لو أن السبب الذي قدمته لكِ سيؤخذ كحقيقة مطلقة، أوليس هو كذلك، لا، لأنني أغفل السبب الذي فضلتُ من أجله ذلك السبيل وليس أي سبيل مباشر سواه، هل لأنكَ تشعر بالضجر من روتين عملك، يمكن لهذا أن يكون سبباً آخر، وإلى أي نقطة وصلت تحرياتك، حدثيني أولاً عما جرى، ولنضع في

Twitter: @ketab_n

الحسبان أنني كنتُ موجوداً في المحفوظات العامة عندما فكرتِ في الاتصال بي، وأن الرئيس لا يكترث بتلقي موظفيه اتصالات هاتفية. رفعت المرأة الفنجان مرة أخرى إلى شفتيها، ثم وضعته في الصحن دون أن تحدث أدنى صوت، وقالت في الوقت نفسه الذي كانت يداها تعودان فيه إلى حجرها، اليمنى منهما فوق اليسرى، لقد فعلتُ ما طلبتُ منكَ أن تفعله، هل اتصلتِ بها، أجل، وتكلمتِ معها، أجل، ومتى حدث ذلك، بعد أيام من مجيئك، لم أستطع مقاومة الذكريات، بل إنني لم أعد أستطيع النوم، وماذا حدث، تبادلنا الحديث، لا بد أنها فوجئت، لم تُبدِ لي ذلك، ولكنه الأمر الطبيعي بعد كل تلك السنين من البعاد والصمت، من الواضح أن معرفتك بالنساء قليلة، لا سيما إذا كنّ تعيسات، وهل كانت تعيسة، لقد انخرطنا كلتانا في البكاء بعد قليل، كما لو أن كلاً منا مربوطة إلى الأخرى بخيط من الدموع، وهل أخبرتكِ بشيء عن حياتها، من تعني، هي لكِ، لا شيء تقريباً، سوى أنها تزوجت، وأنها الآن مطلقة، هذا أمر نعرفه، فهو مثبت في البطاقة، وقد اتفقنا على أن تأتي لزيارتي عندما يتاح لها ذلك، وهل جاءت، حتى اليوم،لا، ماذا تعنين، اعني ببساطة أنها لم تأتِ، ولم تتصل بالهاتف، لم تتصل، وكم يوماً مضى على ذلك، منذ أسبوعين تقريباً، أكثر أم أقل من أسبوعين، أقل على ما أعتقد، أجل، أقل، وماذا فعلتِ حضرتك، ظننتُ في البدء أنها غيّرت رأيها، وأنها لا تريد في نهاية المطاف تجديد العلاقات القديمة، ولا تريد علاقة حميمة بيننا، وأن تلك الدموع ليست إلا لحظة ضعف لا أكثر، وهو ما يحدث في أحيان كثيرة، فهناك لحظات في الحياة نطلق فيها العنان لأنفسنا، ولا نتورع عن مكاشفة أول مجهول نصادفه بآلامنا، ألا تتذكر، عندما جئتَ إلى هنا، إنني أتذكر، ولن أشكرك مطلقاً على ثقتك تلك بي، لا تظن أنني فعلت ذلك بدافع الثقة، بل بدافع اليأس وحسب، أياً كان الدافع، فإنني

Twitter: @ketab_n

أعدُك بأنك لن تندمي، يمكنك أن تطمئني، فأنا شخص متكتم، أجل، لدي اليقين بأنني لن أندم، شكراً، ولكن ذلك في الحقيقة، لأني لم أعد أبالي بشيء، ولهذا أنا موقنة من أنني لن أندم، آه. إن الانتقال من نداء متفجع كهذا إلى استجواب مباشر من نوع، وماذا فعلتِ بعد ذلك، ليس بالأمر السهل، ولهذا احتفظ دون جوزيه بالصمت، منتظراً ما سيأتي. وكما لو أن المرأة عرفت ذلك أيضاً، فسألته، أتريد مزيداً من الشاي، ووافق وهو يُقرّب الفنجان، أرجوكِ. ثم قالت المرأة بعد ذلك، قبل أيام اتصلتُ ببيتها، وماذا جرى، لم يردّ أحد على المكالمة، وردت عليّ آلة التسجيل، وهل اتصلتِ مرة واحدة فقط، أجل، في اليوم الأول مرة واحدة، ولكنني فعلت ذلك عدة مرات في الأيام التالية، وفي مواعيد مختلفة، تلفنت لها في الصباح، وتلفنت في المساء، وتلفنت بعد موعد العشاء، وبلغ بي الأمر حد الاتصال في منتصف الليل، دون جدوى، دون جدوى، ففكرتُ بأنها ربما تكون خارج البيت، وهل أخبرتك بمكان عملها، لا. عند هذا الحد لم يعد بإمكان المحادثة أن تتواصل حول البئر السوداء التي تخفي الحقيقة، وبدأت تقترب اللحظة التي يقول فيها دون جوزيه، لقد ماتت ابنتك في العماد، بل كان عليه أن يقول ذلك منذ دخوله، ولهذا ستتهمه المرأة بالتأخر كثيراً، لماذا لم تخبرني بذلك فوراً، ولماذا وجهتَ كل هذه الأسئلة ما دمتَ تعرف أنها ميتة، ولن يستطيع عندئذ الكذب متعللاً بأنه صمتَ لكي لا يصدمها، دون تهيئة مسبقة، ودون احترام، بوقع الخبر المحزن، والحقيقة أن السبب الوحيد لكل هذا الحوار البطيء والطويل هو الكلمات التي قالتها هي عند المدخل، وأنا أيضاً لدي ما أقوله لك، وفي تلك اللحظة افتقر دون جوزيه إلى الهدوء المستكين الذي يجعله يرفض إغواء حب الإطلاع على هذا الأمر الصغير عديم الجدوى مهما كان، لقد افتقر إلى الاستكانة الهادئة ليقول لها، لم يعد هناك ما يستحق العناء، فقد ماتت. كان ذلك

Twitter: @ketab_n

كما لو أنه يمكن لما ستخبره به سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، أن يعيد الزمن إلى الوراء، دون أن يدري كيف، ليتمكن في اللحظة الأخيرة من اختطاف المرأة المجهولة من الموت. كان دون جوزيه متعباً، ولم تعد لديه الآن من رغبة سوى أن يؤخر لبضع ثوان ما لا مفر منه، فسألها، ألم يخطر لكِ الذهاب إلى بيتها، وسؤال الجيران إذا ما كانوا قد رأوها، لقد فكرتُ في ذلك بالطبع، ولكنني لم أفعله، لماذا، لأن ذلك سيجعلني أبدو دخيلة، وقد لا يروق لها ذلك، ولكنك اتصلتِ بها هاتفياً، الأمر مختلف. ساد صمت، وبعد ذلك بدأت ملامح وجه المرأة تتبدل، وبدت عليه إمارات الاستفهام، فأدرك دون جوزيه أنها ستسأل، أخيراً، عن المسائل المتعلقة بالقضية التي قادته اليوم إلى بيتها، وإذا ما كان قد تمكن من اللقاء بها ومتى، وإذا ما كانت مشكلة المحفوظات العامة قد حُلّت وكيف، سيدتي العزيزة، يؤسفني أن أُعلمك بأن ابنتك بالعماد قد ماتت، قال دون جوزيه ذلك بسرعة. فتحت المرأة عينيها على اتساعهما، رفعت يديها عن حضنها ونقلتهما إلى فمها، ماذا، ابنتكِ في العماد، أقول إن ابنتك في العماد قد توفيت، وكيف عرفت ذلك، سألته المرأة دون تفكير، فقال دون جوزيه، من أجل هذا وُجدت المحفوظات، ثم هز كتفيه على الفور وكأنه يقول، ليس الذنب ذنبي، ومتى ماتت، لقد أحضرتُ البطاقة معي، إذا أردتِ رؤيتها. مدّت المرأة يدها، قرّبت قطعة الكرتون من عينيها، ثم أبعدتها وهي تتلعثم، نظارتي، ولكنها لم تبحث عنها، فقد كانت تعرف أنها لن تفيدها في شيء، وحتى لو أرادت أن تقرأ فلن تستطيع قراءة ما هو مكتوب هناك، فقد كانت الدموع تحوّل الكلمات إلى لطخات. قال لها دون جوزيه، إنني متأسف جداً. غادرت المرأة الصالة، تأخرت بضع لحظات، وعندما رجعت كانت تمسح عينيها بمنديل. جلست، سكبت لنفسها شاياً من جديد، ثم سألت بعد ذلك، هل جئتَ لتخبرني بموت ابنتي

Twitter: @ketab_n

بالعماد فقط، أجل، هذا لطف كبير من جانبك، لقد فكرتُ، ببساطة، بأن الواجب يفرض علي ذلك، لماذا، لأنني شعرتُ بأني مدين لك، بأي شيء، بالطريقة اللطيفة التي قابلتني وعاملتني بها، ومساعدتك لي، وإجابتك على استفساراتي، والآن بعد أن بلغ العمل الذي كلفوكَ به نهايته بقوة الأشياء، لم يعد عليك أن تُتعب نفسك بالبحث عن ابنتي في العماد المسكينة، عملياً، أجل، ربما يكونون قد كلفوك في المحفوظات العامة بالبدء في البحث عن شخص آخر، لا، لا، فمثل هذه الحالات نادرة جداً، هذا هو الجيد في الموت، فمعه ينتهي كل شيء، ليس الأمر على هذا النحو دائماً، فسرعان ما تبدأ الحروب بين الورثة، وضراوات التقاسم، وضريبة الميراث التي لا بد من دفعها، كنتُ أشير إلى ما يخص الشخص الميت نفسه، في هذا الشأن، أجل، معك حق، كل شيء ينتهي، إنه لأمر مثير للفضول، أنتَ لم تخبرني قط عن السبب الذي دفع المحفوظات العامة للبحث عن ابنتي في العماد، أسباب مثل هذا الاهتمام الكبير بها، مثلما قلتِ حضرتك للتو، لقد حلّ الموت كل المشاكل، كانت هناك مشكلة إذن، أجل، وما هي، لم يعد الأمر يستحق الحديث فيه، لقد فقد الموضوع أهميته، أي موضوع. فقاطعها دون جوزيه يائساً، أرجو منك عدم الإلحاح. وضعت المرأة الفنجان في الصحن بجفاء وقالت وهي تنظر مواجهة إلى الزائر، لقد كنا هنا، أنا وأنت، في ذلك اليوم وفي هذا اليوم، وكان أحدنا يقول الحقيقة منذ البداية وطوال الوقت، بينما كان الآخر يكذب منذ البداية وطوال الوقت، أنا لم أكذب، ولستُ أكذب الآن، اعترف إذن بأنني كنتُ أكلمك طوال الوقت بصدق، بصراحة، وبانفتاح، وبأنه لم يخطر لكَ قط أن هناك كذبة واحدة في كلماتي، أعترفُ بذلك، أعترفُ بذلك، إذا كان هناك كاذب في هذه الغرفة إذن، وأنا متأكدة من وجوده، فلن أكون أنا، لستُ كاذباً، أعتقد أنكَ لستَ كذلك بطبيعتك، ولكنكَ كنتَ تكذب منذ

Twitter: @ketab_n

جئتَ هنا أول مرة ومنذ ذلك الحين واصلتَ الكذب، لا يمكن لحضرتك أن تفهمي الأمر، ولكنني أفهم بما يكفي لكي لا أصدق بأن المحفوظات قد أرسلتك يوماً للبحث عن ابنتي في العماد، إنك مخطئة، أؤكد لكِ بأنها أرسلتني، إذا لم يكن لديكَ ما تقوله لي، وإذا كانت هذه هي كلمتكَ الأخيرة، فاخرج إذن من بيتي الآن فوراً، كفى، هيا، وقد نطقت المرأة الكلمتين الأخيرتين بما يشبه الصراخ، ثم بدأت بعد ذلك بالبكاء. نهض دون جوزيه، مشى خطوة باتجاه الباب، ثم عاد للجلوس وقال، اعذريني، لا تبكي، سأُخبركِ بكل شيء.

Twitter: @ketab_n

عندما انتهيتُ من الكلام، سألتني، وماذا تفكر أن تفعلَ الآن، فقلتُ، لا شيء، هل تفكر في العودة إلى مجموعاتك من الشخصيات المشهورة، لستُ أدري، ربما، فلا بد لي من أن أشغل وقتي بشيء ما، وصمتُ قليلاً وأنا أفكر ثم أجبتُ، لا، لا أظن ذلك، لماذا، إذا ما أمعنا النظر، فإن حياة هؤلاء الناس تمضي على وتيرة واحدة دائماً، لا تتبدل أبداً، يظهرون، يتكلمون، يستعرضون أنفسهم، يبتسمون للمصورين، وهم قادمون أو مسافرون على الدوام، مثل أي واحد منا، انا لستُ كذلك، بل أنتَ وأنا والجميع، كلنا نستعرض أنفسنا، وكلنا نتكلم أيضاً، ونخرج من البيت ونعود إليه أيضاً، بل إننا نبتسم أحياناً، والفرق هو أنه ليس هناك من يهتم بنا، لا يمكن لنا أن نكون جميعنا مشهورين، هذا سيُسعدك، تصور أن تكون مجموعتك بحجم المحفوظات العامة، بل ستكون في هذه الحالة أكبر منها بكثير، فالمحفوظات لا يهمها أن تعرف إلا متى نولد، متى نموت، وبعض الأشياء القليلة الأخرى، إذا ما تزوجنا، تطلقنا، ترملنا، وإذا ما تزوجنا ثانية، ولا يهم المحفوظات في شيء إذا ما كنا في أثناء ذلك كله سعداء أو تعساء، السعادة والتعاسة مثل الأشخاص المشهورين، تأتي وتذهب، وأسوأ ما في المحفوظات هو أنها لا تريد أن تعرف من نكون، فنحن لسنا في نظرها سوى قطعة ورق عليها بعض الأسماء وبعض التواريخ، مثل بطاقة ابنتي في العماد، ومثل بطاقتك وبطاقتي، ماذا كنتَ فاعلاً لو أنك التقيت بها، لا أدري، ربما كنتُ كلمتها، وربما لا، لم أفكر في ذلك قط، وهل فكرتَ في أنك

Twitter: @ketab_n

منذ تلك اللحظة التي ستجدها فيها أمامك، لن تعرف عنها أكثر مما كنت تعرفه، أي لا شيء، وأنكَ إذا ما أردت أن تعرف من هي فعلاً سيكون عليك أن تبدأ البحث عنها من جديد، ويمكن للأمر أن يكون أصعب بكثير إذا ما كانت، على عكس الأشخاص المشهورين الذين يحبون الظهور، لا ترغب في أن يُعثر عليها، هذا صحيح، ولكن يمكنكَ، وقد ماتت الآن، أن تواصل البحث عنها، لأن ذلك لم يعد يهمها، لستُ أفهمك، أنتَ لم تتوصل حتى الآن، بالرغم من كل الجهود التي بذلتها، إلا لمعرفة أنها كانت ترتاد مدرسة، وهي بالمناسبة المدرسة نفسها التي وجهتُكَ إليها، ولدي صور، الصور هي أوراق أيضاً، يمكننا أن نتقاسمها، ونظن أننا نقتسمها هي نفسها، جزء لك، وجزء لي، لا يمكن عمل ما هو أكثر من ذلك، كان هذا ما قلتُهُ لها في تلك اللحظة، معتقداً أنني أغلق القضية، ولكنها سألتني، لماذا لا تتكلم مع والديها، مع زوجها السابق، وما الفائدة، لمعرفة شيء آخر ما عنها، كيف كانت تعيش، ماذا كانت تعمل، الزوج لن يرغب في مثل هذه المحادثة، فالمياه التي جرت ومضت لا تدير الطواحين، ولكن الأبوين سيرغبان، فالآباء لا يرفضون مطلقاً الحديث عن أبنائهم، حتى عندما يكون الأبناء ميتين، هذا ما لاحظته، مادمتُ لم أذهب من قبل، فلن أذهب الآن، وقد كان بإمكاني من قبل أن أدعي بأنني مبعوث من المحفوظات العامة، ما هو سبب موت ابنتي في العماد، لستُ أدري، وكيف ذلك، يجب أن يكون سبب الوفاة مسجلاً في المحفوظات، نحن لا نثبت في البطاقات سوى الوقوعات، وليس أسبابها، ولكن لا بد أن يكون هناك إشعار بالوفاة، فالأطباء مجبرون قانونياً على تأكيد الوفاة، ولا يقتصرون على القول *إنها ميتة* عندما تكون قد ماتت، لم تكن هناك بين الأوراق التي وجدتها في أرشيف الموتى إشارة إلى شهادة الوفاة، ولماذا ذلك، لستُ أدري، لا بد أنها سقطت في الطريق عندما حفظوا الملف، أو أنها سقطت مني،

Twitter: @ketab_n

إنها مفقودة، والبحث عنها سيكون أشبه بالبحث عن إبرة في كومة من القش، وأنت لا يمكنك أن تتصوري ما يعنيه ذلك، يمكنني تصوره من خلال ما رويتَه لي، لا يمكنك تصوره، مستحيل، إلا إذا كنتِ هناك، مادام الأمر كذلك، فإن لديكَ سبباً وجيهاً للتحدث مع الأبوين، قل لهما إن شهادة الوفاة قد ضاعت، للأسف، في المحفوظات، وإنك تريد استكمال الملف وإلا فإن الرئيس سيعاقبك، أظهر التذلل والقلق، واسأل عمن كان الطبيب الذي عالجها، وأين ماتت، وبأي داء، وإذا ما حدث ذلك في البيت أم في المستشفى، اسأل عن كل شيء، وأظن أن التكليف ما زال بحوزتك، أجل، ولكن لا تنسي أنه مزيف، لقد انطلت الحيلة عليّ، وستنطلي عليهم أيضاً، ما دام لا وجود لحياة دون أكاذيب، فلا بأس كذلك في وجود خدعة في هذه الميتة، لو أنكِ كنتِ موظفة في المحفوظات العامة، لعرفتِ أنه ليس بالإمكان خداع الموت. ولا بد أنها خلصت إلى الاعتقاد بأنه ليس هناك ما يُرجى من الردّ عليّ، وقد كانت على حق تماماً في ذلك، لأن ما قلته لم يكن أكثر من عبارة مبهرجة، جوفاء، من تلك التي تبدو عميقة دون أن تتضمن في أعماقها شيئاً. بقينا صامتين نحو دقيقتين، وكانت تنظر إليّ بوجه مؤنِّب، كما لو أنني قدمت لها وعداً رسمياً ثم خذلتها في اللحظة الأخيرة. لم أعد أدري أين أتوارى، وكانت إرادتي تدفعني إلى أن أتمنى لها ليلة سعيدة وأنصرف من هناك، ولكن ذلك سيبدو فظاظة حمقاء، وعدم لياقة لا تستحقها السيدة المسكينة، وهي تصرفات لا تشكل في الواقع جزءاً من شخصيتي، لقد تربيتُ هكذا، صحيح أنني لا أتذكر أنني تناولت الشاي يوماً في صغري، ولكن النتيجة انتهت إلى أن تكون نفسها. حين كنتُ أفكر في أنه من الأفضل تقبل الفكرة، وبدء البحث مجدداً في اتجاه معاكس لبحثي الأول، أي انطلاقاً من الموت باتجاه الحياة، قالت هي، لا تكترث بما قلتُه، إنها ترهات تخرج من رأسي، فعندما نبلغ سن

Twitter: @ketab_n

الشيخوخة وننتبه إلى أن الزمن آخذ بالنفاد، نبدأ بالتصور بأننا نملك في يدنا العلاج لكل شرور العالم، ويصيبنا القنوط لأن الآخرين لا يولوننا اهتمامهم، لم تراودني هذه الفكرة قط، سيأتي دوركَ، فأنتَ ما تزال شاباً، انا شاب، إنني في الثانية والخمسين، إنكَ في زهرة العمر، لا تلعبي بي، ابتداء من سن السبعين فقط تصير حكيماً، ولكن ذلك لن يفيدك، أنت أو سواك، في شيء عند ذلك. ولأنه ما زال أمامي وقت طويل لبلوغ تلك السن، فإنني لم أعرف إذا ما كان عليّ أن أوافقها الرأي أم لا، ولهذا رأيت أنه من الأفضل لي أن أصمت. لقد صار بإمكاني الآن وداعها، فقلت، لن أسبب لكِ مزيداً من الإزعاج، أشكرك على صبرك ولطفك، وألتمس منك المعذرة، فالسبب في هذا كله هو تلك الحماقة التي خطرت لي، إنها عبثية لا يُعرف لها مثيل، فأنتِ كنت تعيشين بهدوء في بيتك، وجئتُكِ إلى هنا بالتحايل، بقصص ملفقة، إنني أحمر خجلاً وأنا أتذكر بعض الأسئلة التي وجهتها إليك، على عكس ما تقوله، أنا لم أكن أعيش بهدوء، كنتُ وحيدة، وإطلاعك على بعض الأشياء الحزينة من حياتي كان أشبه بإزاحة ثقل عن كاهلي، لحسن الحظ أنك تفكرين على هذا النحو، هكذا أفكر، ولا أريدكَ أن تغادر قبل أن أتقدم إليك بطلب، قولي ما تشائين، سأفعل كل ما أستطيعه لإرضائك، ليس هناك من هو قادر على فعل ذلك خيراً منكَ، وما سأطلبه بسيط، أن تزورني بين حين وآخر، عندما تتذكر ذلك وترغب فيه، وإن لم يكن للحديث عن ابنتي في العماد، سآتي لزيارتك بكل سرور، وسيكون في انتظاركَ فنجان من القهوة أو الشاي على الدوام، هذا سبب جيد للمجيء، ولكن الأسباب الأخرى ليست قليلة، شكراً جزيلاً، وأعود لأكرر القول بألا تهتم بفكرتي تلك، فهي في نهاية المطاف حمقاء مثلما كانت فكرتكَ، سوف أفكر في الأمر. قبّلتُ يدها كما في المرة الأولى، ولكن حدث عندئذ شيء لم أكن أتوقعه، فقد بقيت

Twitter: @ketab_n

ممسكة بيدي ورفعتها إلى شفتيها. لم تفعل امرأة معي مثل هذا من قبل قط، وقد أحسست بالأمر كصدمة في الروح، اختلاجة في القلب، وما زلت حتى الآن، في الفجر، بعد مرور عدة ساعات، وبينما أنا أكتب أحداث اليوم في الدفتر، أنظر إلى يدي اليمنى وأجدها مختلفة، وإن كنتُ عاجزاً عن تحديد جوهر الاختلاف، لا بد أنه شيء داخلي، وليس خارجياً. توقف دون جوزيه عن الكتابة، ترك قلم الرصاص، وخبأ في الدفتر، بحرص، بطاقات المرأة المجهولة المدرسية التي تبين له أخيراً أنها بقيت على الطاولة، ثم دسها بين الفراش وسطح السرير، عميقاً. بعد ذلك سخّن الطبيخ المتبقي من الغداء وجلس لتناول العشاء. كان الصمت شبه مطبق، تكاد لا تُلحظ ضجة السيارات القليلة التي ما زالت تجوب المدينة. وما كان يُسمع بصورة أفضل هو صوت مخنوق، يعلو وينخفض مثل كيرٍ ناءٍ، ولكن دون جوزيه كان معتاداً على هذا الصوت، إنه تنفس المحفوظات. اندس دون جوزيه في السرير، ولكنه لم يكن يشعر بالنعاس. كان يتذكر أحداث اليوم، المفاجأة المثيرة في رؤية الرئيس يدخل إلى المحفوظات في ساعة غير مألوفة، المحادثة الهائجة مع سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، والتي ترك دليلاً عنها في دفتر الملاحظات، دليلاً أميناً في المعنى، وإن لم يكن كذلك في الشكل، وهو ما يمكن فهمه وغفرانه لأن الذاكرة، وهي شديدة الحساسة ولا يروق لها أن تُضبط في خطأ، تميل إلى ملء فجوات النسيان باختلاقات من واقع خاص، مفتعلة بجلاء، ولكنها متاخمة إلى هذا الحد أو ذاك للأحداث التي لم يبق منها إلا ذكرى غامضة، مثل ما يتبقى من أثر مرور ظل. كان يبدو لدون جوزيه أنه لم يصل بعد إلى نتيجة منطقية لما يحدث، وأنه ما زال عليه أن يتخذ قراراً وإلا فإن الكلمات الأخيرة التي قالها لسيدة الطابق فوق الأرضي، سوف أفكر في الأمر، لن تكون سوى وعد باطل، من تلك الوعود التي

Twitter: @ketab_n

تظهر دائماً خلال الأحاديث دون أن يتوقع أحد إنجازها. كان دون جوزيه يتلهف للدخول في إغفاءة عندما برز له فجأة، ومن يدري من أي عمق، الحلّ المنشود، مثل طرف خيط آريان جديد، يوم السبت سأذهب إلى المقبرة، قال ذلك بصوت عالٍ. دفعه الانفعال إلى الجلوس بغتة في السرير، ولكن صوت الحس السليم الهادئ هرع لنصحه، بما أنك قررت ما الذي ستفعله، فتمدد ونم، لا تكن طفلاً، ولا أظنكَ تريد، في هذه الساعة من الليل، أن تذهب إلى المقبرة وتتسلق الجدار، وهذا مجرد كلام بالطبع. انزلقَ دون جوزيه، منصاعاً، ما بين الملاءات، وغطى نفسه حتى أنفه، ولكنه بقي دقيقة أخرى مفتوح العينين وهو يفكر، لن أستطيع النوم. ولكنه في الدقيقة الثانية كان قد نام.

استيقظ متأخراً، في موعد فتح أبواب المحفوظات تقريباً، فلم يُتح له الوقت لحلاقة ذقنه، ولبس بتعثر متعجل وخرج من البيت في جري أرعن، غير لائق بسنه ومكانته. كان جميع الموظفين، ابتداء من الكتبة الثمانية وحتى نائبي المدير، جالسين في أماكنهم، وعيونهم مثبتة على ساعة الجدار، بانتظار أن ينطبق عقرب الدقائق على الرقم اثني عشر. توجه دون جوزيه إلى مأمور قسمه الذي عليه أن يقدم إليه أعذاره الأولية، وطلب منه العذر عن تأخره، لقد نمتُ نوماً سيئاً، قال مبرراً سلوكه وهو يعلم، من خلال تجربة سنوات طويلة، بأن تفسيراً مثل هذا لن ينفعه في شيء، وكان الجواب الجاف الذي سمعه، اجلس. وبعد ذلك بالضبط، عندما حوّلت الانزلاقة الأخيرة لعقرب الثواني زمن الانتظار إلى زمن العمل، لم يكن دون جوزيه، المذهول من رباطي حذائه اللذين نسي عقدهما، قد وصل إلى منضدته بعد، وهو أمر لحظه المأمور بفتور وسجل الواقعة غير المألوفة في مفكرة اليوم. مضى أكثر من ساعة قبل أن يصل المدير. دخل بملامح مُركّزة، ومتجهمة تقريباً، مما أدخل الريبة في مزاج الموظفين، إذ يمكن للوهلة الأولى أن يقال

Twitter: @ketab_n

بأنه هو أيضاً نام نوماً سيئاً، ولكنه كان في الحقيقة متأنقاً كعادته، ذقنه حليقة بعناية، وليس في بدلته تجعيدة واحدة، وليس في رأسه شعرة واحدة في غير مكانها. توقف هنيهة بجانب منضدة دون جوزيه ونظر إليه بصرامة، دون أن ينطق بكلمة واحدة. فبدأ دون جوزيه المثقل حركة تبدو غريزية عند الرجال، هي حركة رفع اليد إلى الوجه وفرك الذقن ليرى إذا ما كانت نامية، ولكن الحركة توقفت في منتصف الطريق، وكأنه يستطيع بهذه الطريقة أن يواري ما هو جلي للجميع، إهمال مظهره غير المغتفر. وفكر الجميع، التوبيخ يوشك أن ينهال عليه. توجه المدير إلى منضدته، جلس واستدعى نائبي المدير. وكانت الفكرة العامة التي سادت هي أن أمور دون جوزيه ستسوء، وإلا لما استدعى الرئيس مرؤوسيه المباشرين، فهو يريد سماع آرائهما حول العقوبة القاسية التي يعتزم فرضها، وفكر الكتبة بسعادة، لقد نفد صبره، وكانوا قد استهجنوا في الآونة الأخيرة المعاملة التفضيلية غير المستحقة التي تلقاها دون جوزيه من الرئيس، وقرروا في دخيلتهم، آن لذلك أن ينتهي. ولكنهم سرعان ما تبينوا أن الأمر لم يكن كذلك. فبينما راح أحد نائبي المدير يأمر الجميع، مأمورين وكتبة، بأن يلتفتوا نحو المدير، كان الآخر يدور حول منضدة الكونتوار ويغلق بوابة الدخول، بعد أن علّق على جانبها الخارجي لوحة تقول *مغلق مؤقتاً لضرورات العمل*. ماذا هناك، وما الذي سيحدث، هكذا تساءل الموظفون، بمن فيهم نائبا المدير، لأنهما لا يعرفان أكثر مما يعرفه الآخرون، أو ربما يعرفون أكثر بقليل، لأن الرئيس أخبرهما بأنه سيتكلم. وكانت الكلمة الأولى التي قالها اجلسوا. فانتقل الأمر من نائبي المدير إلى المأمورين، ومن المأمورين إلى الكتبة، وحدثت الضجة المحتومة نتيجة تبديل اتجاه الكراسي، ليصبح ظهر كل واحد منهم إلى منضدته، ولكن هذا كله جرى بسرعة، وفي أقل من دقيقة كان الصمت مطبقاً في المحفوظات

Twitter: @ketab_n

العامة. لم يكن يُسمع طنين ذبابة، بالرغم من أن الذباب موجود، بعضه رابض بسكون في أماكن آمنة، وبعضه الآخر يحتضر في شِباك العناكب القذرة في السقف. نهض المدير بتمهل، وبالتمهل نفسه جاب بعينيه الموظفين، واحداً واحداً، وكأنه يراهم للمرة الأولى، أو كما لو أنه يتعرف عليهم بعد غياب طويل، والغريب أن ملامحه لم تعد متجهمة، أو أنها كانت كذلك بمفهوم آخر، وكأن ألماً أخلاقياً يؤرقه. ثم تكلم بعد ذلك، أيها السادة، بصفتي رئيس هذه المحفوظات العامة للسجل المدني، الوريث الأخير لسلالة من المديرين الذين بدأت نشاطاتهم تاريخياً بإيداع أقدم الوثائق المحفوظة في ارشيفنا، وباستخدامي القانوني للصلاحيات الممنوحة لي، ومقتدياً بأسلافي الذين سبقوني، نفذتُ وأشرفت بأعلى قدر من الدقة، على تنفيذ القوانين المدونة التي تنظم سير العمل، دون تجاهل التقاليد، بل وضعها نصب عيني في كل وقت. إنني أعي تبدل الأزمنة، والحاجة إلى التحديث المستمر في وسائل وأساليب الحياة الاجتماعية، ولكنني أدركُ، مثلما أدركَ جيداً من مارسوا قبلي إرادة هذه المحفوظات، بأن الحفاظ على الروح، الروح التي سأُطلق عليها روح الاستمرارية والهوية العضوية، يجب أن تسمو على أي اعتبار ممكن آخر، وإلا فإننا سنشهد، ما لم نوجه أنفسنا، انهيار البنيان الأخلاقي، الذي نواصل تمثيله هنا، كمؤتمنين سابقين ولاحقين على الحياة والموت. ولن نعدم من يحتج لأنه لا توجد في هذه المحفوظات العامة ولو آلة كاتبة واحدة، وهذا دون ذكر الأجهزة الأكثر حداثة، ولأن الخزائن والرفوف ما زالت من الخشب الطبيعي، ولأن الموظفين يضطرون إلى غمس ريش كتابتهم في المحابر واستخدام ورق النشاف، ولا بد أن هناك من يعتبرنا متوقفين بصورة مضحكة في التاريخ، ومن يطالب السلطة بالإدخال السريع للتكنولوجيا المتطورة في خدماتنا، ولكن إذا كان صحيحاً أن القوانين والأنظمة حساسة وسريعة

Twitter: @ketab_n

التأثر لكونها عرضة للتغيير والتبديل في كل لحظة، إلا أن الشيء نفسه لا ينطبق على التقاليد التي هي، بحد ذاتها، سواء بمجملها أو بجوهرها، ثابتة وغير قابلة للتبدل. فلا يمكن لأحد أن يعود إلى الماضي للانتقال من تقليد ولد في الزمن، وتغذى وتدعم مع الزمن. ولا يمكن لأحد أن يقول لنا إن كل ما هو موجود لم يكن موجوداً، وليس هناك من يجرؤ على الرغبة، وكأنه طفل، في عدم حدوث ما قد حدث. وإذا وجد من يفعلون ذلك فإنهم إنما يبددون وقتهم. هذه هي أسس إدراكنا وقوتنا، هذا هو الجدار الذي أمكن لنا أن نحمي وراءه، حتى يومنا هذا، هويتنا حيناً، واستقلالنا الذاتي حيناً آخر. وهكذا يجب علينا أن نستمر. وهكذا سنستمر ما لم تُشر لنا رؤى جديدة إلى حاجتنا لسبل جديدة.

إلى هنا لم يبرز أي جديد في خطاب الرئيس، وإن تكن تلك هي المرأة الأولى التي يُسمع فيها داخل المحفوظات العامة شيء يشبه إعلاناً رسمياً للمبادئ. فقد كانت العقلية الموحدة للموظفين تتشكل قبل كل شيء من خلال الممارسة العملية للعمل، التي نُظمت منذ الأزمنة الأولى بصرامة ودقة، إلا أنه، في الأجيال الأخيرة، ربما بسبب الإرهاق التاريخي للمؤسسة، تبدت بعض مظاهر التهاون الخطيرة والمستمرة التي نعرفها، والمُستنكَرة حتى على ضوء أشد الأحكام رأفة. فكر الموظفون الذين مُسَّ وعيهم المثلوم، بأن هذا هو الموضوع الرئيسي للمحاضرة المفاجئة، ولكنهم سرعان ما تبينوا وهمهم. ولو أنهم كانوا قد انتبهوا جيداً إلى الملامح التعبيرية لوجه المدير، لأدركوا على الفور أن هدفه لم يكن ذا طبيعة انضباطية، ولا الإشارة إلى توبيخ عام، وإلا لكانت كلماته، في هذه الحالة، دوت مثل ضربات جافة، واكتسى وجهه كله بلامبالاة مزدرية. ولكن هذه العلامات لم تبدُ مع ذلك في سلوك الرئيس، وإنما بدا عليه ما يكاد يشبه حال من هو معتاد على النصر

Twitter: @ketab_n

دائماً، ووجد نفسه، للمرة الأولى في الحياة، حيال قوة أكبر من قوته. وكانت هناك قلة من الموظفين، خصوصاً نائبا المدير وأحد المأمورين، اعتقدوا بأن الجملة الأخيرة، التي نطق بها هي إعلان عن الإدخال القريب للتحديث الذي كان عملة رائجة خارج جدران المحفوظات العامة، ولكنهم لم يتأخروا كذلك في الاعتراف، بحيرة، بأنهم قد أخطأوا. كان المدير يواصل كلامه، ولكن لا يخدعن أحد نفسه معتقداً بأن الأفكار التي أعرضها ستقودنا ببساطة إلى فتح أبوابنا للمخترعات الحديثة، لأن ذلك ما كان ليحتاج منا إلى التأمل، إذ يكفي استدعاء تقني متخصص في هذه الشؤون، وسنتمكن بذلك، خلال أربع وعشرين ساعة، من ملء المكان بآلات من كل نوع. وبالرغم من شدة تألمي لإعلان ذلك، ومن شدة استغرابكم واستنكاركم، فإن ما ترمي تأملاتي إلى إثارته يؤثر على أحد المظاهر الأساسية في تقاليد المحفوظات العامة، وأعني به، التوزيع المكاني للأحياء والأموات، والفصل المصطنع بينهم، ليس في أرشيفين مختلفين وحسب وإنما كذلك في منطقتين مختلفتين من المبنى. سُمع همس خفيف جداً، كما لو أن التفكير المشترك للموظفين المذهولين قد صار مسموعاً، ولا يمكن للأمر أن يكون غير ذلك، لأن أياً منهم لم يجرؤ على النطق بكلمة. وواصل المدير، إنني أتفهم انزعاجكم، لأنني أنا نفسي، حين فكرتُ بالأمر، أحسست كما لو أنني أرتكب هرطقة، بل ما هو أسوأ من ذلك، فقد شعرت بأنني أقترف إهانة ضد ذاكرة كل أولئك الذين تولوا، قبلي، موقع القيادة هذا، وضد كل من عملوا في الأماكن التي تشغلونها أنتم الآن، ولكن القوة الحتمية لما هو ظاهر للعيان اضطرتني إلى مواجهة ثِقل التقاليد، وهي تقاليد اعتبرتها طوال حياتي راسخة لا مجال لتغييرها. إن الوصول إلى هذا الوعي للوقائع ليس من صنع القدر ولا هو استجابة لإلهام مفاجئ. ففي مناسبتين، منذ أن صرتُ رئيساً للمحفوظات،

Twitter: @ketab_n

وُجهت إليّ تنبيهات استباقية، ولكنني لم أعرها في ذلك الحين أهمية خاصة، اللهم إلا تعاملي معها بطريقة لا يمكنني إلا أن أصنفها على أنها أولية، ولكنها، وأنا أدرك اليوم ذلك، كانت تمهد الطريق لكي أحتضن، بروح منفتحة، إنذاراً ثالثاً وجديداً، سأتجنب التعليق عليه في هذه المناسبة، لأسباب أرى أن الواجب يفرض إبقائها سرية. لقد كانت الحالة الأولى، والتي تحتفظون جميعكم بذكراها، عندما اقترح أحد نائبي المدير، وهو حاضر بيننا، بأن يتم تنظيم أرشيف الموتى بصورة معكوسة، أي بجعل الموتى القدماء أبعد والموتى الحديثين أقرب. ونظراً لحجم العمل الذي يتطلبه ذلك النقل، وآخذاً بعين الاعتبار قلة عدد العاملين التي نعاني منها، بدا الاقتراح غير قابل للتنفيذ بالكامل، وهذا ما أشعرتُ به صاحب الاقتراح، وإن كنتُ قد فعلت ذلك بكلمات أفضل نسيانها، وأن يتمكن هو بصورة خاصة من نسيانها أيضاً. احمرَّ وجه نائب المدير المعني من السعادة، والتفت بوجهه إلى الخلف مُظهراً نفسه، ثم نظر مجدداً نحو رئيسه وهز رأسه بحركة خفيفة، كما لو أنه يفكر، لو أنك تولي اهتمامك إلى ما يقال لك. وواصل المدير كلامه، لم أستطع أن أستوعب آنذاك بأنه وراء فكرة تبدو سخيفة، وهي كذلك بالفعل إذا ما حكمنا عليها من الوجهة العملية، ينبض حدس بشيء ثوري بالمطلق، صحيح أنه حدس لاإرادي، وغير واع، ولكن ذلك لا يجعله أقل فعالية. وصحيح أيضاً أنه لا يمكن انتظار أن يجود رأس نائب مدير بما هو أكثر من ذلك، ولكن كان على المدير، الذي هو أنا، سواء بمقتضى واجبات المنصب الفطرية أو بفعل الخبرة، أن يفهم على الفور ما يخفيه السخف الظاهري المباشر للفكرة. لم ينظر نائب المدير هذه المرة إلى الوراء، وإذا ما كان وجهه قد احمر حرجاً، فإن أحداً لم يلحظ ذلك، لأنه كان يطأطئ رأسه. توقف المدير عن الكلام لحظة ليأخذ نفساً عميقاً، ثم تابع، الحالة الثانية هي المتعلقة بذلك الباحث عن مواد

Twitter: @ketab_n

لها علاقة بشعارات النبلاء، الذي اختفى في أرشيف الموتى ولم نعثر عليه إلا بعد مرور أسبوع، وكان على وشك الموت، بعد أن فقدنا كل الآمال بالعثور عليه حياً. وحيث أنها حالة ذات مواصفات عامة، إذ ليس هناك على ما أعتقد من لم يضع مرة واحدة على الأقل في المتاهة، فقد اكتفيتُ باتخاذ التدابير التي تفرض نفسها، فأصدرتُ أمراً داخلياً يقضي بفرض استخدام خيط آريان، وهي تسمية كلاسيكية، وتهكمية أيضاً، إذا ما سمحتم لي باستخدام هذه الكلمة، للحبل الذي احتفظ به في درج منضدتي. وما يؤكد صواب هذا الإجراء هو واقع عدم حدوث حالة مماثلة أو حتى مشابهة منذ ذلك الحين. مع الوصول إلى هذه النقطة، ووفق هذا الاستعراض، يجدر بنا التساؤل عن النتائج التي استخلصتها من قضية الباحث عن شعارات النبلاء التائه، وسأقول، بكل تواضع، إنه لو لم تقع مؤخراً بعض الوقائع، ولو أن هذه الوقائع المذكورة لم تستثر في داخلي بعض التأملات، لما كنتُ توصلتُ مطلقاً إلى فهم العبثية المزدوجة التي يمثلها فصل الأموات عن الأحياء. إنها عبثية في المقام الأول من الوجهة التوثيقية، إذا اعتبرنا أن الطريقة الأسهل للعثور على الأموات هي في البحث عنهم حيث يوجد الأحياء، لأن هؤلاء، بحكم كونهم أحياء، نستبقيهم دوماً أمام أعيننا، ولكنها عبثية أيضاً، في المقام الثاني، من وجهة نظر الذاكرة، فما لم يتواجد الأموات بين الأحياء، فإن الأمر سينتهي بهم عاجلاً أو آجلاً إلى غياهب النسيان، وعندما سنحتاج إليهم، وهذا ما سيحدث كما هو معروف على المدى القريب أو البعيد، فإن العثور عليهم سيكون (مدوخاً)، واعذروني لهذا التعبير العامي. يجب أن يكون واضحاً في ذهن جميع من يستمعون إليّ هنا، دون تمييز في المراتب الوظيفية أو المقامات الشخصية، بأنني أتكلم في شؤون تتعلق، حصراً، بهذه المحفوظات العامة، وليس بالعالم الخارجي، حيث يجري دفن الأموات،

Twitter: @ketab_n

لأسباب مرتبطة بالحفاظ على الصحة البدنية والسلامة الذهنية للأحياء. ولكنني أتجرأ على القول بأن هذا الحفاظ على الصحة البدنية والسلامة الذهنية تحديداً، هو الذي يفرض علينا نحن، من نعمل في المحفوظات العامة للسجل المدني، نحن، من نكتب ونحرك أوراق الحياة والموت، أن نجمع الأحياء والأموات في أرشيف واحد، نطلق عليه ببساطة اسم الأرشيف التاريخي، ونجعلهم مجتمعين لا ينفصلون في هذا المكان، لأن القانون والعادات والخوف لا تسمح بمثل ذلك خارج هذه الجدران. وبناء عليه، سوف أوقّع أمراً يتحدد فيه أولاً، أنه ابتداء من تاريخ هذا اليوم، سيبقى الأموات في الأماكن نفسها من الأرشيف التي كانوا يشغلونها وهم أحياء، ثانياً، ستبدأ بصورة تدريجية، ملفاً ملفاً، ووثيقة وثيقة، إعادة الموتى السابقين، ابتداء من أحدثهم عهداً وحتى أقدمهم، إلى الأرشيف الذي سيتحول إلى حاضر الجميع. وأنا أدركُ أن النقطة الثانية تحتاج لعشرات السنين كي تتحقق، وأنه لن يتاح لنا، وربما للجيل التالي، أن نشهد اللحظة التي ستعود فيها أوراق الميت الأخير، البالية، التي نخرها العث، وسوّدها غبار القرون، إلى العالم الذي سُحبت منه بعمل عنف أخير لا مبرر له. وبما أن الموت النهائي هو الثمرة الأخيرة لإرادة النسيان، فسوف يكون بإمكان إرادة التذكر أن تخلد الحياة. ربما كنتم ستتعللون، بركاكة مفترضة، لو أنني طلبت رأيكم، بأن ديمومةً مثل هذه لن تنفع من ماتوا في شيء. وهذه ليست إلا حجة من لا يرى أبعد من أنفه. ففي حالة إبداء رأيكم هذا، وكذلك في حالة رؤيتي أنه من الضروري الرد عليه، فإنني سوف أوضح بأني كنتُ أتحدث هنا عن الحياة فقط، وليس عن الموت، وإذا كنتم لم تفهموا هذا من قبل، فلأنكم لن تكونوا قادرين مطلقاً على فهم أي شيء.

حالة التوقير التي استمع بها الحضور للجزء الأخير من الخطاب،

Twitter: @ketab_n

تزعزعت بعنف بسبب سخرية الكلمات الأخيرة. عاد المدير ليكون الرئيس الذي يعرفونه منذ الأزل، الرئيس المتغطرس والمتهكم، الجازم في أحكامه، الصارم في الانضباط، مثلما قال بعد ذلك بوضوح، من أجل مصلحتكم أنتم فقط، وليس من أجل مصلحتي، يتوجب علي أن أقول لكم إن أسوأ خطأ ترتكبونه على امتداد حيواتكم هو أن تعتبروا حديثي إليكم بقلب وعقل منفتحين هو علامة ضعف شخصي أو انتقاص للسلطة الرسمية. وإذا كنتُ لم أقتصر ببساطة على إصدار الأمر، دون تفسيرات، مثلما يخولني منصبي، فلأنني أريدكم فقط أن تفهموا الأسباب العميقة لقراري، ولأنني أرغب فقط في أن يتم تنفيذ العمل الذي ينتظركم بروح من يشعر بأنه يبني شيئاً، وليس باللامبالاة البيروقراطية لمن تلقى أمراً بجمع أوراق إلى أوراق. الانضباط سيبقى في هذه المحفوظات مثلما كان على الدوام، لا سهو، لا هراء، لا كلمات ليست لها علاقة مباشرة بالخدمة، لا دخول بعد الوقت المحدد، ولا أي إهمال في السلوك الشخصي، سواء في الأسلوب أو المظهر. وفكر دون جوزيه، هذا موجه إليّ، لأني لم أحلق ذقني، ولكنه لم يقلق، فقد يتوقف التلميح عند هذا الحد، لكنه طأطأ رأسه على كل حال ببطء شديد، مثل تلميذ لم يحفظ الدرس ويريد التملص من استدعائه إلى السبورة. بدا أن الخطبة قد بلغت منتهاها، ولكن أحداً لم يتحرك، لأن عليهم انتظار الأمر بالعودة إلى العمل، ولهذا فزعوا جميعهم عندما قال المدير منادياً بنبرة قوية وجافة، دون جوزيه، نهض المنادى بسرعة، ما الذي تريده مني، ولم يعد يفكر في أن سبب النداء الفظ هو لحيته النامية، فثمة ما هو أخطر بكثير من تأنيب عادي في طريقه إليه، فهذا هو ما تعلن عنه ملامح الرئيس القاسية، وهو ما بدأت تضج به في رأسه نوبة غمّ رهيبة عندما رآه يتقدم باتجاهه، ويتوقف أمامه، وكاد دون جوزيه أن يفقد القدرة على التنفس، منتظراً الكلمة الأولى مثلما ينتظر

Twitter: @ketab_n

المحكوم بالإعدام سقوط شفرة المقصلة، أو شد حبل المشنقة، أو انطلاق رصاص فصيلة الإعدام، وعندئذ قال الرئيس، هذه اللحية. ثم أدار ظهره، وأومأ إلى نائبيه للبدء في العمل. لقد تبدى في وجهه الآن شيء من الرضى، لمحة غريبة من السكينة، كما لو أنه هو أيضاً قد وصل إلى نهاية مهمة ما. لن يأتي أحد ليناقش مع دون جوزيه هذه الانطباعات، أولاً لكي لا يملأ له رأسه بمزيد من الأوهام، وثانياً لأن الأمر واضح. ولا كلمة واحدة ليست على علاقة مباشرة بالعمل.

Twitter: @ketab_n

الدخول إلى المقبرة يتم عبر بناء قديم تكاد واجهته أن تكون أخاً توأماً لواجهة المحفوظات العامة للسجل المدني. ففيها الدرجات الحجرية السوداء الثلاث نفسها، والبوابة القديمة في الوسط نفسها، والنوافذ الخمس المتطاولة في الأعلى نفسها. ولولا البوابة الخارجية الكبرى ذات المصراعين المجاورة للمقدمة، فإن الفرق الكبير سيكون في اللوحة المعلقة فوق بوابة الدخول، وهي مكتوبة كذلك بحروف من الملاط، وتقول المقبرة العامة. البوابة الكبرى مغلقة منذ سنوات طويلة، حين تبين أن الدخول منها لم يعد عملياً، ولا يفي تماماً بالهدف الذي كُرست له، وهو السماح بدخول مريح ليس للموتى ومرافقيهم وحسب، وإنما كذلك للزائرين الذين سيأتون لزيارة أولئك الموتى لاحقاً. ومثلما في كل مقابر هذا العالم وأي عالم آخر، بدأت المقبرة كشيء صغير جداً، قطعة أرض مقتضبة خارج ما كان يشكل جنين المدينة، مفتوحة لهواء الأرياف الطلق، ولكنها فيما بعد، مع مرور الزمن، ومثلما هو مقدر، لسوء الحظ، راحت تنمو، وتنمو، وتنمو، إلى أن تحولت إلى المقبرة الهائلة التي هي عليها اليوم. في البدء كان كل شيء محصوراً بسور، وطوال أجيال، كلما أخذت الفسحة الداخلية تضيق على سكن الموتى أو حركة الأحياء العملية، كان يحدث الشيء نفسه الذي يجري في المحفوظات العامة، تُهدم الجدران ويُعاد بناؤها إلى الوراء قليلاً. وفي أحد الأيام، وهذا مضى عليه حوالي أربعة قرون، خطرت للقيِّم على المقبرة في ذلك الحين فكرة فتحها من كل الجهات، باستثناء

Twitter: @ketab_n

الجهة المطلة على الشارع، متذرعاً بأنها الطريقة الوحيدة لتنشيط العلاقة العاطفية بين من هم في الداخل ومن هم في الخارج، والتي كانت قد تقلصت آنذاك، وهو ما يمكن لأي شخص أن يتحقق منه إذا ما دقق في الإهمال الذي كانت تعانيه القبور، وخصوصاً القديمة منها. وكان ذلك القيِّم يعتقد بأن الجدران، على الرغم من فائدتها الإيجابية من الناحية الصحية والتجميلية، إلا أنها تنتهي إلى إشاعة تأثير خبيث بإطلاقها أجنحة النسيان، وهو ما يجب ألا يفاجئ أحداً، إذا ما تمثلنا الحكمة الشعبية المعروفة مذ صارت الدنيا دنيا، بأن القلب لا يشعر بما لا تراه العين. لدينا أسباب كثيرة للاعتقاد بأن دوافع ذات جذر داخلي فقط، هي التي قادت رئيس المحفوظات إلى اتخاذ قرار توحيد أرشيفي الموتى والأحياء، مخالفاً بذلك التقاليد والروتين، ليدمج بهذه الطريقة المجتمع البشري في المنطقة التوثيقية المحددة ضمن صلاحياته. ولهذا يصير من الصعب علينا تفهم التقاعس اللاحق في إبراز الدرس الريادي لقيِّم مقبرة بائس وبدائي، وقليل الذكاء دون شك، مثلما هو طبيعي في حرفته وفي زمانه، ولكنه ذو حدس ثوري، والأدهى من كل ذلك، ونحن نسجله بحزن، أنه لا يوجد على قبره لوحة وقورة، تدل الأجيال اللاحقة على مأثرته. بل على العكس من ذلك، فمنذ أربعة قرون تُوجَّه اللعنات، والشتائم، والافتراءات، والأهاجي إلى ذكرى ذلك المجدد التعس، واعتباره المسؤول التاريخي عن الوضع الحالي للمقبرة الأثرية، الذي يصفونه بالكارثة الوخيمة والفوضوية، خصوصاً وأن المقبرة العامة لم تبق دون جدران تحيط بها فقط، بل صار من المستحيل أن يشيد لها سور في أي يوم من الأيام. فلنوضح الأمر بصورة أفضل. كنا قد قلنا سابقاً بأن المقبرة قد نمت، ولم يحدث ذلك طبعاً بفضل قدرتها الذاتية على التكاثر، كما لو أن الموتى، واسمحوا لي بهذا المثال المشؤوم، راحوا ينجبون أمواتاً دون حساب، وإنما لأن المدينة

Twitter: @ketab_n

كانت تتزايد سكانياً فتتزايد بالتالي قبورها أيضاً. عندما كانت المقبرة ما تزال محاطة بسور، حدثت أكثر من مرة، في فترات متتالية، تلك الظاهرة التي سيُطلق عليها فيما بعد، بلغة البيروقراطية البلدية، طفرات التوسع السكاني العمراني. وشيئاً فشيئاً بدأت الحقول الفسيحة التي وراء المقبرة بالتحول إلى مناطق مأهولة، ونشأت تجمعات سكانية صغيرة، ضياع، دساكر، إقامات ثانية، راحت تنمو بدورها هنا وهناك، ويتصل بعضها ببعض، ولكنها تركت فيما بينها مع ذلك مساحات فسيحة خالية هي حقول الزراعة، أو الغابات، أو المراعي، أو الآجام. وفي هذه المساحات بالذات راحت تتمدد المقبرة العامة بعد أن هدموا أسوارها. ومثلما يبدأ فيضان بغمر المستويات المنخفضة، متلوياً في الوديان، ليأخذ بعد ذلك بالارتفاع متثاقلاً على السفوح، هكذا راحت القبور تكتسح الأرض، ملحقة في أحيان كثيرة أضراراً خطيرة بالزراعة، حين لم يعد أمام مالكي الأراضي، مدفوعين بالحصار، من مخرج سوى بيع بساتينهم، أو أنها أحاطت في أحيان أخرى ببساتين التفاحيات، وحقول القمح، والبيادر، وزرائب الماشية، تحت نظر السكان على الدوام، وفي أحيان كثيرة بطريقة يمكن وصفها بالباب مقابل الباب. إذا ما نُظر إلى المقبرة العامة من الفضاء، فإنها تبدو أشبه بشجرة مطروحة أرضاً، جذعها قصير وثخين، تشكله النواة الأصلية للمدافن، ومنه تتفرع أربعة أغصان غليظة، متجاورة المنبت، ولكنها تتشعب بعد ذلك في تفرعات متوالية، تمتد حتى تضيع عن البصر، مشكلة، على حدّ قول شاعر ملهم، شجرة وارفة يختلط فيها الموت بالحياة، مثلما تختلط على الأشجار الحقيقية العصافير بالأوراق.
هذا هو السبب الذي أدى إلى التوقف عن استخدام البوابة الرئيسية للمقبرة العامة كمدخل للمواكب الجنائزية. لم تعد البوابة تُفتح إلا في أوقات متباعدة، عندما يتقدم باحث متخصص بالأحجار القديمة، بعد

Twitter: @ketab_n

أن يكون قد درس نصباً جنائزياً من أزمنة المقبرة الأولى، بطلب تصريح لاستنساخ بعض القوالب، مع ما يتبع ذلك من إحضار مواد أولية، مثل الجص وألياف القنب والأسلاك، ومواد تكميلية في بعض الأحيان، مثل التقاط صور فوتوغرافية دقيقة وحساسة، من تلك التي تتطلب مصابيح إضاءة، وكشافات، وبطاريات، وأجهزة قياس شدة الضوء، ومظلات ومعدات أخرى لا يُسمح، من أجل عدم تشويش العمل الإداري، بإدخالها من الباب الصغير الذي يصل داخلياً بين المبنى الإداري والمقبرة.

على الرغم من هذا التراكم المفرط للتفاصيل، التي ربما اعتُبرت بلا معنى، من حيث أن الغاية، في عودة إلى المقارنات النباتية، تحول دون رؤية الأشجار، وهناك احتمال كبير بأن أحد مستمعي هذه القصة، من المستمعين المتيقظين والمهتمين، ممن لم يفقدوا الإحساس بمطلب تنظيمي متوارث لعمليات ذهنية محددة، عبر المنطق المكتسب من المعارف بصورة خاصة، نقول إن هناك احتمالاً كبيراً بأن ذلك المستمع سيقف جذرياً ضد وجود، بل وضد تعميم مثل هذه المقابر غير المنضبطة والهذيانية، التي توشك أن تصل إلى السير، كتفاً إلى كتف تقريباً، مع الأماكن التي خصصها الأحياء لاستخدامهم الخاص، مثلما هي البيوت، والشوارع، والساحات، والحدائق والأماكن العامة الأخرى، كالمسارح، ودور السينما، والمقاهي، والمطاعم، والمستشفيات، ومصحات الأمراض العقلية، ومفوضيات الشرطة، وحدائق الأطفال، والمناطق الرياضية، ومواقع المهرجانات والمعارض، ومواقف السيارات، والمتاجر الكبرى، والحوانيت الصغيرة، والأزقة، والحواري، والجادات. وانه، على الرغم من تفهم الحاجة الماسة لنمو المقبرة العامة، في تناسب تكافلي مع تطور المدينة وتزايد سكانها، يرون أن الحيز المخصص للراحة النهائية يجب أن يخضع لحدود صارمة وفق أنظمة صارمة. فقطعة

Twitter: @ketab_n

أرض عادية مربعة ذات جدران عالية، دون زخارف أو فخفخة في الزينة المعمارية، ستكون أكثر من كافية، بدل هذا الأخطبوط الضخم، وهو في الحقيقة أشبه بالأخطبوط منه بالشجرة، مهما سبب ذلك من آلام للتخيلات الشعرية، الذي يتمدد خارجاً بأذرعه الثمانية، الستة عشر، الاثنين والثلاثين، الأربعة والستين، وكأنه يريد احتواء العالم بأسره. وان الأسلوب السليم المعمول به في البلدان المتحضرة، مع مزايا أثبتتها التجارب، يعمد إلى إبقاء الأجساد تحت التراب لبضع سنوات، تكون خمس سنوات عموماً، يتم في نهايتها، باستثناء حدوث معجزة عدم التفسخ، استخراج القدر القليل المتبقي من الجسد بعد تعرضه للتآكل بفعل الكلس الحي وهضم الديدان، من أجل إفساح المجال لشاغلين جدد. وفي البلدان المتحضرة لا وجود لهذه الممارسة العقيمة المتمثلة في الأماكن الأبدية، ولا لهذه الفكرة التي ترى أنه يجب عدم المس بأي قبر إلى الأبد، كما لو أنه يمكن للموت أن يكون سرمدياً ما دامت الحياة السرمدية غير ممكنة. وها هي النتائج ظاهرة للعيان، متمثلة في هذه البوابة المحكومة بالإغلاق، وبفوضى الحركة الداخلية، والتفاف الجنازات الذي يصبح أطول فأطول للدوران خارج المقبرة العامة قبل أن تصل إلى مستقرها، في أقصى أي واحد من أذرع الأخطبوط الأربعة والستين، والتي لا يمكن بلوغها دون الاستعانة بدليل يتقدم الجنازة. وبالطريقة نفسها التي في المحفوظات العامة للسجل المدني، مع أنه، بسبب نسيان مؤسف، لم تجر الإشارة إلى هذه المعلومة في حينه، فإن الشعار غير المكتوب لهذه المقبرة العامة هو كل الأسماء، بالرغم من أنه لا بد من الاعتراف، في الواقع، بأن هاتين الكلمتين تنطبقان أكثر على المحفوظات، لأن الأسماء كلها موجودة فيها بالفعل، أسماء الأموات أو أسماء الأحياء على السواء، أما المقبرة، وبسبب طبيعتها كمستقر أخير ومستودع أخير، فعليها أن ترتضي دوماً بأسماء

Twitter: @ketab_n

الميتين فقط. ومع ذلك، فإن هذه البديهية الرياضية غير كافية لإسكات القائمين على المقبرة العامة، الذين يهزون أكتافهم حيال ما يسمونه النقص العددي الظاهري، ويعلقون، مع الزمن والصبر سينتهي الأمر بالجميع هنا، فمحفوظات السجل المدني، إذا ما نظرنا إلى الأمر بتمعن، ليست سوى رافد للمقبرة العامة. ولا حاجة للقول إن المحفوظات العامة ترى في وصفها بالرافد إهانة مشينة. وبالرغم من هذه الخصومات، وهذه المنافسات المهنية، فإن العلاقات بين موظفي المحفوظات والمقبرة هي، بكل وضوح، ودية، وتقوم على الاحترام المتبادل، وذلك لأنهم في العمق، فضلاً عن التعاون المؤسساتي الذي يضطرون إليه من خلال التواصل الرسمي والتقارب الموضوعي لأنظمتهم الخاصة، يعرفون أنهم إنما يحفرون في طرفي الكَرْم نفسه، هذا الكرم الذي يدعى حياة ويقع بين العدم والعدم.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يذهب فيها دون جوزيه إلى المقبرة العامة. فالحاجة البيروقراطية للتأكد من بعض الإجراءات، توضيح بعض التناقضات، مقارنة بعض البيانات، تدقيق بعض الاختلافات، تضطر موظفي المحفوظات إلى التردد بكثرة على المقبرة، والكتبة هم الذين يذهبون في الغالب، وقلما يذهب المأمورون، أما نائبا المدير والمدير نفسه فلا حاجة إلى الإشارة إلى أنهم لا يذهبون مطلقاً. كما أن كتبة ومأموري المقبرة العامة، يذهبون بين حين وآخر، لأسباب مماثلة، إلى المحفوظات، وهم يستقبلونهم هناك أيضاً بالترحاب نفسه الذي سيحيطون به دون جوزيه هنا. ومبنى إدارة المقبرة من الداخل، مثلما هي واجهته، هو نسخة أمينة وطبق الأصل عن المحفوظات، ولا بد من التنويه هنا إلى أنه من عادة موظفي المقبرة العامة التأكيد على أن محفوظات السجل المدني هي نسخة عن المقبرة، وأنها نسخة ناقصة لافتقادها البوابة الخارجية الضخمة، فيرد موظفو المحفوظات على

Twitter: @ketab_n

ذلك بالقول يا لأهمية هذه البوابة التي تبقى مغلقة. ومهما يكن من أمر، فإننا نجد هنا منضدة الكونتوار الطويلة نفسها التي تقطع القاعة الفسيحة، والخزائن العالية نفسها، وترتيب العاملين نفسه، على شكل مثلث، الكتبة الثمانية في الصف الأول، والمأمورون الأربعة بعدهم، ويليهم نائبا القيّم، فهكذا يسميان هنا، وكذلك القيِّم، في رأس زاوية المثلث، وهو ليس مديراً، وإنما هو قيّم. ومع ذلك، فإن هؤلاء الموظفين الإداريين ليسوا كل العاملين في المقبرة. فعلى مقعدين طويلين، على جانبي المدخل، قبالة الكونتوار، يجلس المرشدون. هناك من لا يزال يطلق عليهم، بفجاجة، تسمية حفاري القبور، كما في الأزمنة الأولى، لكن تصنيف مرتبتهم المهنية، في الجريدة الرسمية للمدينة، هو مرشد في المقبرة، وهي تسمية إذا ما أمعنا النظر، وعلى عكس ما يمكن تخيله، لا ترمي إلى تلطيف متعمد لمداراة الفظاظة المؤلمة لمجرفة تحفر حفرة مستطيلة في الأرض، وإنما هي التعبير الصحيح عن وظيفة لا تقتصر على إنزال الميت إلى الأعماق، بل تقوده كذلك على السطح. فهؤلاء الرجال الذين يعمل كل اثنين منهم معاً، يجلسون منتظرين، بصمت، مجيء المواكب الجنائزية، وعند ذلك يتزودون بوثيقة مرشد المسير التي يملؤها الكاتب المكلف بالميت، ويركبون في إحدى سيارات الخدمة التي تنتظر في المرآب، من تلك السيارات التي على مؤخرتها لوحة مضيئة تشتعل وتنطفئ قائلة اتبعني، مثل المستخدمة في المطارات، وفي هذه النقطة يكون قيِّم المقبرة العامة على حق تماماً عندما يؤكد بأنهم متقدمون في التكنولوجيا الحديثة على محفوظات السجل المدني، حيث ما زالت التقاليد تقضي باستخدام ريشة تغمس في المحبرة. والحقيقة أن رؤية العربة المأتمية ومرافقيها يتبعون المرشدين بانصياع عبر شوارع المدينة المنظمة، وعبر الدروب السيئة في الضواحي، بينما الضوء يشتعل وينطفئ دون توقف حتى موقع

Twitter: @ketab_n

المدفن، اتبعني، اتبعني، اتبعني، يجعل من المستحيل عدم الإقرار بأن الانتقال من العالم لا يكون إلى عالم أسوأ دوماً. ومع أن هذا التفصيل لا يتمتع بأهمية خاصة في الفهم الإجمالي للقصة، إلا أنه من المناسب توضيح أن إحدى أبرز المواصفات الشخصية لهؤلاء المرشدين هي أنهم يؤمنون بأن الكون محكوم فعلاً بتفكير سامٍ متيقظ على الدوام لتلبية الحاجات البشرية، لأنه لو لم يكن كذلك، مثلما يتعللون هم، لما اختُرعت السيارات في اللحظة التي صارت الحاجة إليها ماسة بالضبط، أي عندما صارت المقبرة العامة شديدة الاتساع وصار العذابُ محنةَ آلام حقيقية في نقل الميت إلى الجلجلة بالوسائل التقليدية، سواء أكانت العصا والحبل، أم العربة ذات العجلتين. وإذا ما جرى لفت انتباههم برصانة إلى أنه عليهم أن يكونوا أكثر حذراً في استخدام الكلمات، لأن الجلجلة ومحنة الآلام[1] هما الشيء نفسه، ولا معنى لاستخدام لفظتين تشيران إلى الآلام التي يسببها نقل شخص لم يعد قادراً على التألم، فمن المؤكد والمضمون أنهم سيردون علينا بانزعاج بأن كل واحد يعرف نفسه والله وحده هو الذي يعرف الجميع.

دخل دون جوزيه على أي حال، وتقدم مباشرة إلى منضدة الكونتوار، موجهاً لدى مروره نظرة فاترة إلى المرشدين الجالسين الذين لا يتعاطف معهم لأن وجودهم يخل بتوازن العاملين العددي لصالح المقبرة. ولأنه معروف في المكان، لم يكن بحاجة إلى تقديم بطاقة هويته كموظف في السجل المدني، أما وثيقة التكليف الشهيرة، فلم يخطر له حتى مجرد إحضارها معه، لأنه يمكن لأقل الكتبة خبرة أن يكتشف، بنظرة واحدة، أنها مزيفة من السطر الأول حتى الأخير. ومن

---

[1] يستخدم كلمتي calvario و gólgota، وهما تشيران إلى اسم الجبل الذي صُلب عليه السيد المسيح. وكلتاهما تشيران معنوياً إلى محنة العذاب. وإن كانت الأولى أكثر دلالة على هذا المعنى، بينما الثانية أكثر دلالة على اسم الموقع.

Twitter: @ketab_n

بين الموظفين الثمانية الذين يصطفون وراء الكونتوار، اختار دون جوزيه واحداً ممن يستلطفهم أكثر من سواهم، وهو رجل أكبر منه سناً بقليل، يبدو عليه سهو من لم يعد ينتظر حياة أخرى. لقد كان يجده هناك على الدوام، مثل الآخرين، أياً كان اليوم الذي يذهب فيه. وكان يظن في البدء بأن موظفي المقبرة لا يتمتعون بالعطلة الأسبوعية ولا بإجازات، وأنهم يعملون طوال أيام السنة، إلى أن أخبره أحدهم بأن الأمر ليس كذلك، وبأن هناك فرقاً احتياطية يتم التعاقد معها للعمل أيام الآحاد، فنحن لم نعد في زمن العبودية يا دون جوزيه. ويبدو أنه لا طائل من القول إن رغبة موظفي المقبرة العامة، منذ سنوات طويلة، هي أن يتولى أولئك الاحتياطيون العمل كذلك في الفترة المسائية من أيام السبت، ولكن مطالبهم لم تُقبل لذرائع تتعلق بالميزانية والوضع الاقتصادي، ولم ينفع موظفو المقبرة في شيء إشارتهم إلى أن موظفي محفوظات السجل المدني لا يعملون أيام السبت إلا في الفترة الصباحية، وكانت فتوى البلاغ السامي الذي رفض الطلب هي، الأحياء يستطيعون الانتظار، أما الموتى فلا. وعلى كل حال، كان من المريب أن يظهر هناك موظف من المحفوظات في مأمورية رسمية مساء يوم السبت تحديداً، بينما يفترض فيه أن يستمتع بالعطلة الأسبوعية مع أسرته، يتنزه في الريف أو يشغل نفسه في إصلاحات منزلية تؤجل إلى أن يُتاح الوقت لإنجازها، أو يخرج للتسكع على الأقل، أو يتساءل عن جدوى العطلة عندما لا نعرف ما الذي نفعله بها. ولتفادي استهجانات غير مواتية، سرعان ما تتحول بسهولة إلى احراجات، سعى دون جوزيه إلى استباق فضول محادثه، مقدماً التبرير الذي جاء به جاهزاً، إنها قضية استثنائية، مستعجلة، نائب مديرنا بحاجة إلى هذه المعلومة يوم الاثنين صباحاً، ولهذا طلب مني المجيء اليوم إلى المقبرة العامة، في ساعات فراغي، آه، حسن، قل

Twitter: @ketab_n

لي ما هو الموضوع، إنه بسيط جداً، نريد أن نعرف فقط متى دُفنت هذه المرأة. تناول الرجل البطاقة التي قدمها إليه دون جوزيه، واستنسخ الاسم وتاريخ الوفاة على ورقة، وذهب ليستشير المأمور المختص. لم يفهم دون جوزيه ما كانا يقولانه، فهنا، مثلما هي الحال في المحفوظات، لا يمكن التكلم إلا بصوت خافت، ولا بد من أخذ بُعد المسافة بعين الاعتبار أيضاً، ولكنه رأى أن المأمور يهز رأسه مؤكداً، ومن خلال حركة شفتيه، لم يخامره الشك في ما يقوله، يمكنه الحصول على المعلومة. بحث الرجل في فهرس البطاقات الموجود تحت منضدة الكونتوار، حيث تُحفظ بطاقات موتى الخمسين سنة الأخيرة، أما الآخرون فيملؤون الخزائن العالية التي تمتد إلى داخل المبنى، فتح الرجل أحد الأدراج، وجد بطاقة المرأة، استنسخ على الورقة التاريخ المطلوب ورجع إلى حيث يقف دون جوزيه، ها هو، قال ذلك ثم أضاف وكأنه يشعر بأنه يمكن لمعلومة إضافية أن تكون مفيدة، إنها في قسم المنتحرين. أحس دون جوزيه بتشنج مباغت في بواب معدته، وهذا هو المكان، على وجه التقريب، الذي يوجد فيه، حسب مقال قرأه منذ زمن في مجلة علمية، نوع من النجمة العصبية متعددة الأطراف، ذات نقطة اتصال شعاعية يسمونها ضفيرة عصبية شمسية، ولكنه استطاع مع ذلك أن يداري وقع المفاجأة بتصنع عدم المبالاة آلياً، فسبب الوفاة وارد حتماً في شهادة الوفاة الضائعة، والتي لم يرها قط، ولكنه لا يستطيع إظهار عدم معرفة ذلك، وهو الموظف في المحفوظات، فضلاً عن انه قادم إلى المقبرة في مهمة رسمية. طوى الورقة بكل حرص وخبأها في محفظته، وشكر من قدم له المعلومة، دون أن ينسى أن يضيف بأنه سيكون تحت تصرفه في كل ما يحتاجه من المحفوظات، مما هو ضمن إمكانياته، وهي مجرد كلمات يتبادلها الموظفون، لأن أياً منهما لا يعدو كونه كاتباً. وبعد أن مشى خطوتين باتجاه الباب، رجع قائلاً، لقد

Twitter: @ketab_n

خطرت لي الآن فكرة، سأستغل لحظة من هذا المساء للقيام بجولة في المقبرة، فإذا ما سمحتم لي بالدخول من هنا، ستجنبونني عناء الدوران في التفافة طويلة، فقال له الكاتب، انتظر ريثما أستفسر. نقل الرغبة إلى المأمور الذي تحدث معه من قبل، ولكن هذا، بدلاً من أن يرد عليه، نهض وتوجه إلى نائب القَيِّم في قسمه، وبالرغم من أن المسافة كانت أكبر من المرة السابقة، إلا أن دون جوزيه فهم من إيماءة الرأس وحركة الشفتين بأن طلبه سيستجاب ويُسمح له بالمرور عبر الباب الداخلي. لم يرجع الكاتب فوراً إلى الكونتوار، بل فتح أولاً إحدى الخزائن وأخرج منها صحيفة كرتون كبيرة، وضعها بعد ذلك تحت غطاء آلة تنبعث منها بعض الأضواء الملونة. ضغط زراً، وسُمعت ضجة حركة آلية، أضيئت أنوار أخرى ثم خرجت ورقة أصغر حجماً من فتحة جانبية في الآلة. أعاد الكاتب صحيفة الكرتون إلى الخزانة، ورجع أخيراً إلى الكونتوار، من الأفضل أن تأخذ معك خريطة، فقد وقعت حالات ضاع فيها بعض الأشخاص، وتطلب العثور عليهم تعقيدات هائلة، إذ يتوجب على المرشدين في مثل هذه الحالات أن ينطلقوا للبحث عنهم بالسيارات، فيضطرب سير العمل، وتتعطل الجنازات في الانتظار هنا في الخارج، الناس يصابون بالذعر ويفقدون أعصابهم بسهولة، يكفي أن يواصلوا المشي في خط مستقيم، وفي الاتجاه نفسه، ليصلوا بذلك إلى مكان ما، الصعوبة الحقيقية هي في أرشيف الموتى في المحفوظات العامة، فهناك لا وجود لخطوط مستقيمة، نظرياً معك حق، ولكن الخطوط المستقيمة هنا هي مثل خطوط متاهة الممرات، تتقاطع فيما بينها طوال الوقت، وتبدل اتجاهها، تدور حول قبر، فلا نعود نعرف فجأة أين نحن، نحن نستخدم في المحفوظات عادة خيط آريان، وهو لا يخيب ظننا أبداً، لقد استخدمناه نحن أيضاً في إحدى الفترات، ولكن لوقت قصير، فقد تقطع الخيط في عدة مناسبات، ولم يتم التوصل إلى

Twitter: @ketab_n

معرفة الفاعل ولا سبب إقدامه على ذلك، لم يكن الموتى وراء ذلك بالتأكيد، من يدري، هؤلاء الأشخاص الذين ضلوا طريقهم هم أناس يفتقرون إلى المبادرة، فقد كان بإمكانهم التوجه مستعينين بالشمس، لقد فعل بعضهم ذلك، ولكن السيئ في الأمر هو أن تكون السماء غائمة، ليس لدينا مثل هذه الآلات في المحفوظات، اقول لك إنها تساعد كثيراً في العمل. لم يعد بإمكانهما مواصلة المحادثة لمزيد من الوقت، فقد نظر إليهما المأمور مرتين، وفي المرة الثانية قطب جبينه، وكان دون جوزيه هو الذي نبه محادثه بصوت خافت، مأمورك وجه إلينا نظرتين، لا أريد لك أن تتعرض لمشاكل بسببي، سأدلك فقط على المكان الذي دُفنت فيه المرأة، لاحظ نهاية هذا التفرع، الخط المتعرج هنا هو جدول ما زال يشكل حداً، والقبر موجود عند هذا المنعطف، يمكنك التعرف عليه من الرقم، وماذا عن الاسم، أجل، إذا كان الاسم قد نُقش عليه، ولكن الأرقام هي التي تؤخذ في الاعتبار عندنا، أما الأسماء فلا تتسع لها الخريطة، وإلا سنحتاج إلى خريطة بحجم العالم، بمقياس رسم واحد إلى واحد، أجل، واحد إلى واحد، وحتى في هذه الحالة سيغطي بعض الأسماء بعضها الآخر، وهل الخريطة جديدة، إننا نجددها كل يوم، وبالمناسبة، قل ما الذي تظنه بي وأنا أسعى لرؤية قبر المرأة، لا شيء، ربما لأنني كنتُ سأفعل الشيء نفسه لو كنتُ مكانك، لماذا، من أجل التوصل إلى اليقين، بأنها ميتة، لا، اليقين بأنها كانت على قيد الحياة. نظر المأمور للمرة الثالثة، وتحرك كمن هو يوشك على النهوض، ولكنه لم يُكمل حركته، فقد ودّع دون جوزيه الكاتب على عجل، شكراً، شكراً، قال ذلك وهو ينحني رأسه قليلاً باتجاه القَيِّم، ذلك المقام الذي يجب أن تنحني له الهامات احتراماً بخضوع على الدوام، مثلما يحدث عند تقديم الشكر للسماء، حتى ولو كانت متلبدة، مع فرق وحيد هو أن الرأس لا ينحني إلى أسفل في هذه الحالة، وإنما يشرئب

Twitter: @ketab_n

إلى أعلى.

أقدم أجزاء المقبرة العامة، الجزء الذي يتسع إلى بضع عشرات الأمتار في الجهة الخلفية للمبنى الإداري، هو الذي يفضله علماء الآثار لأبحاثهم. وكانت الأحجار القديمة، التي أبلى الزمن بعضها إلى حد لم يعد معه ممكناً أن تميز فيها سوى بعض الخطوط شبه المتلاشية التي يمكن لها أن تكون بقايا حروف أو ضربات إزميل أخرق على السواء، ما تزال موضع مناظرات ومجادلات مكثفة، ضاع فيها نهائياً، في معظم الحالات، الأمل بمعرفة من الذي دُفن تحتها، وغالباً ما تُناقش تلك الكتابات المحتملة، كمسألة حيوية. اختلافات عقيمة، حول مئة سنة تافهة إلى الأمام أو مئة سنة إلى الوراء، كانت سبباً في مجادلات طويلة، عامة أو أكاديمية، تسفر في أغلب الأحيان، ليس عن قطيعة عنيفة للعلاقات الشخصية وحسب، وإنما إلى عداوات قاتلة كذلك. وكانت الأمور تزداد سوءاً عندما يظهر المؤرخون ونقاد الفن ليدسوا ملعقتهم في القضية، لأنه إذا كان ما يزال ممكناً للسلك الأركيولوجي أن يتوصل إلى اتفاق حول مفهوم واسع للقِدم يكون مقبولاً من الجميع، بترك تحديد التواريخ إلى ما بعد، فإن مسألة ما هو جميل وما هو حقيقي تضع رجال، ونساء، علم الجمال والتاريخ على خلاف، ليشد كل واحد المسألة إلى جهته، ولا يكون غريباً على الإطلاق رؤية ناقد فني يبدل رأيه فجأة لمجرد أن ناقداً آخر غيّر وجهة نظره فتطابق الرأيان. وعلى امتداد قرون طويلة، كان السلام الفائق الذي يكتنف المقبرة العامة، بأجنحته النباتية التلقائية، بأزهاره، بلبلابه، بآجامه الكثيفة، بضفائر زهره وأكاليله، بقريصه وعوسجه، وبالأشجار الجبارة التي كثيراً ما تنبش جذورها أحجار المدافن وتُخرج إلى ضوء الشمس عظاماً فاجأتها، هدفاً وشاهداً على حروب كلامية ضارية وعلى تحولات سريعة بين حين وآخر. وكلما كانت تقع أحداث من هذا النوع، كان

Twitter: @ketab_n

القَيِّم يبدأ بإصدار الأوامر للمرشدين المتوفرين لديه لكي يسرعوا للفصل بين أولئك الأعلام المشاكسين، وإذا ما تطلب الأمر، واستدعت الضرورة القصوى حضوره شخصياً، فإنه يذكّر المتعاركين بسخرية بأنه لا يجدر بهم أن يشعثوا شعورهم من أجل أمر تافه في الحياة، لأنهم سيجتمعون هناك، عاجلاً أو آجلاً، وقد أصبحوا جميعهم صلعاناً. ومثل رئيس محفوظات السجل المدني، يتعاطى قَيِّم المقبرة العامة السخرية اللاذعة بتألق، وبهذا يتأكد الاعتداد في اعتبار هذا الجانب من الشخصية ضرورياً من أجل الوصول إلى المناصب الرفيعة، إضافة بالطبع إلى الكفاءات المعرفية العملية والنظرية في تقنيات التوثيق. ومع ذلك، فإن المؤرخين، ونقاد الفن، وعلماء الآثار يعترفون، في بعض الحالات، بأنهم متفقون على واقع أن المقبرة العامة هي كتالوج كامل، ومجمع عينات، وملخص لكل الأساليب، وخصوصاً أساليب فنون العمارة والنحت والزخرفة، وهي بالتالي فهرس لكل أساليب الرؤى والعيش والسكن التي وجدت حتى اليوم، منذ الرسم البدائي الأول لبروفيل جسد بشري، وقد جرى فتحه والتنقيب عنه في ما بعد بالمعول، وحتى الفولاذ المقوى بالكروم، واللوحات العاكسة، والألياف الاصطناعية، وزجاج المرايا الذي صار يُستخدم بصورة هذيانية في الزمن الحاضر الذي يدور الحديث عنه.

كانت النصب الجنائزية الأولى مؤلفة من الدُّلَمن[1]، والسيست[2]، والاستيلا[3]، وبعد ذلك تظهر كصفحة كبيرة ممتدة، في أعمال حفر بارزة ومجسمة، المشكايات، المذابح، المُصليات، ومسلات الفرانيت، وآنية

---

[1] الدّولَن dólmen: ضريح من أضرحة ما قبل التاريخ قوامه حجر مسطح موضوع فوق عدد من الحجارة المنصوبة.

[2] السيست cista: نوع آخر من الأضرحة.

[3] الاستيلا estela: نصب على شكل صفيحة حجرية منقوشة توضع فوق الضريح.

Twitter: @ketab_n

الرخام، والألواح الحجرية الملساء والمنقوشة، والأعمدة الدُّوريّة[4]، والأيونية، والكورنثية، وأعمدة الكرتيد[5]، والأفاريز، والأكانتو[6]، والمُوجهات[7]، والأسطح المعمدة، والعقود الزائفة، والعقود الحقيقية، والجدران المؤلفة من آجر متراكم، والضرائح المسورة بأحجار ضخمة، وكوى الإنارة في السقف، والكوى الجانبية المزخرفة على شكل زهور، والميازيب، والنوافذ الكبيرة، والعقود المثلثة، والقباب المستدقة، والأضرحة المكسوة بالبلاط، والزوافر[8]، والأعمدة المربعة، والتماثيل الرابضة التي تمثل رجالاً يعتمرون الخوذ ويحملون سيوفاً ويتسربلون بالدروع، وتيجان الأعمدة التاريخية وغير التاريخية، ونقوش الرمان، والزنابق، والخالدات، وأبراج الأجراس، والقباب، والتماثيل المستلقية لنساء مشدودات الأثداء، ولوحات الرسم، والأقواس، والكلاب الوفية الرابضة على الضريح، والأطفال المزنرون، ومقدمو القرابين، والنادبات برؤوسهن المغطاة بشالات، والمسلات، وزخارف التعاريق الناتئة، والزجاج الملون، والمنابر، والمنصات، والشرفات، ثم عقود حجرية أخرى، وتيجان أعمدة أخرى، وأقواس أخرى، وبعض الملائكة مبسوطي الأجنحة، وملائكة آخرون بأجنحة متهدلة، أوسمة، جرار فارغة، أو تُطلق لهباً متصنعاً في نحت على الحجر، أو يُسحب منها قماش حريري بوهن، كآبات، دموع، رجال مهيبون، نساء عظيمات، أطفال مجتثون وهم في عمر الزهور، مسنون ومسنات لم يعد بإمكانهم انتظار

---

[4] دُوري dorico: طراز معماري إغريقي بدائي، يمتاز بالبساطة.

[5] الكرتيد cariátid: تمثال امرأة أو رجل يقوم مقام عمود يسند طُنفاً أو إفريزاً.

[6] أكانتو acanto: زخرفة معمارية تستخدم أساساً في تيجان الأعمدة وتتخذ شكل أوراق نبات شوكي يحمل الاسم نفسه.

[7] المُوجهة: مثلث مزخرف فوق نافذة أو مدخل بناء معمد.

[8] زافرة arbotante: نصف قنطرة يُدعم بها عقد أو جدار.

Twitter: @ketab_n

المزيد، صلبان كاملة، وصلبان مكسرة، أدراج، مسامير صلب، تيجان شوك، رماح، مثلثات غامضة، بعض الحمائم الفريدة من الرخام، وأسراب حمائم حقيقية تحلق في دوائر فوق المقبرة. وصمت. صمت لا تقطعه بين حين وآخر إلا خطوات شخص عابر ومحب متلهف للعزلة، يصله حزن مفاجئ في ضجة قريبة، حيث ما زال يُسمع صوت بكاء عند حافة جثوة فوقها باقات زهر غضة، ما تزال رطبة بنسغها، مخترقة، إذا كان يمكن قول ذلك، قلب الزمان، هذه الثلاثة آلاف سنة من قبور مختلفة الأشكال، والأرواح، والظروف، ومتحدة في الهجران نفسه والعزلة نفسها، لأن الآلام التي ولدت منها يوماً صارت قديمة جداً بحيث لا يمكن لها أن تجد ورثة. مسترشداً بالخريطة، ومتأسفاً مع ذلك في بعض اللحظات لافتقاره إلى بوصلة، كان دون جوزيه يمشي باتجاه قطاع المنتحرين، حيث دُفنت امرأة البطاقة، لكن خطواته صارت الآن أقل سرعة، أقل تصميماً، وهو يتوقف بين الفينة والفينة ليتأمل تفصيلاً نحتياً ملطخاً بالطحالب أو بأثر انزلاق المطر، بعض النائحات الصامتات في فاصل بين صرختين، بعض الكشف الرصين، بعض التراتيل الطقوسية، أو ليتهجى بصعوبة كتابة استرعى خطها انتباهه بصورة عابرة، ويُفهم، منذ السطر الأول الذي أمضى وقتاً طويلاً في فك رموزه، أن هذا الكاتب غير ضليع في الكتابات القديمة، بالرغم من أنه تفحص في بعض المرات، هناك في المحفوظات، رقوقاً تعود إلى هذه العصور تقريباً، ولهذا لم يتجاوز في الوظيفة مرتبة الكاتب قط. في أعلى ربوة قليلة الارتفاع، في ظل مسلة كانت في ما مضى علامة مسح جيوديزية، راح دون جوزيه يجول ببصره في ما حوله، إلى حيث يصل النظر، ولا يجد سوى قبور تعلو وتنخفض مع تضاريس الأرض، متسلقة منحدراً وعراً، ومسترسلة في المنبسطات. دمدم، إنها بالملايين، وفكر عندئذ بمساحات الأرض الشاسعة التي كان

Twitter: @ketab_n

يمكن توفيرها لو جرى دفن الأموات وقوفاً، متلاصقين كتفاً إلى كتف، في صفوف محكمة، مثل جيش في وقفة التأهب، دون أن يكون هناك سوى مكعب حجري فوق رأس كل واحد منهم، يشير إلى وجوده هناك، وتُروى على وجوهه الخمسة المرئية الوقائع الأساسية في حياة الميت، خمسة مربعات حجرية كأنها خمس صفحات، تضم ملخصاً للكتاب الكامل الذي كان من المستحيل عليه كتابته. وفي ملامسة الأفق تقريباً، بعيداً، بعيداً، بعيداً، يرى دون جوزيه أنواراً تتحرك ببطء، مثل بروق صفراء تشتعل وتنطفئ بانتظام ثابت، إنها سيارات المرشدين تستدعي من يمضون في إثرها، اتبعني، اتبعني، تتوقف واحدة منها فجأة، يختفي ضوؤها، وهذا يعني أنها وصلت إلى هدفها. نظر دون جوزيه إلى ارتفاع الشمس، ثم إلى الساعة، لقد بدأ الوقت يتأخر، عليه أن يحث الخطى إذا ما أراد الوصول إلى امرأة البطاقة قبل الغسق. استشار الخريطة، مرّ عليها بإصبعه السبابة كي يستعيد، بصورة تقريبية، الطريق الذي قطعه من مبنى الإدارة حتى المكان الذي هو فيه، قارنه مع ما عليه أن يمشيه، وأوشك أن يفقد الشجاعة. فالمسافة المتبقية في خط نظر مستقيم، حسب مقياس الخريطة، تبلغ خمسة كيلومترات، ولكن الخط المستقيم في المقبرة العامة لا يستمر طويلاً، كما قيل سابقاً، ولا بد من أن يضاف إلى هذه الخمسة كيلومترات التي يطيرها عصفور في الفضاء، كيلومتران آخران، بل وثلاثة، لن سيجتازها على الأرض. أجرى دون جوزيه حساباً للوقت وللقوة المتبقية في ساقيه، وسمع صوت التعقل يطلب منه أن يؤجل إلى يوم آخر، وبترو أكبر، زيارة قبر المرأة المجهولة، فبعد أن عرف أين مكانه، يمكن لأي سيارة أجرة، أو حافلة، أن توصله، بالدوران خارج المقبرة، إلى مقربة من المكان، مثلما يفعل ذوو الموتى عندما يحضرون للبكاء على أعزائهم ولوضع زهور جديدة في الجرار الفخارية التي على قبورهم،

Twitter: @ketab_n

أو لاستبدال مائها، خصوصاً في فصل الصيف. وكان دون جوزيه يُفند هذا التردد عندما وردت إلى ذهنه ذكرى مغامرته في المدرسة، في تلك الليلة المدلهمة الماطرة، وذلك السفح الجبلي المائل الذي تحوّل إليه سطح المستودع، ثم بحثه الجزع في داخل المبنى، وهو يقطر من رأسه حتى قدميه، بركبتيه المسلوختين اللتين يحتك بهما البنطال بصورة مؤلمة، وكيف تمكن، بالتصميم والذكاء، من التغلب على مخاوفه وتجاوز ألف صعوبة اعترضت طريقه، إلى أن اكتشف أخيراً السقيفة الغامضة ودخل إليها، مواجهاً ظلمة مخيفة أكثر من ظلمة أرشيف الموتى. من استطاع تجاوز كل تلك المشقات لا يحق له الآن أن يفقد الهمة أمام الجهد الذي تتطلبه مسيرة، مهما كانت طويلة، خصوصاً وأنها تجري تحت نور الشمس الصريح، وهو كما نعرف، صديق للأبطال. وإذا ما أدركته ظلال الغسق قبل أن يصل إلى قبر المرأة المجهولة، وإذا ما جاء الليل ليقطع عليه الدروب، ويبث فيها مُفزعاته غير المرئية، مانعاً إياه من مواصلة التقدم، فيمكنه أن ينتظر ميلاد اليوم الجديد مستلقياً على أحد هذه الأحجار المغطاة بالطحالب، في كنف تمثال ملاك حجري كئيب يحرس أحلامه. وفكر دون جوزيه، أو النوم تحت قنطرة إسناد مثل تلك التي هناك، ولكنه تذكر بعد ذلك أنه لن يجد بعد قليل مزيداً من تلك القناطر. وبفضل الأجيال القادمة والتطور اللاحق للعمارة المدنية، سيبدأ عما قريب ابتكار طرق أقل كلفة لإسناد جدار وإبقائه منتصباً، والمقابر هي، عملياً، المكان الذي تتبدى فيه أكثر من سواه منجزات التقدم لعيون الدارسين أو الفضوليين العاديين، بل وهناك من يؤكد أن مقبرة مثل هذه هي أشبه بمكتبة، حيث يحل أشخاص مدفونون محل الكتب، والحقيقة أنه لا فرق، إذ يمكن التعلم منهم بقدر ما يمكن التعلم منها. نظر دون جوزيه إلى الوراء، لم يكن بإمكانه، من المكان الذي هو فيه، أن يصل ببصره، من فوق النصب الجنائزية

Twitter: @ketab_n

المرتفعة، إلى ما هو أبعد من الرسم النائي لسطح مبنى الإدارة، فمغم، لم أكن أتصور أنني ابتعدت إلى هذا الحد، وبعد أن أبدى هذه الملاحظة، وكما لو أنه كان ينتظر سماع صوته فقط، لكي يتخذ قراراً، أعاد وضع قدميه على الطريق.

عندما وصل أخيراً إلى قسم المنتحرين، وكانت السماء ما تزال تغريل رماد الفسق الذي ما زال أبيض اللون، فكر في أنه أخطأ في التوجه، أو أن رسم الخريطة سيئ. فقد وجد أمامه امتداداً ريفياً فسيحاً، فيه الكثير من الأشجار، تكاد تشكل غابة، حيث القبور، لولا بعض أحجار الضرائح الظاهرة، لبدت أكثر شبهاً بالآجام النباتية الطبيعية. لم يكن بالإمكان رؤية الجدول من هنا، ولكن الخرير الخافت لانزلاق الماء على الصخور كان مسموعاً، وكانت تطفو في الجو، الذي مثل زجاج أخضر، برودة ليس سببها أولى ساعات الغروب فقط. وبما أن قبر المرأة المجهولة حديث لم تمض عليه سوى أيام قليلة، فلا بد أن يكون في الطرف الخارجي للحيز المشغول بالقبور، والمسألة الآن في معرفة في أي اتجاه هو. فكر دون جوزيه بأن أفضل ما يمكنه عمله، حتى لا يضيع، هو أن ينحرف باتجاه ضفة مجرى الماء الصغير والسير بعد ذلك على امتداد الضفة إلى أن يجد آخر القبور. سرعان ما غطته ظلال الأشجار، كما لو أن الليل قد خيم فجأة. فتمتم دون جوزيه، يجب أن أشعر بالخوف، وسط هذا الصمت، وبين هذه القبور، ومع هذه الأشجار التي تحيط بي، ولكنني بالرغم من كل ذلك أشعر بالطمأنينة وكأنني في بيتي، ساقاي وحدهما تؤلمانني من كثرة المسير، ها هو ذا الجدول، ولو أنني أشعر بالخوف لاستطعت الذهاب من هنا في هذه اللحظة بالذات، يكفي أن أجتازه، ولن يكون علي سوى أن أخلع حذائي، وأشمر بنطالي، وأعلق الحذاء برقبتي وأعبر، ولن يصل الماء إلى ركبتيّ، وخلال وقت قصير سأكون مع أناس أحياء، بين تلك الأنوار التي

Twitter: @ketab_n

أضيئت للتو. بعد نصف ساعة من ذلك، وصل دون جوزيه إلى أقصى الحقل، عندما كان القمر، المكتمل تقريباً، وشبه المستدير، يصعد من الأفق. القبور هنا ما زالت دون أحجار كبيرة نُقشت عليها الأسماء ودون زينات زخرفية، ولا يمكن تمييزها إلا من خلال الأرقام البيضاء المكتوبة على لوحات سوداء مغروسة عند موقع الرأس، مثل فراشات مثبتة بدبابيس. كان ضوء القمر ينسكب رويداً رويداً على الحقل، متسللاً ببطء بين الأشجار مثل شبح مألوف وخيِّر. في فسحة خلاء، عثر دون جوزيه على ما كان يبحث عنه. لم يُخرج من جيبه الورقة التي أعطاه إياها كاتب المقبرة، ولم يبذل أي جهد ليحفظ الرقم في رأسه، ولكنه عرفه عندما احتاج إليه، وها هو ذا الآن أمامه، مشعاً بالكامل، كما لو أنه قد طلي بصباغ فسفوري. قال، إنها هنا.

Twitter: @ketab_n

عانى دون جوزيه من البرد طوال الليل. فبعد أن تلفظ بالكلمتين الحاسمتين وغير المجديتين، إنها هنا، لم يعد يعرف ما الذي يمكنه أن يفعله. صحيح أنه توصل أخيراً، بعد جهود طويلة ومضنية، إلى العثور على المرأة، أو بكلمة أدق، على المكان الذي ترقد فيه، على عمق سبعة أشبار معدودة عن سطح الأرض التي ما زالت تحمله فوقها، أما في أعماقها، وفكر بأن الأمر الطبيعي هو أن يتملكه الخوف، أن ترتعد فرائصه من المكان، من الوقت، من حفيف الأشجار، من ضوء القمر الغامض، ومن المقبرة التي تحيط به على وجه الخصوص، فهناك جمعية عمومية للمنتحرين، مجلس للصمت يمكن له بين لحظة وأخرى أن يبدأ بالصراخ، لقد جئنا إلى هنا قبل أن ينتهي أجلنا، جاءت بنا إرادتنا، ولكن ما كان يجول في أعماقه بدا أقرب بكثير إلى التردد، إلى الشك، كما لو أن بحثه لم ينته بعد، بينما هو يعتقد بأنه قد بلغ النهاية، وكما لو أن مجيئه إلى هنا لا يمثل إلا خطوة أخرى، لا تزيد أهمية عن ذهابه إلى بيت سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، أو المدرسة، أو الصيدلية التي وجه الاستفسارات فيها، أو الأرشيف الذي تُحفظ فيه، هناك في المحفوظات، أوراق الموتى، وكان الانطباع شديداً إلى حد غمغم معه، وكأنه يحاول إقناع نفسه، إنها ميتة، ولم يعد باستطاعتي عمل أي شيء آخر، لأنه لا يمكن عمل أي شيء في مواجهة الموت. كان قد مشى لساعات عبر المقبرة العامة، مرّ عبر أزمنة، عبر عصور وسلالات، عبر ممالك، وإمبراطوريات وجمهوريات،

Twitter: @ketab_n

عبر حروب وأوبئة، عبر ميتات يومية لا متناهية، بدءاً من أول ألم بشري وانتهاء بهذه المرأة التي انتحرت منذ أيام قليلة، ولهذا كان دون جوزيه يعرف أنه لا يمكن عمل شيء في مواجهة الموت. خلال الدرب المشكّل من كل تلك الأعداد من الموتى، لم ينهض أي واحد منهم على وقع خطواته، ولم يتوسل إليه أي واحد ليساعده في جمع غبار اللحم المنثور إلى العظم المتحلل، ولم يطلب أحد منه، تعال وانفخ في عينيّ نَفَس الحياة، فهم يعرفون جيداً أنه لا يمكن عمل شيء في مواجهة الموت، هم يعرفون ذلك، جميعهم يعرفونه، وما دام الأمر كذلك، من أين يأتي إذن هذا الغم الذي يُطبق على خناق دون جوزيه، من أين يأتيه انقباض الروح هذا، كما لو أنه ترك، بنذالة، عملاً في منتصفه ولم يعد يعرف كيف يعود ليُكمله بكرامة. في الجانب الآخر من الجدول، غير بعيد جداً، تبدو بعض البيوت بنوافذها المضاءة، ومصابيح الإنارة العامة في الضاحية بأضوائها الذاوية، وومضة عابرة من السيارة التي تجتاز الطريق العام. وفي مواجهته، على بعد أقل من ثلاثين خطوة، مثلما يجب أن يكون على هذا البعد أو ذاك، هناك جسر صغير يصل بين ضفتي الجدول، وليس على دون جوزيه بالتالي أن يخلع الحذاء، ولا أن يشمر بنطاله من أجل الوصول إلى الضفة الأخرى. لو كان في ظروف عادية لفعل ذلك، وخصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار أننا لا نعرفه كشخص مفرط في الشجاعة، وهي الصفة التي يحتاج إليها للبقاء دون مبالاة في مقبرة طوال الليل، مع وجود ميت تحت قدميه، وقمر لا يتورع عن جعل الظلال تمشي. ولكن الظروف على كل حال هي هذه وليس غيرها، فالأمر هنا لا يتعلق بالشجاعة أو الجبن، وإنما بالموت والحياة، ولهذا فإن دون جوزيه، مع معرفته بأنه سيشعر بالخوف مرات كثيرة هذه الليلة، ومع معرفته بأن تنهدات الريح ستبث الرعب في قلبه، وأن البرد الذي يهبط من السماء عند الفجر سيلتقي بالبرد الذي

Twitter: @ketab_n

يصعد من الأرض، سيجلس دون جوزيه تحت شجرة، متكوراً على نفسه في الفجوة التي هيأتها العناية الإلهية في جذع شجرة. إنه يرفع ياقة سترته، يتكور بأقصى ما يستطيع ليحتفظ بحرارة جسمه، يقاطع ذراعيه مخبئاً يديه تحت إبطيه ويستعد لانتظار طلوع النهار. يشعر بمعدته تطالبه بالطعام، ولكنه لا يأبه، فليس هناك من مات لأنه أطال الفترة بين وجبتين، اللهم إلا إذا تأخر تقديم الثانية طويلاً وفات موعد تقديمها إلى الأبد. دون جوزيه يريد أن يعرف إذا ما كان كل شيء قد انتهى حقاً، أم أن الأمر خلاف ذلك، وأنه ما زال ثمة شيء نسيه، أو شيء، وهذا أهم، لم يخطر له قط، ويكون هذا الشيء، أخيراً، هو جوهر هذه المغامرة الغريبة التي طلع بها القدر عليه. لقد بحث عن المرأة المجهولة في كل مكان وانتهى به الأمر إلى العثور عليها هنا، تحت جثوة التراب تلك التي لن تتأخر الأعشاب البرية طويلاً في تغطيتها، ما لم يأت قبل ذلك نحات الرخام ليسوى التراب ويركّب فوقه اللوحة الرخامية وقد كُتب عليها التاريخان المعهودان، الأول والأخير، والاسم، وقد يكون الأهل ممن يفضلون لموتاهم إطاراً مستطيلاً بسيطاً يزرعون بعد ذلك في داخله عشباً تزيينياً، وهذا حلّ يوفر فائدة مزدوجة بكونه أرخص كلفة وبتأمينه مأوى لحشرات سطح الأرض. ولكن المرأة موجودة هناك، لقد سُدت أمامها كل دروب العالم، مشت ما كان عليها أن تمشيه، وتوقفت حيث شاءت هي نفسها، نقطة وانتهى. لم يستطع دون جوزيه مع ذلك التخلص من فكرة ثابتة، فكرة أنه ما من أحد، اللهم إلا هو نفسه، قادر على تحريك الحجر الأخير المتبقي على الرقعة، الحجر الحاسم، ذاك الذي سيعطى، إذا ما حُرك في الاتجاه الصحيح، معنى حقيقياً للعبة، تحت طائلة تعرضه، إذا لم يحدث ذلك، للبقاء متعادلاً حتى الأبدية. إنه لا يعرف ما هي تلك النقلة السحرية، وإذا كان قد قرر قضاء الليل هنا فليس لأنه يأمل بأن الصمت سيبوح له في

Twitter: @ketab_n

أذنه بالسر ولا لأن نور القمر سيرسمه له بلطف بين ظلال الأشجار، إنه مثل شخص صعد جبلاً ليشاهد المناظر الطبيعية من هناك، ورفض العودة إلى الوادي طالما لم يشعر بأن عينيه المبهورتين ما عادتا تتسعان للمزيد.

الشجرة التي اختارها دون جوزيه هي زيتونة هرمة، ما زال أناس الضاحية يلتقطون ثمارها على الرغم من تحول حقل الزيتون إلى مقبرة. ومع تقدم الشجرة في عمرها المديد، راح جذعها ينفتح في إحدى جهاته، من أعلى إلى أسفل، مثل مهد وُضع بصورة عمودية ليشغل حيزاً أصغر، وهناك راح دون جوزيه يغفو بين وقت وآخر، وهناك كان يستيقظ فجأة مذعوراً من صفعة ريح لطمت وجهه، أو إذا ما صار الصمت وسكون الهواء عميقين إلى حد تبدأ معه الروح الهائمة بين النوم واليقظة بالحلم بصرخات عالم ينزلق نحو العدم. وعند حدّ معين، مثل من يقرر أن يُنظف لطخةً أحدثتها حبةُ توت بحبة أخرى من التوت، قرر دون جوزيه اللجوء إلى الفنتازية لكي يستعيد في ذهنه كل الأهوال التقليدية للمكان الذي هو فيه، مواكب الأرواح المحزونة الملفوفة بملاءات بيضاء، رقصات الموت التي ترقصها هياكل عظمية تطقطق عظامها مع الإيقاع، شخصية الموت البغيضة وهي تحصد الأرض بمنجلها الكبير الدامي حتى يستسلم الميتون قانعين ببقائهم ميتين، ولكن، لأن شيئاً من ذلك كله لم يكن يحدث في الواقع، ولأنها مجرد تخيلات، راح دون جوزيه يهوي، شيئاً فشيئاً، في سلام داخلي هائل، لا يعكره أحياناً إلا الجري غير المسؤول للنيران الكاذبة التي يمكن لها أن توصل إلى حافة الانهيار العصبي كل شخص، مهما كانت قوة معنوياته ومهما كانت معارفه في المبادئ الأولية للكيمياء العضوية. وكون دون جوزيه الرعديد يبدي هنا شجاعة لم نكن نتوقعها منه بعد أن رأينا الكثير من تردده وكروبه، يُثبت، مرة أخرى، أن الروح تُظهر كل عظمتها

Twitter: @ketab_n

الحقيقة في الملمات الكبرى. ومع اقتراب الفجر، حين كان قد شفي تقريباً من المخاوف، وأنعشه دفء الشجرة التي تحتضنه، غرق دون جوزيه في النوم بهدوء واضح، بينما كان العالم من حوله قد بدأ يخرج، ببطء، من ظلال الليل الخبيثة ومن أضواء القمر الغامضة التي بدأت تودع. وعندما فتح دون جوزيه عينيه، كان الضياء قد بزغ. كانت فرائصه ترتعد من البرد، ويبدو أن الحضن النباتي الودود لم يكن سوى حلم آخر. اللهم إلا إذا كانت الشجرة قد رأت أنها أنجزت واجب الضيافة المفروض على كل أشجار الزيتون، بحكم طبيعتها، أن تقدمه، فأفلتته منها قبل الأوان وتركته مهجوراً دون ملاذ لبرودة الضباب الخفيف الذي يطفو، على مستوى الأرض، فوق المقبرة. نهض دون جوزيه بمشقة وهو يشعر بكل مفاصل جسده تطقطق، وتقدم متعثراً يطلب الشمس، في الوقت الذي كان يهز فيه ذراعيه ليدفئ جسده. إلى جانب قبر المرأة المجهولة، كانت هناك نعجة بيضاء تقضم العشب الرطب، وفي ما حولها، هنا وهناك، كانت نعاج أخرى ترعى. وكان هناك رجل مسن، يحمل في يده عصا رعاة، ويتقدم باتجاه دون جوزيه. يرافقه كلب عادي، غير كبير ولا صغير، لا تبدو عليه سمات العدوانية، بالرغم من أن كل ما فيه يشير إلى أنه ينتظر أمراً من صاحبه ليكشف عن حقيقة طباعه. توقف الرجل في الجانب الآخر من القبر بالملامح المؤكدة لمن يرى، دون أن يطلب تفسيرات، بأن الآخرين مجبرون على تقديمها إليه، قال دون جوزيه، صباح الخير، فردّ عليه الآخر، صباح الخير، صباح جميل، ليس بالسيئ، فقال دون جوزيه، لقد غفوتُ، وكرر الرجل بنبرة متشككة، آه، غفوت، جئتُ هنا لزيارة قبر شخص عزيز، وجلست لأستريح تحت شجرة الزيتون تلك، فغلبني النعاس، أمضيتَ الليل هنا، اجل، إنها المرة الأولى التي ألتقي فيها بأحد في مثل هذه الوقت، عندما أجيء بالأغنام لترعى، فسأله دون جوزيه، ولا تأتي

Twitter: @ketab_n

خلال بقية النهار، سيبدو ذلك سيئاً، سيكون نوعاً من إساءة الاحترام أن تتوغل الأغنام بين المدافن أو تفلت البعر بين الناس الآتين لتذكر أحبائهم وهم يتلون الصلوات ويبكون، علاوة على أن المرشدين لا يريدون أن تزعجهم النعاج بينما هم يحفرون القبور، ولهذا لا أجد بداً من إحضار بعض الجبن لهم من حين لآخر حتى لا يحتجون لدى القيِّم، مادامت المقبرة العامة ميداناً مفتوحاً من كل الجهات، فإنه يمكن لأي شخص الدخول إليها، ومن يقول كل شخص، يمكنه أن يقول كل دابة، وأنا أستغرب أنني لم أر أي كلب أو قط من مبنى الإدارة حتى هنا، الكلاب والقطط الضالة ليست قليلة هنا، ولكنني لم أر أي واحد منها، وهل قطعت كل هذه الكيلومترات على قدميك، أجل، كان بإمكانك المجيء بالحافلة العامة، أو بسيارة أجرة، أو بسيارتك إذا كنت تملك واحدة، لم أكن أعرف مكان القبر، ولهذا اضطررت إلى الاستعلام أولاً في الإدارة، وبعد ذلك قررت المجيء مشياً لأن النهار كان رائعاً، يبدو لي غريباً أنهم لم يطلبوا مني الالتفاف من الخارج، مثلما يفعلون دائماً، طلبتُ منهم أن يسمحوا لي بالمرور، فسمحوا لي بذلك، هل أنت عالم آثار، لا، مؤرخ، ولا هذا، ناقد فني، ولا بأي حال، باحث في شعارات النبلاء، أرجوك، هذا ما ينقصني، لستُ أفهم إذن لماذا أردتَ أن تمشي كل هذه المسافة، ولا كيف استطعت النوم وسط القبور، فأنا المعتاد على هذا المشهد، لن أبقى دقيقة واحدة هنا بعد غياب الشمس، كما ترى، جلستُ لأستريح وغلبني النوم، انت رجل جسور، لستُ رجلاً جسوراً، وهل وجدتَ الشخص الذي جئت بحثاً عنه، إنه هذا الذي هنا، عند قدميك، أهو رجل أم امرأة، بل امرأة، مازالت دون اسم، أعتقد أن الأسرة تعمل على إعداد اللوحة الحجرية، لقد لاحظتُ أن ذوي المنتحرين أقل اهتماماً من الآخرين بهذا الواجب الأولي، ربما يشعرون بتأنيب الضمير، لا بد أنهم يشعرون بأنهم مذنبون. هذا محتمل، إذا كنا

Twitter: @ketab_n

لم نتعارف في أي مكان من قبل، فلماذا تردّ على كل أسئلتي، التصرف الطبيعي هو أن تقول لي إنه يجب علي ألا أتدخل في حياتك، هذه هي طريقتي في التعامل، أجيب عن كل ما يسألونني عنه، هل أنت مرؤوس، تابع، مستخدم، نادل، مراسل، أنا كاتب في المحفوظات العامة للسجل المدني، لقد جئتَ إذن لتعرف الحقيقة حول موقع المنتحرين، ولكن قبل أن أخبرك بذلك، عليك أن تقسم لي بوقار بأنك لن تكشف السر لأحد، اقسم لك بأقدس ما لدي في الحياة، وما هو أقدس ما لديك في الحياة، لستُ أدري، كل شيء، أو لا شيء، عليك أن تعترف بأنه قسم غامض، ليس لدي ما هو أكثر قيمة منه، يا رجل، احلف بشرفك، فقد كان هذا القسم هو الأكثر ضماناً في ما مضى، مثلما تريد، أقسمُ بشرفي، ولكن عليك أن تعرف بأن رئيس المحفوظات سينفجر في الضحك إذا ما سمع أن أحد كتبته قد أقسم بشرفه، ولكنه قسم جدي بما يكفي بين راعي أغنام وكاتب، قسم لا يدعو إلى الضحك، ولهذا سنلتزم به، فسأله دون جوزيه، وما هي حقيقة موقع المنتحرين، الحقيقة هي أن هذا المكان ليس مثلما يبدو لنا، إنه مقبرة، المقبرة العامة، بل هو متاهة، المتاهات يمكن رؤيتها من الخارج، ليس كلها، وهذه تنتمي إلى النوع غير المرئي، لستُ أفهم، فقال الراعي وهو يلمس بطرف عصاه جثوة التراب، الشخص الذي هنا على سبيل المثال، ليس الشخص الذي تظنه. وفجأة، مادت الأرض تحت قدمي دون جوزيه، فالحجر الأخير على الرقعة، يقينه الأخير، المرأة المجهولة التي عثر عليها أخيراً، اختفت كلها، فسأل وهو يرتجف، هل تعني أن هذا الرقم خاطئ، فقال الراعي، الرقم هو رقم، والرقم لا يخدع أبداً، فإذا ما رفعوا هذا الرقم من هنا ووضعوه في مكان آخر، حتى لو كان في آخر العالم، فسوف يبقى الرقم نفسه، لستُ أفهمك، سوف تفهم، أرجوك، رأسي مشوش، ليس بين كل هذه الأجساد المدفونة هنا جسد واحد

Twitter: @ketab_n

يتطابق مع الاسم المكتوب على لوحات الرخام، لا أصدق ذلك، أنا أقوله لك، وماذا عن الأرقام، كلها مستبدلة، لماذا، لأن هناك من يبدلها قبل أن يأتوا بالأحجار التي تحمل الأسماء ويثبتوها عليها، ومن الذي يفعل ذلك، أنا، فاحتج دون جوزيه ساخطاً، ولكن هذا العمل جريمة، ليس هناك قانون ينص على ذلك، سوف أشكوك الآن فوراً لإدارة المقبرة، تذكر أنك أقسمت، إنني أسحب قسمي، فهو بلا قيمة في مثل هذه الحالة، يمكنك دائماً أن تضع الكلمة الطيبة فوق الكلمة الخبيثة، ولكن ليس بالإمكان سحب هذه ولا تلك، الكلمة هي الكلمة، والقسم هو القسم، للموت قدسيته، القدسية هي للحياة أيها السيد الكاتب، أو هذا هو ما يقال على الأقل، ولكن لا بد أن يكون هناك، باسم الوقار، حدٌ أدنى من الاحترام للموتى، فالناس يأتون هنا لتذكر أقربائهم وأصدقائهم، ليتأملوا أو ليتلوا الصلوات، ليضعوا أزهاراً أو ليبكوا أمام اسم عزيز، وها أنت ترى أنه بسبب خبث راعي أغنام، يكون اسم المدفون الحقيقي مختلفاً، والرفات الموقر ليس للشخص المفترض، ويتحول الموت هكذا إلى مهزلة، لا أظن أن هناك احتراماً أكبر من البكاء على شخص لا نعرفه، ولكن الموت، ماذا، يجب احترام الموت، أحبُ أن أعرف ما الذي يعنيه، في رأيك، وجوب احترام الموت، عدم انتهاك حرمته قبل كل شيء، أنت تدرك جيداً أنني أتكلم عن الموتى وليس عن الموت بحد ذاته، قل لي أين تجد هنا أدنى إشارة إلى التدنيس، تلاعبك بأسمائهم ليس بالتدنيس الضئيل، أتفَهَّمُ أن تكون لدى كاتب في محفوظات السجل المدني مثل هذه الأفكار عن الأسماء، قطع الراعي كلامه، وأومأ إلى الكلب ليذهب في إثر نعجة ضالة، ثم تابع قائلاً، لم أخبرك بعد بالسبب الذي بدأتُ من أجله استبدال اللوحات التي كُتبت عليها أرقام القبور، أشكُ في أن معرفة ذلك تهمني، وأنا أشك في أنه لا يهمك، هيا أخبرني، إذا كان صحيحاً، مثلما

Twitter: @ketab_n

هي قناعتي، أن الناس ينتحرون كي لا يُعثر عليهم، فإن هؤلاء الذين هنا، وبفضل خبث راعي أغنام كما قلت حضرتك، صاروا بمنجى من كل التدخلات، والحقيقة أنه لن يكون بإمكاني أنا نفسي، حتى لو رغبتُ في ذلك، أن أتذكر أماكنهم الصحيحة، ما أعرفه فقط هو ما أفكر به عندما أمر أمام أحد هذه الألواح الحجرية التي تحمل الاسم الكامل وتاريخي الميلاد والوفاة، وبماذا تفكر، بأنه من غير الممكن رؤية الأكذوبة حتى ونحن نراها أمام عيوننا. كان قد انقضى وقت طويل على اختفاء الضباب، وصار بالإمكان الآن رؤية كِبَر حجم القطيع. أومأ الراعي بحركة بالعصا فوق رأسه، وكانت تلك الحركة أمراً إلى الكلب ليجمع الماشية. وقال الراعي، لقد حان وقت ذهابي مع النعاج، ليس لأن المرشدين بدؤوا بالمجيء، فأنا أرى أضواء سياراتهم، ولكنهم لا يأتون إلى هنا، فقال دون جوزيه، أما أنا فسأبقى، وسأله الراعي، هل تفكر حقاً في الإبلاغ عني، أنا رجل يحافظ على كلمته، وما أقسمت عليه قد أقسمت عليه، ومن المؤكد أنهم سوف ينصحونك بالتزام الصمت أيضاً، لماذا، تصور الجهد الذي سيتطلبه نبش قبور كل هؤلاء الأشخاص، والتعرف عليهم، مع أن كثيرين منهم لم يعودوا سوى تراب بين التراب. كانت الأغنام قد تجمعت، وكانت إحداها، وقد تلكأت قليلاً، تقفز برشاقة فوق القبور هرباً من الكلب لتنضم إلى أخواتها. سأله الراعي، هل كنتَ صديقاً أو قريباً لمن جئت لتزورها، بل إنني لم أكن أعرفها، وأنت تبحث عنها مع ذلك، كنتُ أبحث عنها لأني لا أعرفها، أرايتَ كيف أنني كنتُ على حق عندما قلت لكَ إنه ليس هناك احترام أكبر من البكاء على شخص لم نتعرف عليه، مع السلامة، ربما سيتاح لنا أن نلتقي مرة أخرى، لا أظن ذلك، ومن يدري، من تكون حضرتك، أنا راعي هذه الأغنام، ولا شيء سوى ذلك، لا شيء سوى ذلك. تلألأ ضوء من بعيد، فقال دون جوزيه، ذاك آتٍ إلى هنا، وقال الراعي، هكذا يبدو.

Twitter: @ketab_n

بدأ القطيع يتحرك، والكلب في المقدمة، باتجاه الجسر. وقبل أن يختفي وراء أشجار الضفة الأخرى، التفت الراعي وأومأ مودعاً. فرفع دون جوزيه ذراعه أيضاً. صار بالإمكان الآن رؤية ضوء سيارة المرشدين المتقطع بوضوح أكبر. إنه يختفي بين حين وآخر، متوارياً بتضاريس الأرض، أو بين أبنية المقبرة غير المنتظمة، الأبراج، المسلات، الأهرامات، ثم يعود للظهور أقوى وأقرب من السابق، إنه يأتي مسرعاً، وهي إشارة واضحة إلى أن الموكب المرافق ليس كبيراً. لقد كانت نية دون جوزيه، عندما قال للراعي، انا سأبقى، هي البقاء وحيداً بضع دقائق أخرى قبل أن يبدأ السير من جديد. الشيء الوحيد الذي يريده هو التفكير قليلاً بنفسه، والعثور على المقاس الدقيق لخيبة أمله، وتقبله، وإحلال السلام في روحه، والقول دفعة واحدة، لقد انتهى الأمر، ولكن فكرة جديدة خطرت له الآن. دنا من أحد القبور واتخذ هيئة من هو غارق في تأمل عميق في تقلبات الوجود، وفي عبثية كل الأحلام وكل الآمال، وفي الهشاشة المطلقة للأمجاد الدنيوية والإلهية. كان يتأمل بتركيز شديد لم يبد معه أنه انتبه إلى وصول المرشدين والأشخاص الستة، أو أقل، الذين يرافقون النعش. ولم يتحرك خلال الوقت الذي استمره فتح الحفرة، وإنزال النعش، وملء الفجوة، وتشكيل الجثوة المعهودة بما تبقى من تراب. ولم يتحرك عندما غرس أحد المرشدين فوق موضع الرأس لوحة معدنية سوداء عليها رقم القبر بالأبيض. ولم يتحرك عندما انصرفت سيارة المرشدين والسيارة الجنائزية، ولم يتحرك خلال الدقيقتين القصيرتين اللتين بقي أثناءهما المرافقون واقفين عند القبر يقولون كلمات غير مجدية ويمسحون دمعة ما. لم يتحرك عندما أدارت السيارتان اللتان أحضرتاهم محركيهما واجتازتا الجسر. لم يتحرك إلى أن بقي وحيداً. عندئذ نزع الرقم الذي على قبر المرأة المجهولة ووضعه على القبر الجديد. ثم نقل رقم هذا

Twitter: @ketab_n

ليحتل مكان الآخر. لقد تمت المبادلة، وتحولت الحقيقة إلى كذبة. والاحتمال الأكبر على أي حال، هو أن يجد الراعي في الغد قبراً جديداً، فينقل، دون أن يدري، الرقم المزيف إلى قبر المرأة المجهولة، إنه احتمال ساخر حيث تكرر الكذبة نفسها، فتتحول إلى حقيقة. إمكانيات المصادفة لا نهائية. انطلق دون جوزيه إلى بيته. وفي الطريق، دخل إلى محل حلويات. تناول قهوة مع الحليب وقطعة خبز محمص. لأنه لم يعد يتحمل مزيداً من الجوع.

Twitter: @ketab_n

قرر دون جوزيه أن يعوض ما فقده من النوم، فاندس في الفراش فور دخوله إلى البيت، ولكن لم تكن قد انقضت ساعتان حين استيقظ من جديد. لقد رأى حلماً غريباً، غامضاً، رأى نفسه وسط المقبرة، بين حشد من الأغنام، أعداد كبيرة من الأغنام تكاد لا تسمح بتمييز جثوات القبور، وعلى رأس كل واحدة منها رقم يتنقل باستمرار، بل إنه لم يكن قادراً، لشدة تشابهها، أن يعرف إذا ما كانت الأغنام هي التي تتبادل الأرقام أم أن الأرقام هي التي تتبادل الأغنام. وكان يُسمع صوت صارخ، إنني هنا، إنني هنا، لا يمكن أن يكون صادراً عن الأغنام لأنها فقدت القدرة على الكلام منذ زمن بعيد، ولا يمكن له أن يكون صادراً عن القبور كذلك، لأن الذاكرة لم تسجل أنها تكلمت في يوم من الأيام، ومع ذلك، كان الصوت ينادي بإصرار، إنني هنا، إنني هنا، فينظر دون جوزيه في ذلك الاتجاه ولا يرى سوى مخاطم البهائم المرفوعة، ثم تدوي الكلمات نفسها وراءه، إلى يمينه أو إلى يساره، إنني هنا، إنني هنا، فيلتفت بسرعة، ولكنه لا يتبين من أين تأتي. كان دون جوزيه مغموماً، يريد الاستيقاظ ولا يتمكن من ذلك، ويتواصل الحلم، ويظهر الآن الراعي وكلبه، فيفكر دون جوزيه، ليس هناك ما لا يعرفه هذا الراعي، وسيخبرني الآن من هو صاحب هذا الصوت، ولكن الراعي لم يتكلم، واكتفى بتحريك العصا فوق رأسه، فدار الكلب حول النعاج، مجبراً إياها على التحرك باتجاه جسر كانت تمر عليه بصمت سيارات ذات لوحات مضيئة تشتعل وتنطفئ قائلة اتبعني، اتبعني، اتبعني، وفي

Twitter: @ketab_n

لحظة اختفى القطيع، واختفى الكلب، واختفى الراعي، ولم يبق سوى أرض المقبرة مغطاة بأرقام، الأرقام نفسها التي كانت على رؤوس الأغنام من قبل، ولكن، لأنها كانت جميعها الآن معاً، جميعها متلاصقة من أطرافها، في حلزون غير منقطع هو نفسه مركزه، لم يعد بالإمكان تمييز أين يبدأ أحدها وأين ينتهي الآخر. استيقظ دون جوزيه مفموماً يغطيه العرق وهو يقول، إنني هنا. كانت جفونه مغمضة، وكان شبه واع، ولكنه كرر مرتين أخريين بقوة، إنني هنا، إني هنا، ثم فتح عينيه بعد ذلك على الحيز البائس الذي يعيش فيه منذ سنوات طويلة، رأى السقف المنخفض ذا الملاط المشقق، والأرضية بأخشابها الملتوية والمحدبة، والمنضدة والكرسيين في وسط الصالة، إذا كان لهذا الاسم من معنى في مثل هذا المكان، والخزانة التي يخبئ فيها أخبار وصور المشهورين، والركن المؤدي إلى المطبخ، والركن الذي يستخدمه كحمام، وعندئذ قال، عليّ أن أجد طريقة للخلاص من هذا الجنون، وكان يعني بذلك، بكل وضوح، المرأة التي صارت الآن مجهولة إلى الأبد، أما البيت، ويا له من مسكين، فليس له أي ذنب، لأنه بيت كئيب وحسب. وخوفاً من أن يتكرر الحلم، لم يحاول دون جوزيه العودة إلى النوم من جديد. كان مستلقياً على ظهره، ينظر إلى السقف، منتظراً منه أن يسأله، لماذا تنظر إليّ، ولكن السقف لم يأبه به، واقتصر على مراقبته دون أن يبدل ملامحه. تخلى دون جوزيه عن انتظار أن يهب السقف لمساعدته، لأن عليه أن يحل المشكلة وحده، والطريقة المثلى ما زالت في إقناع نفسه بأنه ليس هناك أي مشكلة، بموت الكلب انتهى السعار، كان هذا المثل الذي ينم عن قلة احترام هو ما خرج من فمه، وصف المرأة المجهولة بالكلب المسعور، متجاهلاً للحظة أن هناك سموماً بطيئة جداً ما إن يحين موعد مفعولها حتى نكون قد نسينا أصلها. ولكنه انتبه على الفور، وغمغم، حذار، فالموت في أحيان كثيرة هو سم بطيء، ثم تساءل

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك، متى ولماذا بدأت هي بالموت. عندئذ خرج السقف عن لامبالاته، ودون أن يبدو أن هناك علاقة مباشرة أو غير مباشرة بما سمعه، قال متذكراً، مازال هناك ثلاثة أشخاص على الأقل لم تكلمهم، فسأله دون جوزيه، ومن هم، إنهم الأبوان والزوج السابق، الحقيقة أن التحدث إلى الأبوين لن يكون بالفكرة السيئة، لقد فكرتُ في ذلك في البدء، ولكنني قررت تأجيله إلى مناسبة أخرى، إما أن تفعل ذلك الآن وإلا فإنك لن تفعله أبداً، فمازال بإمكانك اللهو بالمضي قليلاً في هذا الطريق، قبل أن يصطدم وجهك، نهائياً، بالجدار، لولا أنك متشبث بمكانك هنا طوال الوقت، باعتبارك سقفاً، لكنتَ عرفت أن الأمر لم يكن لهواً، وإنما كان تسلية، وما هو الفرق، ابحث عنه في المعاجم، فهذا هو مبرر وجودها، سألتُ لمجرد السؤال، فأي شخص يعرف بأن مناورة لهوٍ ليست مناورة تسلية، وما قولك في الآخر، من تعني بالآخر، أعني الزوج السابق، ربما كان القادر على إخبارك بأشياء أكثر من غيره عن امرأتك المجهولة هذه، يخيل إلي أن حياة المتزوجين، الحياة المشتركة، هي أشبه بعدسة مكبرة، ويخيل إلي أنه لا وجود لتحفظات أو أسرار قادرة على الصمود لوقت طويل أمام مجهر المراقبة المستمرة، هناك من يقول، على عكس ذلك، بأنه كلما ازداد التحديق تضاءلت الرؤية، ومهما يكن من أمر، لا أظن أن التحدث إلى ذلك الرجل يستحق العناء، إنك تخشى أن يبدأ في عرض أسباب الطلاق أمامك، فأنت لا تريد سماع شيء ينال منها، الناس عموماً لا يكونون عادلين، سواء مع أنفسهم أو مع الآخرين، وبالتالي سوف يروي لي القضية محاولاً أن يعطي نفسه كل الحق، تحليل ذكي، أجل يا سيدي، لستُ بالأبله، صحيح، لستَ أبله، كل ما هنالك أنك تحتاج إلى وقت طويل من أجل فهم الأشياء، وخصوصاً أشدها بساطة، مثل ماذا، لم يكن لديك أي مبرر للبحث عن هذه المرأة، إلا إذا، إلّا إذا، ماذا، إلا إذا كان هناك حب، لابد من أن

Twitter: @ketab_n

تكون سقفاً حتى تخطر لك مثل هذه الفكرة السخيفة، اظن أنني قلت لك ذات مرة بأن سقوف المنازل هي عين الرب المتعددة، لا أذكر ذلك، إذا كنتُ لم أقله بهذه الكلمات تحديداً، فإنني أقوله لك الآن، قل لي إذن كيف يمكنني أن أحب امرأة لم أعرفها، ولم أرها قط، إنه سؤال وجيه دون شك، ولكنك أنت وحدك من تستطيع الإجابة عنه، هذه فكرة ليس لها أساس ولا رأس، لا أهمية لأن يكون لها رأس أو أساس، فأنا أحدثك عن جزء آخر من الجسم، عن القلب، هذا الذي يقولون إنه محرك العواطف ومستقرها، اكرر أنه لا يمكن لي أن أحب امرأة لا أعرفها، امرأة لم أرها قط، اللهم إلا في صورٍ قديمة، كنت تسعى لرؤيتها، وللتعرف عليها، وهذا هو الحب سواء وافقت أم لم توافق، إنها أوهام سقف، بل هي أوهامك، أوهام إنسان، وليست أوهامي، أنت سقف متعجرف، تظن أنك تعرف كل شيء عني، ليس كل شيء، ولكن لا بد أنني عرفت شيئاً ما بعد كل هذه السنوات الطويلة من الحياة المشتركة، أراهن على أنه لم يجل في ذهنك قط أننا، أنا وأنت، نعيش معاً، والفرق الوحيد بيننا هو أنك لا تولينني اهتمامك إلا عندما تحتاج لنصيحتي وترفع بصرك إلى أعلى، بينما أنا أنظر إليك طوال الوقت، عين الرب، خذ مجازاتي على محمل إذا شئت، ولكن لا ترددها كما لو كانت لك. وبعد هذا قرر السقف أن يصمت، فقد أدرك أن أفكار دون جوزيه تتجه نحو الزيارة التي سيقوم بها إلى أبوي المرأة المجهولة، وهيّ خطوته الأخيرة قبل أن يصطدم بالجدار، وهذا أيضاً تعبير مجازي، لقد وصلتُ إلى النهاية.

غادر دون جوزيه الفراش، قام بالنظافة الجسدية كما يجب، أعد شيئاً يأكله، مستعيداً بذلك حيويته البدنية، واستعان بالحيوية المعنوية ليتصل هاتفياً بوالدي المرأة المجهولة، مُظهراً الفتور البيروقراطي الضروري، لكي يعرف في المقام الأول إذا ما كانا موجودين في المنزل،

Twitter: @ketab_n

ثم ليسألهما إذا كانا يستطيعان، في هذا اليوم بالذات، استقبال موظف من المحفوظات العامة للسجل المدني يحتاج إلى التداول معهما حول قضية لها علاقة بابنتهما المتوفاة. لو كان الأمر متعلقاً بمكالمة أخرى، لخرج دون جوزيه للتحدث من كابينة الهاتف العامة الموجودة في الجانب الآخر من الشارع، أما في هذه الحالة، فهناك خطر أن يسمع الناس، حين يصغون بتيقظ، صوت العملة المعدنية وهي تسقط في حصالة الآلة، وعندئذ سيحتاج حتى أقل الناس ارتياباً إلى البحث عن تفسير للسبب الذي يدفع موظفاً في المحفوظات العامة إلى الاتصال من كابينة هاتف، وفي يوم أحد، للتحدث عن شؤون لها علاقة بالعمل. حلّ هذه المشكلة الصعبة لم يكن بعيداً، في الظاهر، عن متناول يد دون جوزيه، إذ يكفيه أن يدخل خلسة إلى المحفوظات مرة أخرى، ويستخدم الهاتف الذي على منضدة الرئيس، ولكن المجازفة في هذا التصرف لن تكون أقل خطورة، فكشف المكالمات الهاتفية الذي ترسله الشركة كل شهر ويجري تدقيقه، رقماً فرقماً، من قبل المدير نفسه، سيتضمن بالضرورة هذه المكالمة السرية، ما هذه المكالمة التي أُجريت من هنا في يوم أحد، هكذا سيسأل المدير نائبه، وسيضيف على الفور، دون انتظار إجابة عادية، بادرا إلى إجراء تحقيق في الأمر، هيا. وسيكون حلّ لغز المكالمة السرية من أسهل الأمور في الدنيا، فهو لن يكلف سوى الاتصال بالرقم المشبوه وسماع المعلومة من هناك، أجل يا سيدي، في ذلك اليوم اتصل بنا موظف من المحفوظات العامة للسجل المدني، ولم يتصل فقط، بل جاء إلى بيتنا، وكان يريد أن يعرف الأسباب التي دفعت ابنتنا إلى الانتحار، وزعم بأن ذلك من أجل الإحصاء، من أجل الإحصاء، أجل يا سيدي، من أجل الإحصاء، هذا ما قاله لنا على الأقل، حسن، اسمعيني الآن بانتباه، قل ما تريد، من أجل الكشف التام عن هذه القضية لا بد لكِ أنتِ وزوجكِ من أن تتعاونا مع سلطات المحفوظات،

Twitter: @ketab_n

وما هو المطلوب منا، ستأتيان غداً إلى المحفوظات للتعرف على الموظف الذي زاركما، سنكون عندكم في الغد، ستأتي سيارة لإحضاركما. لم تقتصر مخيلة دون جوزيه على خلق هذا الحوار المثير للقلق، فما أن انتهى من ذلك حتى انتقل إلى التخيل الذهني لما سيحدث لاحقاً، دخول أبوا المرأة المجهولة إلى المحفوظات والإشارة إليه، إنه ذاك، أو بقاؤهما في السيارة التي ستأتي بهما، ليراقبا دخول الموظفين وليشيرا، لقد كان ذاك. وتمتم دون جوزيه بجزع، إنني ضائع لا محال، ليس أمامي من مخرج، بلى، لديك مخرج، وهو مخرج مريح، ونهائي، إذا ما تخليت عن الذهاب إلى بيت أبوي المرأة المجهولة، أو ذهبت إليهما دون إشعار مسبق، أن تذهب وتطرق الباب ببساطة وتقول، مساء الخير، أنا موظف من المحفوظات العامة للسجل المدني، أرجو المعذرة لمجيئي وإزعاجكما في يوم الأحد، ولكن العمل في المحفوظات تراكم إلى حد أننا طبقنا نظام عمل الساعات الإضافية الدائمة، لأن أناساً كثيرين يولدون ويموتون. سيكون ذلك أكثر التصرفات ذكاء دون ريب، فهو سيوفر لدون جوزيه أقصى الضمانات الممكنة حول أمنه المستقبلي، ولكن يبدو أن الساعات الأخيرة التي عاشها، وتلك المقبرة بأذرعها الأخطبوطية الممتدة، وليلة القمر القاتم والظلال المتحركة، والرقصة المتأرجحة للنار الكاذبة، والراعي المسن والنعاج، والكلب الصموت، كما لو أنهم استأصلوا حباله الصوتية، والقبور بأرقامها المتبدلة، يبدو أن كل ذلك قد شوش أفكاره، وهي المتألقة والصافية عموماً بما يكفي للتحكم بحياته، ولا يمكن أن تكون هناك طريقة أخرى لفهم إصراره على فكرة الاتصال بالهاتف، وما لا يمكن فهمه أكثر هو أنه يحاول أن يبرر ذلك، أمام نفسه، بالحجة الصبيانية بأنه يمكن لمكالمة مسبقة أن تمهد السبيل للحصول على المعلومات. وهو يرى أن لديه صيغة يمكن لها أن تبدد منذ البدء أدنى قدر من الريبة، إذ يمكنه أن يقول، ما يقوله الآن، وهو

Twitter: @ketab_n

جالس على كرسي الرئيس، أنا من مفرزة المحفوظات العامة للسجل المدني، فكلمة مفرزة هذه، كما يعتقد، هي المفتاح السري الذي سيفتح أمامه كل الأبواب، ويبدو أنه لا يجافي الحقيقة، فها هم يردون عليه من الجانب الآخر، أجل يا سيدي، يمكنك المجيء متى شئت، فاليوم لن نخرج من البيت. وجاءت ومضة رصانة أخيرة لتسوق إلى رأس دون جوزيه فكرة أنه إنما يعقد العقدة الأخيرة في أنشوطة الحبل الذي سيشنقه، ولكن الجنون طمأنه، قال له إن كشف المكالمات الهاتفية سيتأخر بضعة أسابيع قبل أن ترسله شركة الهاتف، ومن يدري، فقد يكون المدير في إجازة عندئذ، أو يكون مريضاً في بيته، أو ربما سيأمر ببساطة أحد نائبيه بتدقيق الأرقام، ولن تكون المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك، وهو ما سيعني أن الجريمة لن تنكشف في الغالب، إذا ما أخذنا في الاعتبار بأن أياً من نائبي المدير لن تروقه تلك المهمة، حسن، فليسترح الظهر مادامت العصا تروح وتجيء، دمدم دون جوزيه بذلك، مستسلماً لما يمليه القدر. أعاد دليل الهاتف إلى مكانه الدقيق على المنضدة، ومسح السماعة بالمنديل ليمحو بصمات أصابعه ودخل إلى البيت. بدأ بتلميع الحذاء، ثم مرّ بالفرشاة على البدلة، ارتدى قميصاً نظيفاً، وأفضل ربطة عنق، وكان يمسك مقبض الباب للخروج عندما تذكر وثيقة التكليف. فالذهاب إلى بيت أبوي المرأة المجهولة وتقديم نفسه ببساطة بالقول، أنا هو الشخص الذي اتصل من المحفوظات، لن يكون له بالتأكيد القدرة على الإقناع والسلطة بالمفعول نفسه الذي سيكون لوضعه أمام عيونهما ورقة رسمية، مختومة وموقعة، تخول حاملها كامل الحقوق والصلاحيات في ممارسة مهامه ومن أجل الإنجاز التام للمهمة الموكلة إليه. فتح الخزانة، وبحث عن ملف المطران وأخرج منه وثيقة التكليف، ولكنه أدرك بنظرة واحدة أنها لن تنفع. أولاً لأن تاريخها سابق للانتحار، وثانياً بسبب صيغة تحريرها بالذات،

Twitter: @ketab_n

وتضمنها مثل تلك العبارات التي تأمر بالتقصي الدقيق عن كل ما يتعلق بحاضر وماضي ومستقبل المرأة المجهولة، وفكر دون جوزيه، حتى أنني لا أعرف أين هي الآن، وأما بالنسبة لحياتها المستقبلية، فقد تذكر في هذه اللحظة، الأهزوجة الشعبية التي تقول، ما هو وراء الموت، لم يره أحد قط، ولن يراه أحد، فمن بين الكثيرين الذين ذهبوا هناك، لم يرجع أحد على الإطلاق. وكان على وشك أن يعيد وثيقة التكليف إلى مكانها، ولكنه اضطر في اللحظة الأخيرة إلى الرضوخ مرة أخرى للحالة الروحية التي تدفعه إلى التركيز بصورة لجوجة على فكرة والإلحاح عليها إلى أن يراها تتحقق. فبما أنه تذكر وثيقة التكليف، فلا بد له من أن يحمل معه وثيقة تكليف. دخل ثانية إلى المحفوظات، وتوجه إلى خزانة المطبوعات، ولكنه نسي أن خزانة المطبوعات صارت تُقفل على الدوام منذ ذلك التحقيق. أحس للمرة الأولى في حياته، كشخص مسالم، بهياج الغضب، وبلغ به ذلك إلى حد التفكير بتوجيه ضربة إلى الزجاج ولتذهب العواقب إلى الجحيم. ولكنه تذكر في الوقت المناسب لحسن الحظ بأن نائب المدير المكلف بالسهر على استهلاك المطبوعات يخبئ مفتاح الخزانة في درج منضدته، وأنه من غير المسموح، وفق أنظمة المحفوظات العامة الصارمة، إقفال أدراج منضدتي نائبي المدير، الشخص الوحيد الذي يحق له الاحتفاظ بالأسرار هنا هو أنا، هكذا كان قد قال الرئيس، وكلمته قانون، ولكنها لا تنطبق في هذه الحالة على المأمورين والكتبة لسبب بسيط هو أنهم، كما رأينا، يعملون على مناضد بسيطة، دون أدراج. لف دون جوزيه يده اليمنى بالمنديل حتى لا يترك أدنى أثر من أصابعه قد يشي به، وتناول المفتاح وفتح خزانة المطبوعات. أخرج ورقة رسمية عليها شعار المحفوظات، ثم أغلق الخزانة، وأعاد المفتاح إلى درج نائب المدير، وفي هذه اللحظة صدر صرير عن قفل باب المبنى الخارجي، سُمع لسان

Twitter: @ketab_n

القفل وهو ينزلق مرة، فأصاب دون جوزيه الشلل لبرهة، ولكنه ما لبث أن تحرك على الفور، مثلما في أحلام طفولته تلك التي كان يطفو فيها، دون وزن، فوق الحدائق والأسطح، لقد تحرك بخفة على رؤوس أصابعه، وعندما فُتح الباب كان دون جوزيه قد صار في بيته، لاهثاً، كما لو أن قلبه قد صعد إلى فمه. مرَّ وقت طويل قبل أن يُسمع من الجانب الآخر للباب صوت أحدهم يسعل، وفكر دون جوزيه وهو يشعر بارتخاء في ساقيه، إنه الرئيس، لقد نجوت بأعجوبة. ثم سمع السعال مرة أخرى، أكثر قوة، وربما أكثر قرباً، مع فارق أنه يبدو في هذه المرة مقصوداً، متعمداً، وكأن من دخل يريد الإعلان عن وجوده. كان دون جوزيه ينظر برعب إلى قفل الباب الرقيق الذي يفصله عن المحفوظات. لم يجد الوقت الكافي ليدير فيه المفتاح، وكان لسان القفل الصغير وحده هو الذي يُبقي الباب مغلقاً، وراح صوت يصرخ في رأس دون جوزيه، إذا ما جاء، إذا ما أدار مقبض الباب، إذا ما دخل هنا، فإنه سيفاجئك متلبساً بالجرم المشهود، بهذه الورقة في يدك، ووثيقة التكليف على الطاولة، ولم يقل له الصوت غير ذلك، فقد كان يشفق على الكاتب، ولم يحدثه عن العواقب. تراجع دون جوزيه بتمهل نحو الطاولة، تناول وثيقة التكليف وخبأها، مع الورقة التي أخرجها من الخزانة، بين ملاءات السرير الذي لم يرتبه بعد. ثم جلس بعد ذلك وراح ينتظر. لو أن أحداً سأله ما الذي ينتظره، لما عرف بماذا يجيب. مرت ساعة، وبدأ دون جوزيه يفقد الصبر. لم يعد يصدر من الجانب الآخر للباب أي صوت. لا بد أن أبوي المرأة المجهولة يستغربان تأخر موظف المحفوظات، انطلاقاً من مبدأ أن العجلة هي السمة الرئيسية لكل القضايا التي تتولاها مفرزة خارجية، مهما كانت طبيعة عملها، سواء الماء، أو الغاز، أو الكهرباء، أو الانتحار. انتظر دون جوزيه ربع ساعة أخرى دون أن يتحرك عن الكرسي. وبعد هذا الوقت انتبه إلى

Twitter: @ketab_n

أنه قد اتخذ قراراً، ولم يكن ذلك متابعة فكرة ثابتة ببساطة كما هي العادة، وإنما هو قرار، بالرغم من أنه هو نفسه لا يعرف كيف اتخذه. فقد قال بصوت عالٍ تقريباً، فليحدث ما يجب أن يحدث، الخوف لا يحل أي مشكلة. وبرباطة جأش لم تعد تفاجئه، تناول وثيقة التكليف والورقة الرسمية، جلس إلى المنضدة، وضع المحبرة أمامه، وراح يستنسخ، ويختصر وينقح، محرراً الوثيقة الجديدة، أُحيط علماً، بصفتي مدير هذه المحفوظات العامة للسجل المدني، جميع من يهمهم الأمر، مدنيين أو عسكريين، خاصين أو عامين، ممن يرون أو يقرؤون أو يراجعون هذا التكليف، بأن فلان الفلاني قد تلقى مني مباشرة، الأمر والتكليف بالتحري عن كل ما هو متعلق بظروف انتحار فلانة الفلانية، وعن الأسباب البعيدة والقريبة لانتحارها، بعد هذه النقطة بقي النص مطابقاً تقريباً للوثيقة الأولى، حتى صيغة الأمر الأخيرة والحاسمة، للتنفيذ. من المؤسف أنه لم يكن بالإمكان مهر الورقة بالخاتم، إذ لا يمكن الوصول إليه الآن بسبب دخول الرئيس إلى المحفوظات، ولكنه كان يعتمد إلى قوة السلطة التي تتضح من كل كلمة في الوثيقة. خبأ دون جوزيه وثيقة التكليف الأولى مع قصاصات المطران، ودس في جيب سترته الداخلية الوثيقة التي انتهى من كتابتها، ثم نظر بنفحة تحد إلى باب الاتصال مع المحفوظات. كان الصمت في الجانب الآخر ما يزال مطبقاً. عندئذ غمغم دون جوزيه، لا فرق عندي أن تكون هناك أو لا تكون. ثم تقدم نحو باب الخروج مغادراً، وأقفله بالمفتاح، بفظاظة، مديراً معصمه دورتين سريعتين، ساب، ساب.

نقلته سيارة أجرة إلى بيت أبوي المرأة المجهولة. قرع الجرس، فظهرت سيدة تبدو في الستين وبضع سنوات قليلة، وهي أصغر سناً بالتالي من سيدة الشقة اليمنى من الطباق فوق الأرضي التي كان زوجها يخونها معها قبل ثلاثين سنة، أنا الشخص الذي اتصل من

Twitter: @ketab_n

المحفوظات العامة، قال لها دون جوزيه، تفضل بالدخول، إننا في انتظارك، اعذريني لأنني لم أحضر فوراً، فقد كان علي أن أنجز قضية مستعجلة أخرى، لا أهمية لذلك، تفضل، تفضل، سأتقدمك. كان البيت غارقاً في جو مكفهر، فهناك ستائر تغطي الأبواب والنوافذ، وأثاث ثقيل، وعلى الجدران لوحات قاتمة لمناظر طبيعية لم يكن لها وجود قط. أدخلت صاحبة البيت دون جوزيه إلى حجرة أشبه بمكتب، حيث كان في الانتظار رجل أكبر منها سناً بصورة ملحوظة، قالت له المرأة، إنه السيد القادم من المحفوظات، فدعاه الرجل مشيراً إلى كرسي، تفضل بالجلوس. أخرج دون جوزيه وثيقة التكليف من جيبه، وأمسكها بيده وهو يقول، يؤسفني أن أزعجكم في حدادكم، ولكنها متطلبات العمل، هذه الوثيقة تبين بدقة فحوى مهمتي هنا. سلّم الورقة للرجل الذي قرأها وهو يقرّبها كثيراً من عينيه، وقال أخيراً، لابد أن مهمتك على جانب كبير من الأهمية، وإلا لما حُررت وثيقة بمثل هذه المفردات لتبريرها، إنه أسلوب المحفوظات العامة، حتى عندما يتعلق الأمر بمهمة بسيطة مثل هذه المهمة للتحقيق في أسباب انتحار، أيبدو لك ذلك قليلاً، ارجو ألا تسيء فهمي، فما أردتُ قوله هو أنه مهما كانت المهمة التي نؤديها، وتتطلب وثيقة تكليف، فإن الأسلوب يكون على هذا النحو، إنها بلاغة السلطة اللفظية، يمكنك أن تسميها بذلك. وهنا تدخلت المرأة لتسأل، وما الذي تريد المحفوظات معرفته منا، نريد أن نعرف السبب المباشر للانتحار في المقام الأول، فسأله الرجل، وفي المقام الثاني، الحيثيات، والظروف، والملابسات، وكل ما يمكن أن يساعدنا في فهم أفضل لما حدث، ألا يكفي المحفوظات أن تعرف بأن ابنتي قد انتحرت، عندما قلتُ لكما إنني أريد التكلم معكما لأسباب إحصائية، كنتُ أُبَسِّطُ المسألة، يمكنك الآن أن توضح ما تريد، لقد ولى الزمن الذي كنا نكتفي فيه بالأرقام، وصرنا نسعى في هذه الأيام إلى أن

Twitter: @ketab_n

نعرف، على أكمل وجه ممكن، الإطار السيكولوجي الذي تتطور فيه سيرورة الانتحار، فسألته المرأة، ولماذا، ما دام ذلك لا يعيد الحياة إلى ابنتي، الفكرة المتوخاة هي إقرار معايير للتدخل، فقال الرجل، لستُ أفهمك. بدأ دون جوزيه يتعرق، فالقضية أكثر تعقيداً مما توقعه، يا للحر، هتف بضيق، فسألته المرأة، هل تريد كأساً من الماء، إذا لم يكن في ذلك إزعاج، بالله عليكَ، قالت المرأة ذلك وهي تنهض لتخرج ثم ترجع بعد دقيقة. وبينما كان دون جوزيه يشرب الماء الذي أحضرته، قرر أنه لا بد له من أن يغير تكتيكه. وضع الكأس على الصينية التي تحملها المرأة وقال، تصورا أن ابنتكما لم تنتحر بعد، وتصورا أن البحث الذي تقوم به المحفوظات العامة للسجل المدني قد أتاح لنا إسداء بعض النصائح والتوصيات التي يمكن لها، إذا ما طُبقت في الوقت المناسب، أن تُوقف ما أسميته سابقاً سيرورة الانتحار، فسأله الرجل، أهذا هو ما كنتَ تعنيه بمعايير التدخل، أجل، بالضبط، قال دون جوزيه ذلك، ثم وجه الطعنة الأولى دون أن يفسح المجال لتعليق آخر، وإذا كنا لم نستطع الحيلولة دون انتحار ابنتكما، فربما سنتمكن، بمساعدتكما ومساعدة آخرين في مثل وضعكما، من تجنب الكثير من المآسي والكثير من الدموع. كانت المرأة تبكي وهي تهمهم، يا لابنتي الحبيبة، بينما الرجل يمسح عينيه بظاهر يده بعنف مكبوح. وكان دون جوزيه يأمل بألا يجد نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى وسيلة أخيرة، ستكون، كما فكر، قراءة وثيقة التكليف بصوت عالٍ وصارم، كلمة كلمة، وكأنها أبواب تُغلق على التوالي فلا تترك للسامع إلا مخرجاً وحيداً يتمثل في الانصياع الفوري لواجب التكلم. فإذا ما أخفقت هذه الوسيلة، فلن يكون أمامه سوى التماس العذر بأسرع ما يمكن والخروج مبدياً أكبر قدر من السخط. وسيكون عليه عندئذ أن يصلي كي لا يخطر ببال أبي المرأة المجهولة هذا أن يتصل بالمحفوظات العامة طالباً توضيحات بشأن زيارة موظف

Twitter: @ketab_n

يدعى دون جوزيه، ولستُ أذكر كنيته. لم يكن كل ذلك ضرورياً. فقد طوى الرجل وثيقة التكليف وأعادها إليه. ثم قال، إننا تحت تصرفك. تنفس دون جوزيه الصعداء، لقد صار الطريق مفتوحاً أمامه أخيراً للدخول في الموضوع، هل تركت ابنتكما رسالة ما، لا، لم تترك أي رسالة، ولا أي كلمة، اتريد أن تقول أنها انتحرت هكذا دون أية مقدمات، لا بد أن تكون لديها أسبابها، ولكننا لم نكن نعرفها، وقالت المرأة، لقد كانت تعيسة، فقاطعها زوجها بنفاد صبر، ما من سعيد ينتحر، وسألهما دون جوزيه، ولماذا كانت تعيسة، لا أدري، منذ طفولتها كانت تبدو كئيبة، وكنت أطلب منها أن تخبرني بما تعانيه فترد عليّ دوماً بالكلمات نفسها، لستُ أعاني من أي شيء يا أماه، لم يكن الطلاق إذن هو سبب الانتحار، على العكس، وإذا كنتُ قد رأيت ابنتي سعيدة يوماً، فإن ذلك حدث بعد انفصالها عن زوجها، ألم تكن علاقتها بزوجها جيدة، لم تكن جيدة ولا سيئة، بل كانت عادية مثل أزواج كثيرين، ومن منهما الذي طلبَ الطلاق، هي، هل كان هناك دافع محدد، على حد علمنا لا، كان ذلك وكأنهما وصلا كلاهما إلى نهاية طريق، وماذا عنه، عادي، إنه شخص عادي جداً، حسن الطباع، ولم يكن يبدي لنا تذمره قط، وهل كان يحبها، أظن ذلك، وهل كانت هي تحبه، أظن ذلك أيضاً، ومع ذلك لم يكونا سعيدين، لم يكونا سعيدين مطلقاً، يا له من وضع غريب، فقال الرجل، الحياة غريبة. ساد الصمت، فنهضت المرأة وخرجت. وبقي دون جوزيه حائراً، لم يكن يدري إذا ما كان من الأفضل أن ينتظر إلى أن تعود أم يواصل الحديث مع الرجل. كان يخشى من أن يؤدي توقف الحوار إلى تعثر الاستجواب، وكان التوتر في الجو يكاد يكون ملموساً. تساءل دون جوزيه عما إذا لم تكن عبارة الرجل تلك، الحياة غريبة، إلا صدى لعلاقته القديمة مع سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، وإذا لم يكن خروج المرأة المفاجئ سوى

Twitter: @ketab_n

ردّ من لم يكن بإمكانها في تلك اللحظة تقديم ردّ آخر. تناول دون جوزيه الكأس، وشرب قليلاً من الماء لكي يكسب الوقت، ثم وجه سؤالاً دون تفكير، هل كانت ابنتكَ تعمل، أجل، كانت معلمة رياضيات، اين، في المدرسة نفسها التي كانت تتعلم فيها قبل الذهاب إلى الجامعة. تناول دون جوزيه الكأس مرة أخرى، وكان على وشك أن يوقعه في تعجله، فتلعثم بصورة مضحكة، المعذرة، المعذرة، ثم انقطع صوته فجأة، وبينما هو يشرب، راح الرجل ينظر إليه بفضول مزدر، فقد بدا له أن المحفوظات العامة للسجل المدني، بالنظر إلى هذا النموذج، تعاني من سوء كفاءة موظفيها، فليس من اللائق أن يظهر أحدهم مسلحاً بوثيقة تكليف مثل تلك ليتصرف بعد ذلك كأحمق. دخلت المرأة في اللحظة التي كان زوجها يسأله بسخرية، الا تريد أن أعطيك اسم المدرسة، فربما ينفعك في الوصول إلى نتائج جيدة في مهمتك، اشكرك على ذلك شكراً جزيلاً. انحنى الرجل على المنضدة، وكتب على ورقة اسم المدرسة والعنوان، وقدمه بجفاء إلى دون جوزيه، ولكن الشخص الذي بدا أمامه الآن لم يعد الشخص نفسه الذي كانه قبل لحظات، فقد استعاد دون جوزيه هدوءه عندما تذكر أنه يعرف سراً من أسرار هذه الأسرة، سر قديم لا يمكن لأي من الزوجين أن يتصور أنه يعرفه. ومن هذه الفكرة برز السؤال الذي وجهه على إثر ذلك، هل تعرفان إذا ما كان لدى ابنتكما مذكرات ما، فقالت الأم، لا أعتقد، أو أنني لم أجد على الأقل شيئاً من هذا القبيل، ولكن لا بد أن تكون هناك أوراق مكتوبة، ملاحظات، فإذا ما سمحتم لي بإلقاء نظرة عليها، فقد أجد فيها شيئاً مهماً، فقال الأب، حتى الآن لم نُخرج أي شيء من البيت، ولا أدري متى سنفعل ذلك، وهل كانت ابنتكما تعيش في بيت مستأجر، لا، البيت ملك لها، افهم ذلك. ساد صمت قصير، فتح دون جوزيه خلاله وثيقة التكليف بتمهل، ونظر إليها من أعلى إلى أسفل كما لو أنه يتأكد

Twitter: @ketab_n

من الصلاحيات التي ما زال بإمكانه استخدامها، ثم قال، هل تسمحون لي بالذهاب إلى هناك، بحضوركم طبعاً، لا، جاء الجواب جافاً وحازماً، فذكّره دون جوزيه، وثيقة تكليفي، فقال الرجل، يمكن لوثيقة تكليفك أن تكتفي الآن بالمعلومات التي حصلت عليها، ثم أضاف، وإذا رغبتَ، يمكننا مواصلة الحديث غداً في المحفوظات، واعذرني الآن، فلدي أمور أخرى ينبغي لي أن أسويها، فرد دون جوزيه، لا حاجة لذهابك إلى المحفوظات، فما سمعتُه حول حيثيات الانتحار يبدو لي كافياً، ولكن ما زالت لدي ثلاثة أسئلة، ما هي، بأي شيء ماتت ابنتكما، تناولت جرعة مفرطة من الحبوب المنومة، وهل كانت وحدها في البيت، أجل، وهل وضعتم لوحة على قبرها، إننا نرتب هذا الأمر، ولكن ما سبب هذا السؤال، لا شيء، إنه الفضول وحسب. نهض دون جوزيه، وقالت المرأة، انا سأرافقك. وعندما صارا في الممر، رفعت إصبعها إلى شفتيها طالبة منه أن ينتظر. أخرجت دون ضجة من درج منضدة صغيرة هناك، ملتصقة بالجدار، حزمة مفاتيح. وبعد ذلك، بينما هي تفتح الباب، دستها في يد دون جوزيه هامسة، إنها مفاتيحها، وسأمر في أحد هذه الأيام على المحفوظات لاستعادتها. ثم اقتربت منه أكثر، وبما يشبه الزفرة، أخبرته بالعنوان.

Twitter: @ketab_n

نام دون جوزيه كأنه حجر. بعد أن عاد من الزيارة المجازفة، إنما ذات النتيجة الجيدة، لأبوي المرأة المجهولة أراد أن ينقل إلى الدفتر أحداث نهاية أسبوعه الاستثنائية، ولكن النعاس كان قوياً إلى حد لم يتمكن معه من الذهاب إلى ما هو أبعد من المحادثة مع كاتب المقبرة العامة. ذهب إلى الفراش دون عشاء، وخلال أقل من دقيقتين كان قد نام، وعندما فتح عينيه، مع أول أضواء الفجر، اكتشف أنه، دون أن يعرف كيف ولا متى، قد اتخذ قراراً بعدم الذهاب إلى العمل. كان اليوم هو الاثنين، وهو تحديداً أسوأ الأيام للتغيب عن الخدمة، وخصوصاً بالنسبة إلى كاتب. فمهما كان السبب الذي سيتذرع به، ومهما أمكن له أن يبدو مقنعاً في مناسبة أخرى، فإنه سيُعتبر مريباً إذا لم يُنظر إليه على أنه مجرد ذريعة زائفة، الهدف منها تبرير إطالة خمول يوم الأحد في يوم مكرس قانونياً للعمل. فبعد المخالفات المسلكية المتتالية والمتزايدة الخطورة التي ارتكبها مذ بدأ البحث عن المرأة المجهولة، أدرك دون جوزيه أنه يمكن للتغيب عن العمل أن يكون القطرة التي ستجعل كأس صبر الرئيس يطفح. ولكن هذه الرؤية لم تكن كافية مع ذلك للتقليل من عزمه على القرار. لقد كان هناك سببان يجعلان ما سيقدم عليه دون جوزيه غير ممكن التأجيل إلى ما بعد ظهر يوم لا عمل فيه. أول هذين السببين هو أن أم المرأة المجهولة ستأتي إلى المحفوظات في أحد هذه الأيام لاسترداد المفاتيح، والسبب الثاني هو أن المدرسة، مثلما يعرف دون جوزيه جيداً، وهي معرفة تحققت بتجربة

Twitter: @ketab_n

قاسية، تبقى مغلقة في نهاية الأسبوع.

وعلى الرغم من أنه قرر عدم الذهاب إلى العمل، فقد استيقظ دون جوزيه في وقت مبكر جداً. فهو يريد أن يكون بعيداً عن هناك عندما تفتح المحفوظات أبوابها، لأنه قد يخطر لنائب مدير قسمه أن يرسل أحدهم إلى بيته، ليسأل عما إذا كان قد مرض ثانية. وبينما هو يحلق ذقنه أمعن التفكير في ما إذا كان من الأفضل الذهاب أولاً إلى بيت المرأة المجهولة أم إلى المدرسة، ولكنه انتهى إلى تفضيل المدرسة، فهذا الرجل ينتمي إلى جموع من يتركون، على الدوام، ما هو مهم إلى ما بعد. وتساءل أيضاً عما إذا كان عليه أن يأخذ معه وثيقة التكليف أم أن إظهارها سيعرضه للخطر، آخذاً بعين الاعتبار أن مدير المدرسة، بحكم منصبه، يجب أن يكون شخصاً مطلعاً وعارفاً، وواسع القراءات، ولتصور أن المفردات المستخدمة في تحرير الوثيقة بدت له غير مألوفة، وغريبة، ومبالغاً فيها، ولتصور أنه طلب معرفة السبب في عدم وجود ختم على الوثيقة، إن الحذر يستدعي ترك هذا التكليف إلى جانب الآخر السابق، بين قصاصات المطران البريئة، وانتهى دون جوزيه إلى الاستنتاج، بطاقة الهوية التي تبين أني موظف في المحفوظات العامة يجب أن تكون أكثر من كافية، وأنا في نهاية المطاف لا أريد سوى التأكد من معلومة محددة، موضوعية، حول إذا ما كانت المرأة المنتحرة هي أستاذة رياضيات في تلك المدرسة. كان الوقت ما يزال مبكراً عندما خرج من البيت، وكانت الدكاكين مقفلة، دون أضواء، وحركة مرور السيارات لا تكاد تُلحظ، وربما كان أكثر موظفي المحفوظات نشاطاً ينهض من فراشه في هذا الوقت. ولكي لا يراه أحد في الجوار، اختبأ دون جوزيه في حديقة توجد على بعد كتلتين من العمارات، في الجادة الرئيسية، تلك التي تمر منها الحافلة التي حملته إلى بيت سيدة الشقة اليمنى من الطابق الأرضي، في مساء اليوم الذي

Twitter: @ketab_n

رأى فيه الرئيس يدخل إلى المحفوظات. وما لم يكن هناك من يعرف مسبقاً أنه موجود هناك، فإن أحداً لن يستطيع تمييزه بين الشجيرات، بين أغصان الأشجار الواطئة. وبسبب الرطوبة الليلية، لم يجلس دون جوزيه على مقعد، بل أمضى الوقت وهو يمشي في الممرات المحفوفة بالأشجار، وشغل نفسه بالنظر إلى الأزهار والتساؤل عن أسمائها، فليس من المفاجئ أن تكون معارفه النباتية ضئيلة وهو الذي أمضى حياته كلها محشوراً بين أربعة جدران، ومتنفساً رائحة الأوراق القديمة اللاذعة، وما هو لاذع أكثر، رائحة الأقحوان والورد تلك التي تجوب الهواء دائماً، والتي ذُكرت في بداية هذه القصة. عندما أشارت الساعة إلى موعد فتح أبواب المحفوظات العامة للجمهور، انطلق دون جوزيه، الذي بقي بمنجى من لقاءات غير مواتية، باتجاه المدرسة. لم يكن متعجلاً، فالنهار كله تحت تصرفه، ولهذا قرر الذهاب سيراً على الأقدام. وبما أنه انطلق من الحديقة فقد خامرته الشكوك حول الاتجاه الذي سيتخذه، وفكر في لو أنه اشترى خريطة للمدينة، مثلما كان ينوي، لما احتاج الآن لأن يسأل شرطياً ليوجهه، ولكن الحقيقة أن هذا الوضع، بوجود رجل قانون يوجهه نحو الجريمة، أشعره بشيء من السعادة الهدامة. لقد وصلت قضية المرأة المجهولة إلى نهايتها، ولم يبق أمامه سوى هذا التحري في المدرسة، وتفحص البيت، وإذا ما توفر لديه وقت بعد ذلك فسوف يقوم بزيارة سريعة إلى سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ليخبرها بآخر المستجدات، ولا شيء بعد ذلك. وفكر كيف سيعيش حياته من الآن فصاعداً، وهل سيعود إلى مجموعات شخصياته المشهورة، وأُعجب خلال ثوان سريعة بتخيل نفسه جالساً إلى المنضدة في السهر، وهو يقص الأخبار والصور من كومة صحف ومجلات بجانبه، مستشفاً بروز شخصية ستكون مشهورة، أو تحولها إلى الاضمحلال، ففي الماضي، توصل أحياناً إلى رؤية

Twitter: @ketab_n

مسبقة لمصير بعض الأشخاص الذين تحولوا إلى الشهرة، وكان في بعض الأحيان أول من أحس بأن إكليل غار هذا الرجل أو تلك المرأة سيبدأ بالذبول، بالجفاف، بالتحول إلى غبار، كل شيء ينتهي إلى القمامة، قال دون جوزيه ذلك، دون أن ينتبه في تلك اللحظة إذا ما كان يفكر في الشهرة المفقودة أم في مجموعته.

الشمس التي كانت تنعكس بقوة على الواجهة، وخضرة أشجار الفناء، وأحواض الزهور المتفتحة، ومظهر المدرسة لم يكن يُذكِّر بأي حال بالمبنى المظلم الذي دخل إليه دون جوزيه في ليلة ماطرة، بالتسلل والخلع والكسر. إنه يدخل الآن من الباب الرئيسي، ويقول لموظفة هناك، أريد التحدث إلى المدير، لا، لستُ مسؤولاً من التربية، ولستُ موزع مواد مدرسية كذلك، إنني موظف في المحفوظات العامة للسجل المدني، والمسألة تتعلق بالعمل. اتصلت الموظفة عبر هاتف داخلي، وأخبرت أحدهم بمجيء هذا الزائر، ثم قالت بعد ذلك، تفضل بالصعود، السيد المدير ينتظرك في السكرتارية، إنها في الطابق الثاني، فقال دون جوزيه، شكراً جزيلاً، وبدأ صعود الدرج باطمئنان، فهو يعرف أن السكرتارية في الطابق الثاني. كان المدير يتكلم مع امرأة لا بد أنها رئيسة السكرتارية، ويقول لها، إنني بحاجة إلى الرسوم البيانية غداً، فترد هي، ستكون جاهزة في الغد، وكان دون جوزيه قد توقف عند الباب منتظراً أن ينتبها إلى حضوره. أنهى المدير محادثته، ونظر إليه، وعندئذ فقط قال دون جوزيه، صباح الخير أيها السيد المدير، وبعد ذلك، وكان يحمل بطاقة هويته في يده، تقدم ثلاث خطوات إلى الأمام، كما يمكنك أن تتحقق، أنا موظف من المحفوظات العامة للسجل المدني، وقد جئت لأمر يتعلق بالعمل. أومأ المدير بحركة رفض للبطاقة، ثم سأله، ما هو الموضوع، إنه يتعلق بمعلمة، وما علاقة المحفوظات العامة بمعلمي هذه المدرسة، ليست لنا علاقة بهم كمعلمين،

Twitter: @ketab_n

وإنما بوصفهم أشخاصاً، اوضح من فضلك، إننا نقوم بأبحاث حول ظاهرة الانتحار، سواء من حيث مظاهرها النفسية أو آثارها الاجتماعية، وأنا مكلف بقضية سيدة كانت معلمة رياضيات في هذه المدرسة وانتحرت. أبدى المدير ملامح الأسى وقال، يا للسيدة المسكينة، إنها قصة حزينة لم يستطع أي منا حتى اليوم أن يفهمها، فقال دون جوزيه مستخدماً أكثر نبرة رسمية ممكنة، اول عمل علينا القيام به هو المبادرة إلى مطابقة عناصر هويتها الموجودة في أرشيف المحفوظات العامة مع السجل المهني للمعلمة، أظنك تعني سجلها كعضو في هيئتنا التدريسية، اجل يا سيدي. فالتفت المدير إلى المسؤولة عن السكرتارية، ابحثي لي عن هذه البطاقة، نحن لم نسحبها من الدرج بعد، قالت المرأة ذلك بنبرة متأسفة، في الوقت الذي راحت تمر بأصابعها على بطاقات أحد أدراج الأرشيف، ثم قالت، إنها هنا. أحس دون جوزيه بانقباض مفاجئ في بواب معدته، وببداية دوار لم يتعدَ لحسن الحظ إلا المرور سريعاً في رأسه، لقد كان الجهاز العصبي لهذا الرجل في حالة يرثى لها عملياً، إنما علينا أن نعترف بأن البطاقة التي تُعرض عليه الآن، كانت في متناول يده في مرة سابقة، فما كان عليه إلا أن يفتح ذلك الدرج الذي كُتبت عليه كلمة «الأساتذة»، ولكن كيف كان بإمكانه أن يتصور آنذاك أن الطفلة التي كان يبحث عنها ستصبح معلمة رياضيات في المدرسة التي تعلمت فيها تحديداً. دارى اضطرابه، وإن لم يستطع مداراة ارتعاش يديه، وتظاهر دون جوزيه بأنه يطابق بطاقة المدرسة مع نسخة بطاقة المحفوظات العامة، ثم قال بعد ذلك، إنها الشخص نفسه. كان المدير ينظر إليه باهتمام، وسأله، أنت لست على ما يرام، فرد هو ببساطة، هذا طبيعي، فأنا لم أعد شاباً، أعتقدُ أنك ستوجه إلي بعض الأسئلة، وهو كذلك، تفضل معي إذن، فلنذهب إلى مكتبي. ابتسم دون جوزيه بينه وبين نفسه بينما هو

Twitter: @ketab_n

يتبع المدير، وفكر، انا لم أكن أعرف أن بطاقتها كانت هناك، وأنتَ لا تعرف أنني أمضيت ليلة على أريكة مكتبك. دخلا إلى المكتب، ونبهه المدير، ليس لدي متسع كبير من الوقت، ولكنني تحت تصرفك، تفضل بالجلوس، وأشار إلى الأريكة التي كان الزائر قد استخدمها كسرير. قال دون جوزيه، اريد أن أعرف إذا ما لاحظتم تبدلاً في حالتها المعنوية خلال الأيام التي سبقت الانتحار، لم نلحظ أي تبدل، فقد كانت شخصية متكتمة وصموتة جداً على الدوام، وهل كانت معلمة جيدة، من أفضل الأساتذة الذين عرفتهم المدرسة، هل كانت تربطها صداقة بأحد زملائها، صداقة، بأي معنى، صداقة، دون أي معنى آخر، لقد كانت لطيفة، مهذبة في تعاملها مع الجميع، ولكنني لا أظن أنه يمكن لأحد هنا أن يقول إنه كان على علاقة صداقة معها، وماذا عن التلاميذ، هل كانوا يقدرونها، كثيراً، وهل كانت سليمة البنية، على حد علمي، أجل، أمر غريب، ما هو الغريب، لقد تكلمتُ مع أبويها وكل ما سمعته منهما، إضافة إلى ما أسمعه الآن، يشير إلى انتحارٍ لا تفسير له، فقال المدير، إنني أتساءل عما إذا كان الانتحار عملاً قابلاً للتفسير، هل تقصد انتحارها، بل أقصد الانتحار عموماً، إنهم يتركون رسائل أحياناً، هذا صحيح، ولكن ما لا أعرفه هو إذا كان بالإمكان اعتبار ما يقولونه فيها تفسيراً، ففي الحياة هناك أمور كثيرة بحاجة إلى تفسير، معك حق، ما هو تفسير ما حدث هنا مثلاً قبل أيام من الانتحار، ما الذي حدث، عملية سطو على المدرسة، صحيح، وكيف عرفتَ ذلك، المعذرة، كنتُ أحاول الاستفهام، وربما لم أُوفق في النبرة المناسبة، ولكن عمليات السطو يمكن تفسيرها بسهولة، اللهم إلا عندما يصعد الفاعل إلى سطح، ويدخل من نافذة بعد أن يكسر الزجاج، ويتجول في كل أنحاء المكان، وينام على أريكة مكتبي، ويأكل ما يجده في الثلاجة، ويستخدم أدوية من خزانة الإسعاف، ثم يغادر أخيراً دون أن يأخذ أي

Twitter: @ketab_n

شيء، وكيف تعرف أنه نام على الأريكة، لأننا وجدنا على الأرض البطانية التي أغطي بها ركبتي لأحميهما من البرد، فأنا لستُ شاباً كذلك، مثلما قلتَ حضرتك، وهل أبلغتم الشرطة، لماذا نبلغها، طالما أنه لم يسرق، فلا حاجة إلى ذلك، فالشرطة ستقول إنها موجودة للتحقيق في الجرائم وليس لحل الألغاز، أمر غريب دون شك، لقد تفقدنا كل شيء، كل المنشآت، وكان صندوق الخزنة سليماً، وكل شيء في مكانه، باستثناء البطانية، أجل، باستثناء البطانية، فهل تجد تفسيراً لذلك، يجب توجيه السؤال إلى الفاعل نفسه، ولا بد أن يكون لديه تفسير، وما إن قال دون جوزيه هذه الكلمات، حتى نهض قائلاً، أيها السيد المدير، لن أسطو على مزيد من وقتك، أشكر لك اهتمامك الذي أبديته بالموضوع غير السعيد الذي جاء بي إلى هنا، لا أظن أنني قدمت لك مساعدة كبيرة، ربما كنتَ على حق عندما قلت إنه لا يمكن إيجاد تفسير لأي انتحار، إذا ما فُسِّرَ عقلانياً، سيُفهم، كل شيء جرى كما لو أنها لم تفعل أكثر من فتح باب والخروج، أو الدخول، أجل، أو الدخول، حسب وجهة النظر، في هذا تجد تفسيراً رائعاً، لقد كان تعبيراً مجازياً، والمجازات هي أفضل طريقة لتفسير الأمور، عمت صباحاً أيها السيد المدير، أشكرك من أعماق قلبي، عمت صباحاً، لقد سعدت بالتحدث إليك، ولستُ أشير بالطبع إلى الحدث الحزين، وإنما إلى شخصك بالذات، بالطبع، إنها عبارات تقال، سأرافقك حتى الدرج. وبينما كان دون جوزيه ينزل المقطع الأخير من الدرج، تذكر المدير أنه لم يسأله عن اسمه، ثم قدّر على الفور، ليس لذلك أي أهمية، إنها قصة منتهية.

لم يكن بإمكان دون جوزيه أن يقول الشيء نفسه، إذ ما زال عليه أن يقوم بخطوة أخرى، عليه أن يبحث في بيت المرأة المجهولة عن رسالة أو عن مذكرات، أو عن مجرد ورقة نَفَّست فيها عن كربها،

Twitter: @ketab_n

صرختها، ما يتوجب على أي منتحر أن يتركه خلفه قبل أن يعبر ذلك الباب حتى يتمكن من يبقون في هذا الجانب من الباب طمأنة ذعر ضميرهم بالقول، يا للمسكين، كانت لديه مبرراته. ولكن الروح البشرية مع ذلك، وكم من مرة توجب قول ذلك، هي المكان المفضل للتناقضات، وقد لوحظ مؤخراً أن تلك التناقضات تزدهر أو أنها تجد ببساطة ظروف وجود حيوية خارج الروح، ولا بد أن هذا هو السبب في مضي دون جوزيه هائماً على وجهه عبر المدينة، من جهة إلى أخرى، إلى أعلى وأسفل، مثل ضائع بلا خريطة أو دليل، وهو يعرف تماماً ما يتوجب عليه عمله في هذا اليوم الأخير، لأن الغد سيكون زمناً آخر، أو أنه هو نفسه سيكون شخصاً آخر في زمن مماثل لهذا، والدليل على أنه يعرف ذلك هو أنه قد فكر فيه، من سأكون أنا غداً، بعد الانتهاء من هذا الأمر، وأي نوع من الكتبة سأكون في المحفوظات العامة للسجل المدني. مرّ مرتين من أمام بيت المرأة المجهولة، مرتين دون أن يتوقف، كان خائفاً، لن نسأله مم هو خائف، فهذا التناقض هو من أكثر التناقضات ظهوراً للعيان، لأن دون جوزيه يريد ولا يريد، يرغب ويخشى ما يرغب فيه، حياته كلها كانت على هذا المنوال. وهو الآن، من أجل كسب الوقت، من أجل تأجيل ما يعرف أنه محتم ولا مناص منه، يقرر بأن عليه أن يتناول الغداء أولاً، في مطعم رخيص، مثلما تفرض عليه محفظته الهزيلة، ولكن عليه قبل كل شيء أن يكون بعيداً عن هذه الأماكن، حتى لا يرتاب أحد الجيران الفضوليين بنوايا هذا الرجل الذي مرّ من هنا مرتين. ومع أن مظهره لا يتميز عن المظهر الذي يبدو عادة على الناس الشرفاء، إلا أن ما نراه لا يوفر ضمانات مؤكدة على الدوام، فالمظاهر تخدع كثيراً، ولهذا نسميها مظاهر، مع أنه في هذه الحالة التي أمامنا، وبالنظر إلى السن وهشاشة البنية الجسدية، لا يمكن لأحد أن يفكر في القول مثلاً بأن دون جوزيه يعيش على سطو

Twitter: @ketab_n

البيوت ليلاً. أطال أمد الفداء البسيط إلى أقصى ما استطاع، وعندما نهض عن المائدة كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بكثير، ودون تعجل، كما لو أنه يجرجر قدميه، راح يقترب من الشارع الذي عاشت فيه المرأة المجهولة. وقبل أن ينعطف في الزاوية الأخيرة توقف، وتنفس بعمق، لستُ رعديداً، فكر كي يمنح نفسه الحماس، ولكنه كان، مثلما يحدث لكثير من الشجعان، شجاعاً في بعض الأمور، وجباناً في غيرها، فواقع أنه أمضى ليلة في المقبرة لا يعني أنه سيتخلص من الارتعاش في ساقيه الآن. دس يده في جيب سترته الخارجي، تلمس المفاتيح، أحدها هو مفتاح صندوق البريد، وهو صغير وضيق، لا بد من استبعاده بالطبع، أما المفتاحان الآخران فهما متماثلان تقريباً، أحدهما لباب المبنى المؤدي إلى الشارع، والثاني هو مفتاح الشقة، عسى أن يصيب في استخدام المفتاح الصحيح فوراً، لأنه إذا كانت هناك في المبنى بوابة، وكانت من أولئك اللواتي يرصدن أي ضجة ليحشرن أنوفهن، فأي تفسير سيقدم لها، يمكنه أن يقول إنه جاء بتفويض من أبوي السيدة التي انتحرت، وإنه آت من أجل جرد الممتلكات، فأنا موظف في المحفوظات العامة للسجل المدني يا سيدتي، وهذه هي بطاقتي، وقد أعطوني كما ترين مفتاح البيت. أصاب دون جوزيه في اختيار المفتاح من المحاولة الأولى، وحارسة البوابة، إذا كانت هناك حارسة في المبنى، لم تظهر لتسأله، إلى أين أنت ذاهب يا سيدي، مع أن أفضل حارس للكَرْم، كما يقال، هو الخوف من مجيء الحارس، وسوف نرى فيما بعد إذا ما كان الحارس سيظهر. لقد كان هناك في البناء، على الرغم من قِدمه، مصعد، ولم يكن بإمكان دون جوزيه، بهذا الثقل الذي يشعر به في ساقيه، أن يصعد إلى الطابق السادس، حيث كانت تعيش معلمة الرياضيات. صرّ الباب لدى فتحه، مثيراً ذعر الزائر، الذي بدأ يتشكك فجأة في جدوى المبرر الذي فكر في تقديمه

Twitter: @ketab_n

إلى البوابة إذا ما واجهته. انسل بسرعة إلى داخل البيت، وأغلق الباب بكل حذر ليجد نفسه في عتمة كثيفة، لا تحتاج إلا قليلاً لتكون ظلاماً دامساً. تلمس الجدار إلى جانب إطار الباب، وعثر على مفتاح نور، ولكن الحذر أوحى له بعدم إشعاله، فقد يكون من الخطر إشعال الأنوار. وشيئاً فشيئاً راحت عينا دون جوزيه تعتادان على العتمة، قد يقال إن ذلك ما سيخطر لأي شخص آخر في مثل تلك الحالة، ولكن ما هو غير معروف عادة، أن كتبة المحفوظات العامة، بسبب اضطرارهم إلى التردد بانتظام على أرشيف الموتى، يكتسبون، مع مرور الوقت، قدرات في التلاؤم البصري خارجة على المألوف. ويصل الأمر بهم إلى امتلاك عيون كعيون الهررة، ما لم تدركهم سن التقاعد قبل ذلك.

على الرغم من أن الأرضية كانت مغطاة بالموكيت، إلا أن دون جوزيه فكر بأنه من الأفضل خلع الحذاء ليجنب أي اصطدام أو صوت يمكن أن يُعلم ساكني الطابق السفلي بوجوده. وبألف حرص سحب مزلاج درفتي إحدى النوافذ المطلة على الشارع، ولكنه لم يفتحهما إلا بما يكفي لدخول بعض الضوء. لقد كان في غرفة نوم. وكان هناك صوان، وخزانة، وكوميدينو. أما السرير فهو ضيق، إنه سرير عازبة، كما كان يقال في ما مضى. وكان الأثاث من طراز بسيط وفاتح اللون، على العكس من الطراز القاتم والثقيل للأثاث في بيت الأبوين. قام دون جوزيه بجولة في بقية غرف الشقة التي تقتصر على صالة جلوس مؤثثة بالأرائك المعهودة وبخزانة كتب تحتل جداراً من أقصاه إلى أقصاه، وغرفة أصغر تُستخدم كمكتب، والمطبخ الضيق، والحمام الذي يكفي لهذا الغرض وحسب. هنا كانت تعيش امرأة انتحرت لأسباب غير معروفة، امرأة كانت متزوجة وطُلقت، وكان بإمكانها أن تعود للعيش مع أبويها بعد الطلاق، ولكنها فضلت البقاء وحدها، امرأة كانت، مثل

Twitter: @ketab_n

الجميع، طفلة وصبية، وفي هذا الوقت، بطريقة ما لا يمكن تحديدها، تحولت إلى المرأة التي صارت إليها، معلمة رياضيات لها اسمها كشخص حي في السجل المدني إلى جانب أسماء كل الأشخاص الأحياء في هذه المدينة، امرأة عاد اسمها كميتة إلى العالم الحي لأن دون جوزيه انتشله من عالم الأموات، انتشل الاسم فقط، وليس هي نفسها، لأنه لا يمكن لكاتب عمومي أن يصل إلى أكثر من ذلك. ولأن كل الأبواب الداخلية كانت مفتوحة، فقد أنار ضوء النهار البيت إلى حد ما، ولكن يتوجب على دون جوزيه أن يبدأ بحثه إذا كان لا يريد التخلي عن مهمته في منتصفها. فتح درجاً في طاولة غرفة المكتب، جال بنظرة متثاقلة على محتوياته، بدت له تمارين رياضيات مدرسية، حسابات، معادلات، لا شيء مما يمكن له أن يفسر حياة وموت المرأة التي كانت تجلس على هذا الكرسي، وتشعل هذا المصباح، وتمسك قلم الرصاص هذا لتكتب به. أغلق دون جوزيه الدرج ببطء، وكان قد بدأ بفتح درج آخر، ولكنه لم ينه حركته، بل توقف مفكراً لوقت طويل، أم أنها كانت بضع ثوان فقط بدت له ساعات، ثم دفع بعد ذلك الدرج بقوة، ثم خرج من المكتب، ثم جلس على إحدى أرائك الصالة وبقي هناك. كان ينظر إلى جوربيه العتيقين المرفوين، وبنطاله المجعد والمشمر قليلاً، وقصبتي ساقيه البيضاوين والنحيلتين والشعر القليل الذي عليهما. أحس أن جسده يتوافق مع تجويف تتجيد الأريكة الذي يغطي النوابض والذي كان قد أحدثه جسد آخر، ففمفم، لن تعود إلى الجلوس هنا أبداً. الصمت الذي بدا مطبقاً، بدأ يتقطع الآن بأصوات الشارع، وخصوصاً بمرور سيارة بين حين وآخر، ولكن كان هناك في الجو كذلك صوت تنفس متقطع، وخفق بطيئ، ربما هو تنفس البيوت عندما تُهجر، أجل، وربما لم ينتبه هذا البيت بعد إلى أن هناك أحداً بداخله. ويقول دون جوزيه لنفسه إنه ما زالت هناك أدراج عليه تفقدها، أدراج الصوان،

Twitter: @ketab_n

حيث تُحفظ عادة الملابس الحميمة، وأدراج الكوميدينو، حيث تُحفظ في الغالب أشياء حميمة من نوع آخر، والخزانة، ويفكر في أنه إذا ما فتح الخزانة فلن يقاوم رغبته في أن يجوب بأصابعه الملابس المعلقة، هكذا، كما لو أنه يداعب ملامس بيانو صامت، ويفكر في أنه سيرفع أذيال أحد الأثواب ليشم الشذى، العطر، مجرد الرائحة. وهناك أدراج طاولة المكتب التي لم يفحصها، ومجموعة الأدراج الصغيرة في خزانة الكتب، فلا بد أن يكون مخبأ في مكان ما ذلك الشيء الذي يبحث عنه، الرسالة، المذكرات، كلمة الوداع، علامة الدمعة الأخيرة. لماذا كل هذا، تساءل، ثم أضاف، فلنفترض أن تلك الورقة موجودة، وأنني وجدتها، وقرأتها، لكن قراءتها لن تجعل الفساتين تبدل من كونها خاوية، فمنذ هذه اللحظة لن تجد تمارين الرياضيات حلولاً، ولن تُكتشف مجاهيل المعادلات الجبرية، ولن يزاح غطاء السرير من مكانه، ولن تنطبق طية الملاءة العلوية على الصدر، ولن يضيء مصباح القراءة الذي بجانب السرير صفحة الكتاب، فما انتهى قد انتهى. انحنى دون جوزيه إلى الأمام، وترك جبهته تسقط على يديه، كما لو أنه يريد مواصلة التفكير، ولكن الأمر لم يكن كذلك، لأن الأفكار قد نضبت. لقد خفت النور فجأة، لا بد أن سحابة تمر في السماء. وفي هذه اللحظة رنَّ جرس الهاتف. لم يكن قد انتبه إلى وجوده من قبل، ولكنه هناك، على منضدة صغيرة، في أحد الأركان، كشيء نادراً ما يُستخدم، دارت آلية تسجيل المكالمات، ونطق صوت أنثوي بالرقم، ثم أضاف بعد ذلك، أنا لستُ في البيت، اترك رسالتك بعد سماع الإشارة. أياً كان الشخص المتصل، فقد أغلق السماعة، هناك أناس ينفرون من التحدث إلى آلة، أم أن الحالة الآن هي خطأ في الاتصال، فلا حاجة إلى مواصلة المكالمة إذا نحن لم نتعرف على الصوت الصادر عن آلة التسجيل. هذا أمر يجب توضيحه لدون جوزيه الذي لم يرَ في حياته عن قرب مثل

Twitter: @ketab_n

هذا الجهاز، مع أنه في الغالب لن يولي أي اهتمام للتوضيح، فقد أصابته الكلمات القليلة التي سمعها بالارتباك، انا لستُ في البيت، اترك رسالتك بعد سماع الإشارة، أجل، أنها ليست في البيت، ولن تكون فيه بعد اليوم أبداً، ولكن بقي صوتها، خفيضاً، مؤرقاً، كأنه ساهٍ، كما لو أنها كانت تفكر في شيء آخر عندما قامت بالتسجيل. قال دون جوزيه، قد يعودون للاتصال، ومتعللاً بهذا الأمل، لم يتحرك عن الأريكة طوال أكثر من ساعة، وشيئاً فشيئاً راحت عتمة البيت تصير أكثر كثافة ولم يرن جرس الهاتف ثانية. عندئذ نهض دون جوزيه وتمتم، يجب علي أن أذهب، ولكنه قبل أن يغادر قام بجولة أخيرة على البيت، دخل إلى غرفة النوم، حيث الضوء أكثر، وجلس برهة على حافة السرير، مر بيده ببطء مرة بعد مرة على طية الملاءة المطرزة، ثم فتح الخزانة، وهناك كانت فساتين المرأة التي نطقت بالكلمات الحاسمة، انا لستُ في البيت. مال على الفساتين إلى أن لمسها بوجهه، الرائحة التي تفوح منها يمكن تسميتها برائحة الغياب، أو أنها رائحة ذلك العطر الممزوج من الورد والأقحوان الذي ينتشر بين حين وآخر في المحفوظات العامة.

لم تظهر البوابة لتسأله من أين هو آت، البناية صامتة، تبدو وكأنها مهجورة. وكان هذا الصمت هو الذي ولّد في رأس دون جوزيه فكرة، أكثر الأفكار جرأة في حياته، وماذا لو بقيت هذه الليلة هنا، لو نمت في فراشها، لن يعلم أحد بالأمر. قل لدون جوزيه إنه ليس هناك ما هو أسهل من ذلك، وإنه ليس عليه إلا أن يصعد مرة أخرى في المصعد، ويدخل الشقة، ويخلع حذاءه، بل قد يحدث أن يخطئ أحدهم مرة أخرى برقم الهاتف. وإذا حدث ذلك، ستستمتع مرة أخرى بسماع صوت معلمة الرياضيات المؤرق والخافت، انا لستُ في البيت، ستقول هي ذلك، وإذا ما حدث، خلال الليل، وأنت نائم في فراشها، أن راودك

Twitter: @ketab_n

حلم لطيف هيج جسدك العجوز، فأنت تعرف، العلاج في متناول يدك، وما عليك إلا توخي الحذر بالنسبة للملاءات. إنها تهكمات وبذاءات لا يليق توجيهها إلى دون جوزيه، ففكرته الجريئة، أو الرومانسية أكثر مما هي جريئة، سرعان ما مضت مثلما جاءت، وهو لم يعد الآن داخل المبنى، وإنما خارجه، ويبدو أن ما ساعده في الخروج هو تذكر جوربيه العتيقين المرفوين وقصبتي ساقيه النحيلتين البيضاوين بشعرهما الخفيف المتفرق. لا معنى لأي شيء في العالم، غمغم دون جوزيه بذلك، وتوجه نحو الشارع الذي تعيش فيه سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي. كان المساء يشرف على نهايته، ولا بد أن المحفوظات العامة قد أُغلقت، ولم تعد هناك ساعات طويلة قبل أن يتوجب على الكاتب أن يختلق قصة يبرر بها تغيبه عن العمل طوال يوم بكامله. فالجميع يعرفون أنه ليس لديه أقارب يضطر إلى أن يهب لنجدتهم بصورة مفاجئة، وحتى لو كان له أقارب، لن يكون ثمة عذر في حالته، فهو الذي لا يفصله سوى جدار عن المحفوظات، ليس عليه سوى الدخول ليقول من الباب، وداعاً، وإلى اللقاء في الغد. فهناك ابنة عم لي تحتضر. ويقرر دون جوزيه بأن ما جرى قد جرى، وأنه بإمكانهم أن يفصلوه إذا أرادوا، أن يطردوه من الوظيفة، ربما كان راعي الأغنام بحاجة إلى مساعد لتبديل أرقام القبور، خصوصاً إذا كان يفكر في توسيع مجال نشاطاته، فليس هناك مبرر لبقائها مقتصرة على المنتحرين، فالميتون جميعهم سواسية في نهاية المطاف، وما يمكن عمله لبعضهم يمكن عمله للجميع، الخلط بينهم، وما الفرق، فالعالم لا معنى له.

عندما طرق دون جوزيه بيت سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، لم يكن يفكر إلا بفنجان الشاي الذي سيتناوله. طرق الباب مرة، مرتين، ولكنْ أحداً لم يفتحه. وبحيرة وقلق قرع جرس باب الشقة

Twitter: @ketab_n

اليسرى. ظهرت امرأة سألته بنبرة جافة، ماذا تريد، لا أحد يرد في الجانب الآخر، وماذا في ذلك، ألا يمكنك أن تخبريني إذا كان قد حدث شيء، اي شيء تعني، حادث، مرض، مثلاً، هذا ممكن، فقد جاءت سيارة إسعاف لأخذها، ومتى حدث ذلك، منذ ثلاثة أيام، ولم يأت أي خبر آخر عنها، ألا تعرفين أين هي الآن، لا يا سيدي، المعذرة. وأغلقت المرأة الباب تاركة دون جوزيه في الظلام. فكر، غداً سأذهب إلى المستشفيات. كان يشعر بالإنهاك، لقد أمضى النهار كله وهو يتنقل من مكان إلى آخر، انفعالات قوية طوال النهار، وتأتي الآن هذه الصدمة للإجهاز عليه. خرج من البناية وبقي على الرصيف يتساءل عما إذا كان بإمكانه عمل شيء آخر، سؤال أحد المستأجرين الآخرين، فلن يكونوا جميعهم غير لطفاء مثل مستأجرة الشقة اليسرى في الطابق فوق الأرضي، رجع دون جوزيه إلى البناية، وصعد الدرج حتى الطابق الثاني، وطرق باب أم الطفلة وزوجة الرجل الغيور، لا بد أنه قد رجع من عمله في هذه الساعة، ولكن لا أهمية لذلك، فدون جوزيه ذاهب إلى هناك للسؤال فقط إذا ما كانوا يعرفون شيئاً عن الجارة المقيمة في الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي. كان نور الدرج مضاء، فُتح الباب، ولم تكن المرأة تحمل طفلتها بين ذراعيها، ولم تتعرف على دون جوزيه، سألته، ماذا تريد، اعذريني للإزعاج، لقد جئت لزيارة سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي، ولكنها غير موجودة، وقد أخبرتني مستأجرة الشقة المقابلة بأنهم أخذوها في سيارة إسعاف قبل ثلاثة أيام، أجل، هذا صحيح، أتعرفين أين هي، في أي مستشفى، أو في بيت أحد أقربائها. وقبل أن يتاح الوقت لأم الطفلة للرد، سأل صوت رجل من الداخل، من هناك، فأدارت رأسها، إنه شخص يسأل عن سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي، ثم نظرت إلى دون جوزيه وقالت، لا، لا نعرف عنها أي شيء. فخفض دون جوزيه صوته

Twitter: @ketab_n

وسألها، ألم تتعرفي عليّ، ترددت قليلاً، آه، بلى، قالت ذلك هامسة، وأغلقت الباب ببطء.

في الشارع، استوقف دون جوزيه سيارة أجرة، أوصلني إلى المحفوظات، قال ذلك للسائق وهو ساه. كان يفضل الذهاب ماشياً لكي يوفر قليلاً من النقود ولكي ينهي النهار مثلما بدأه، لكن الإنهاك لم يعد يسمح له بأن يخطو خطوة أخرى. أو هذا ما كان يظنه هو. وعندما قال له السائق، لقد وصلنا، انتبه دون جوزيه إلى أنه ليس أمام بيته، وإنما أمام بوابة المحفوظات. لم يكن هناك ما يستحق التوضيح للرجل بأن عليه أن يدور حول الساحة ويدخل في الشارع الجانبي، لأنه لن يحتاج لأن يمشي أكثر من خمسين متراً. دفع آخر ما تبقى معه من النقود وغادر السيارة، وعندما وطئت قدماه الرصيف، رفع رأسه ورأى أن نوافذ المحفوظات مضاءة. فكر، مرة أخرى، وسرعان ما تلاشى قلقه على سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي وأم الطفلة الرضيعة، فالمشكلة الآن في العثور على تبرير يقدمه في اليوم التالي. انعطف عند الناصية، وهناك كان بيته، واطئاً، أشبه بطلل، ملتصقاً بجدار البناء العالي الذي يبدو مستعداً لسحقه. عندئذ ضغطت أصابع همجية على قلب دون جوزيه. هناك نور في بيته. كان متأكداً من أنه أطفأ النور قبل أن يخرج، ولكن، مع الأخذ في الحسبان الاضطراب الذي يسيطر على رأسه منذ عدة أيام، فإنه سيتقبل الاعتقاد بأنه قد نسيه، لولا ذلك الضوء الآخر، ضوء المحفوظات، النوافذ الخمس المشعة بنور قوي. أدخل المفتاح في الباب، وكان يعرف من سيرى، ولكنه توقف عند العتبة، كما لو أن التقاليد الاجتماعية تفرض عليه أن يبدي مفاجأته. كان الرئيس جالساً إلى الطاولة، وكانت أمامه بعض الأوراق المصفوفة بعناية. لم يكن دون جوزيه بحاجة إلى الاقتراب ليعرف ما هي، إنها وثيقتا التكليف المزيفتان، وبطاقات المرأة المجهولة المدرسية،

Twitter: @ketab_n

ودفتر الملاحظات، وحافظة ملف المحفوظات الذي يضم الوثائق الرسمية. قال له الرئيس، ادخل، فالبيت بيتك. أغلق الكاتب الباب، وتقدم باتجاه المنضدة وتوقف. لم يتكلم، كان يشعر في رأسه بدوامة سائلة تذوب فيها جميع الأفكار. اجلس، لقد قلتُ لكَ إنك في بيتك. انتبه دون جوزيه إلى وجود مفتاح مثل مفتاحه فوق البطاقات المدرسية. سأله المدير، هل تنظر إلى المفتاح، ثم أضاف بهدوء، لا تظنه نسخة مزيفة، فبيوت الموظفين، عندما كانت موجودة، كان لها مفتاحان دائماً لباب الاتصال الداخلي، أحدهما لاستخدام ساكن البيت بالطبع، والآخر يبقى لدى المحفوظات، كل شيء منسجم كما ترى، باستثناء أنكَ دخلت إلى هنا دون إذن مني، تمكن دون جوزيه من قول ذلك، فقال المدير، لستُ بحاجة إلى إذن منك، فمالك المفتاح هو مالك البيت، ويمكننا القول إننا كلينا نملك هذا البيت، مثلما تشعر أنت بأنك مالك المحفوظات وتُخرج من أرشيفها وثائق رسمية، يمكنني أن أقدم تفسيراً، لا حاجة إلى ذلك، لقد تابعتُ نشاطاتك بانتظام، كما أن دفتر ملاحظاتك ساعدني كثيراً، وأنا أنتهز هذه الفرصة لأهنئك على صياغاتك الجيدة وملكتك اللغوية، سأتقدم غداً باستقالتي، وأنا لن أقبلها. نظر إليه دون جوزيه مذهولاً، لن تقبلها، لا يا سيدي، لن أقبلها، ولماذا، إذا كان بإمكاني السؤال، يمكنك بالطبع، بعد أن صرتُ مستعداً لأن أكون شريكاً متواطئاً في أعمالك غير النظامية، لستُ أفهم. تناول المدير ملف المرأة المجهولة، ثم قال، سوف تفهم، ولكن أخبرني قبل ذلك بما حدث في المقبرة، فروايتك تتوقف عند المحادثة مع الكاتب هناك، سيتطلب إخبارك بذلك وقتاً طويلاً، قله بكلمات موجزة، حتى تكتمل اللوحة لدي، اجتزتُ المقبرة العامة مشياً على الأقدام حتى منطقة المنتحرين، ونمتُ تحت شجرة زيتون، وفي صباح اليوم التالي، عندما استيقظت، وجدتُ نفسي وسط قطيع من الأغنام، وعرفتُ بعد ذلك أن

Twitter: @ketab_n

الراعي يتسلى باستبدال أرقام القبور قبل وضع اللوحات الحجرية عليها، ولماذا يفعل ذلك، من الصعب شرح الأمر، فكل ذلك يدور حول معرفة أين هم فعلاً الأشخاص الذين نبحث عنهم، وهو يعتقد بأننا لن نعرف ذلك قط، مثل بحثك عن تلك التي أسميتها المرأة المجهولة، اجل يا سيدي، وماذا فعلتَ اليوم، ذهبتُ إلى المدرسة التي كانت معلمة فيها، وذهبت إلى البيت الذي عاشت فيه، وهل اكتشفتَ شيئاً، لا يا سيدي، أظن أنني لم أكن أريد اكتشاف أي شيء. فتح المدير الملف، أخرج البطاقة التي جاءت ملتصقة ببطاقات الشخصيات المشهورة الخمس الأخيرة التي اهتم بها دون جوزيه، وسأله، أتعرف ما الذي كنتُ سأفعله لو أنني مكانك، لا يا سيدي، أتعرف ما المحصلة المنطقية لكل ما فعلته حتى هذه اللحظة، لا يا سيدي، أن تُعدَّ لهذه المرأة بطاقة جديدة، مثل البطاقة القديمة، تضم كل المعلومات نفسها، ولكن دون تاريخ الوفاة، وبعد ذلك، بعد ذلك تعيد وضعها في خزانة بطاقات الأحياء وكأنها لم تمت، سيكون ذلك تزويراً، أجل، سيكون تزويراً، ولكن لن يكون لأي شيء مما قلناه، أنا وأنت، من معنى إذا لم نقترف هذا التزوير، لم أتوصل إلى فهمك. اتكأ المدير على الكرسي، مرّ بيده ببطء على وجهه، ثم سأل، هل تتذكر ما قلته هناك في الداخل يوم الجمعة، عندما جئتَ إلى العمل دون حلاقة ذقنك، أجل يا سيدي، تتذكر كل شيء، كل شيء، انت تتذكر إذن أنني أشرت إلى بعض الأحداث التي لولاها ما كنتُ توصلتُ أبداً إلى فهم عبثية فصل الأموات عن الأحياء، أجل يا سيدي، هل أنا بحاجة إلى أن أخبرك بالأحداث التي أشرت إليها، لا يا سيدي.

نهض المدير، سأترك لك المفتاح هنا، فأنا لا أنوي أن أعود إلى استخدامه، ثم أضاف دون أن يتيح لدون جوزيه المجال للتكلم، مازالت هناك مسألة تحتاج إلى حلّ، أية مسألة يا سيدي، ملف امرأتك المجهولة تنقصه شهادة الوفاة، لم أستطع العثور عليها، لا بد أنها بقيت

Twitter: @ketab_n

في عمق الأرشيف، أو أنها وقعت مني في الطريق، هذه المرأة ستبقى ميتة ما لم تجدها، وستبقى ميتة حتى لو وجدتُها، فقال المدير، إلا إذا أتلفت الوثيقة. أدار ظهره لهذه الكلمات، وعلى الفور سُمعت ضجة إغلاق باب المحفوظات. بقي دون جوزيه واقفاً في وسط البيت. لم يكن بحاجة إلى ملء بطاقة جديدة، لأن النسخة التي استنسخها كانت في الملف. وكان لا بد، أجل، لا بد من تمزيق أو إحراق النسخة الأصلية حيث دُوّن تاريخ الوفاة. كما أن شهادة الوفاة ما تزال هناك في الداخل. اندفع دون جوزيه إلى المحفوظات، ذهب إلى طاولة الرئيس، فتح الدرج حيث ينتظره المصباح وخيط آريان. ربط أحد طرفي الخيط بكاحله وتقدم نحو الظلام.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

جوزيه ساراماغو

نوبل ١٩٩٨

• ولد عام ١٩٢٢ بمنطقة ارناغا (وسط البرتغال) لعائلة من فقراء المزارعين.

• بدأ حياته صانع أقفال، ثم صحافياً ومترجماً قبل أن يكرّس وقته كلياً للأدب.

• أصدر روايته الأولى «أرض الخطيئة» عام ١٩٤٧، وتوقف عن الكتابة ما يقرب العشرين عاماً، ليصدر عام ١٩٦٦ ديوانه الشعري الأول «قصائد محتملة».

• أصدر نحو عشرين كتاباً، ويعتبره النقاد واحداً من أهم الكتّاب في البرتغال، بفضل رواياته المتعددة الأصوات والتي تستعيد التاريخ البرتغالي بتهكم دقيق، قريب من الأسلوب الذي اعتمده ڤولتير.

• عضو في الحزب الشيوعي البرتغالي منذ عام ١٩٥٩.

• يعيش حالياً في جزر الكناري.

• أشهر رواياته: وجيز الرسم والخط (١٩٧٦)، ليفنتادو دوتشادو (١٩٨٠)، الإله الأكتع (١٩٨٢)، سنة موت ريكاردوريس (١٩٨٤)، الطوف البحري (١٩٨٦)، قصة حصار لشبونة (١٩٨٩)، الإنجيل بحسب يسوع المسيح (١٩٩٢)، العمى (١٩٩٥).

• حصل على جائزة نادي القلم الدولي عام ١٩٨٢، وعلى جائزة كاموئس البرتغالية عام ١٩٩٥.

• في تشرين الأول ١٩٩٨، منح جائزة نوبل للآداب.

ISBN:2-84305-541-X
9 782843 055416